وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ

مصدر القرآن

دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحى المحمدى

د. إبراهيم عوض

١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ

مصدر القرآن

دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين

حول الوحي المحمدي

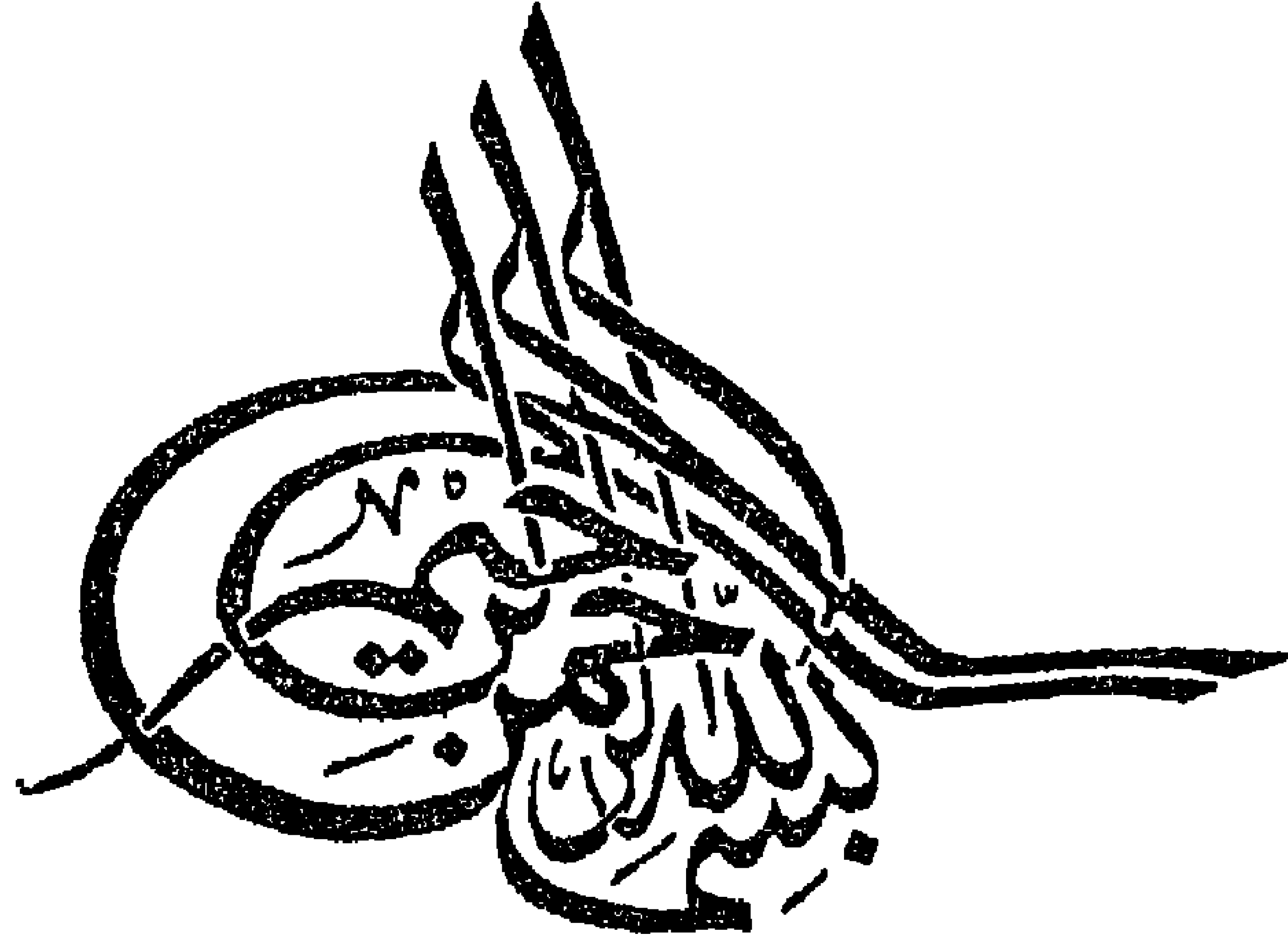
د. إبراهيم عوض

مصدر القرآن

دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحي المحمدي

١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

مكتبة زهراء الشرق
١١٦ شارع محمد فريد - القاهرة



مقدمة

هذا البحث يبين بالأسلوب العلمى أن الدراسة المدققة لشخصية الرسول وشخصية القرآن لا بد أن تؤدى إلى الإيمان الجازم بأن ذلك الكتاب يستحيل أن يكون من نتاج عقل محمد ومشاعره أو أى إنسان آخر ، وإنما هو وحى إلهى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأن الرجل الذى جاء به لا يمكن أن يكون إلا نبيا رسولا .

وقد قسمته إلى بابين : الباب الأول لدراسة شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام ، والثانى لدراسة المحتوى القرآنى وروحه . وقد قسمت الباب الأول بدوره إلى ثلاثة فصول درست فيها الشبهات التى يفسر بها المستشرقون والمبشّرون المصدر الذى جاء منه القرآن . وقد رتبت هذه الشبهات ترتيبا منطقيا بحيث إنه عندما يفرغ الدارس من مناقشة أولاها ويتبين أنها غير قائمة على أساس تاريخى أو علمى يجد أنها تسلمه تلقائيا إلى الشبهة التالية ... وهكذا . وهذه الشبهات تتلخص فى أن محمدا عليه السلام كان كذابا مخادعا ، أو أنه كان واهما مخدوعا ، أو أنه كان مريضا بمرض عصبى . وقد درست هذه الشبهات واحدة واحدة دراسة متأنية طرحت فيها كل لون من ألوان التحرج بغية الوصول إلى ما أعتقد أنه الحق الذى من شأنه أن يريح النفوس المتطلعة إليه والتى لا تألو فى البحث عنه أى

جهد ، واعتمدت فى ذلك كله على الروايات التاريخية الموثقة بعد أن أمررتها فى مصفاة المنطق الإنسانى العام ، وكذلك على الدراسات النفسية والطبية ، وبخاصة تلك التى تتعلق بمكنونات اللاوعى والأمراض النفسية والعصبية . ولسوف يرى القارئ كيف نظرتُ إلى الروايات التاريخية المتعلقة بعصر النبى عليه الصلاة والسلام وشخصه وأحاديثه من زاوية جديدة ، فإذا بها تفتح مغاليقها وتطلعنى على أسرار عجيبة ، مع أن هذه النصوص قلما يجهلها دارس للسيرة النبوية. أما الباب الثانى ، وقد قسمته هو أيضا إلى ثلاثة فصول ، فقد درست فيه شخصية القرآن ومحتواه ، ووجدت أنه لا يمكن أن يكون قد استُقِىَ من أى مصدر بشرى أو اقْتُبِسَ من أية ديانة أخرى ، وذلك بعد مقارنته بغيره من أديان عصره التى اتُّهِم الرسول بأنه قد أخذ عنها أفكاره عن وعى أو عن غير وعى ، وبعد تحليل ما يتلألأ على وجهه من لألاء العلم الشامل المحيط والنَّفَس الإلهى الذى لا يمكن أن تخطئه النفوس المحبة للحقيقة . ولعل القارئ يذكر أنى أعلنت فى مقدمة كتابى « المستشرقون والقرآن » عن نيتى فى دراسة هٰذا الموضوع الذى يدور عليه كتابى الحالى . وفى الحقيقة لم أكن أتخيل أن ذلك سيتم بهذه السرعة ، ولكن الألطاف الإلهية تقرب كل بعيد ، وتيسر كل صعب ، فالحمد لله حمدا كثيرا يليق بعظيم فضله وواسع رحمته .

وفى نهاية هذه الكلمة أود أن أشير إلى أن هذه الدراسة هى بمثابة تفكير من جانبى بصوت عال ، فقد قمت بها لأرضى عقلى وروحى فى المقام الأول ، ولعلها أن تشفع لى عند ربى يوم القيامة . وهو سبحانه رحيم يُقيل عثرات الضعفاء ويتجاوز عن زلاتهم .

الباب الأول

الرســـــول

الشبهة الأولى

أنه عليه السلام كان مخادعا كذابا

وُوجِه الرسول عليه الصلاة والسلام من قِبَل كثير من الخلق من أول يوم دعا فيه علانية إلى الإسلام ، ولا يزال حتى يومنا هذا يُوَاجَه ، بالتكذيب . وقد سجل القرآن فى أكثر من موضع هذا الاتهام الذى رماه به مشركو قومه ورده النصارى واليهود . أما بالنسبة لخارج المحيط العربى فيقرر شارل لودى أن حكم الرومان عليه ﷺ كان شديد القسوة ، إذ اتهموه بأنه استولى على أموال خديجة وماشيتها ، ولما افتضح أنه مصاب بالصرع أراد أن يواسيها ، فزعم لها أن جبريل ينزل عليه بالوحى من السماء [١]. وإذا غضضنا الآن البصر عن تهمة الصرع (لأننا سنعالجها مع غيرها من الاتهامات التى تشكك فى صحته الجسدية أو النفسية والعقلية فى فصل لاحق) تتبقى أمامنا تهمة الكذب واضحة لا تحتمل لبسا . وليس الكتاب الرومانيون القدماء هم وحدهم من بين الغربيين الذين يرمون الرسول عليه السلام بهذه التهمة ، فإن طائفة كبيرة من المستشرقين، نصاراهم ويهودهم وعقلانييهم ، يدّعون أن القرآن هو اختراع محمدى نسبه محمد إلى الله [٢] ، وإن دفع بعضهم عن رسولنا هذه التهمة ، كما فعل الكاتب البريطانى توماس كارلايل

(1) Charles J . Ledit, Mahomet, Israël et le Christ , p. 43.

(2) Maxime Rodinson , Mohammed , p. 218.

حين ساق ما زعمه براديه من أن القرآن طائفة من الأخاديع لفقها محمد ليسوغ ما اقترفه لبلوغ مطامعه [٣] . وقد بنى كارلايل دفاعه على أساس أن الإسلام لو كان دينا كاذبا لما استطاع أن يعيش طيلة هذه القرون تعتنقه كل هذه الملايين [٤] ، وكذلك على أساس أن محمدا لم يحاول ، وهو فى حرارة الشباب ، أن يحدث ضجة جريا وراء الشهرة بل عاش مع زوجته عيشة هادئة [٥] . أما ألفريد جيوم فإنه ينفى الكذب والادعاء عن الرسول ﷺ ، إذ يطبّق عليه المقياس الذى يقاس به صدق النبى عند بنى إسرائيل ، وهو يتلخص فى القول الثائر الملتهب ، والشعر [٦] ، والانشغال التام بالله وبالقضايا الأخلاقية ، والشعور بأن ثمة ضغطا يسوقه سوقا لإعلان كلمة الله ، فيجد أن هذه العلامات جميعها ظاهرة فى حالة الرسول محمد عليه السلام . كما يرى فى شكوكه عليه السلام فى مصدر الوحى فى أول الدعوة ومحاولته الانتحار دليلا قويا على صدقه ، مقارنا إياه فى هذا بالنبى أرميا [٧] . وبالمثل يؤكد جب أن محمدا كان مقتنعا تماما بأنه مبعوث من لدن رب العالمين [٨] .

---

(٣) توماس كارلايل / الأبطال / ترجمة محمد السباعى / ٢ / ٨٦ .

(٤) المرجع السابق / ٢ / ٥٨ . (٥) السابق / ٢ / ٧٢ .

(٦) غنى عن القول أن الكاتب مخطئ هنا ، فالقرآن ليس بشعر .

7 - Alfred Guillaume , Islam, p. 28 - 30 .

وانظر أيضا العنصرين الأول والثانى من هذا المقياس عند مالك بن نبى (الظاهرة القرآنية / ٤٤ ـ ٦١) .

8 - Gibb , Mohammedanism, p. 25 .

وإلى جانب هذين الرأيين المتقابلين ثمة رأى ثالث يفرق بين الدعوة فى مكة والدعوة فى المدينة : ففى المرحلة الأولى كان محمد مخلصاً صادقاً : يتضح صدقه وإخلاصه فى تحمسه الشديد ، وتحمله المشاق ، وإقناعه الأغنياء من أتباعه بالتواضع للفقراء والجلوس معهم... إلـــخ . أما فى الثانية فقد أعماه نجاحه لدرجة أنه أخذ يخترع الوحى تلو الوحى لتحقيق شهواته وتسويغ انتهازيته . وهذا هو السبب ، فى نظر أصحاب هذا الرأى ، فى أن القرآن مليء بالمتناقضات والمزاعم الكاذبة (٩) .

والمقصود بالمزاعم الكاذبة هنا أن للرسول الحق فى الاحتفاظ بأكثر من أربع زوجات ، وأن إبراهيم هو الذى بنى الكعبة ... إلخ . ومن أنصار هذا الرأى الكاتب الأمريكى الشهير واشنجتن إرفنج، الذى يرد على من اتهموا النبى عليه السلام بالزيف بأن النصف الأول من دعوته يكذّب هذه التهمة ، إذ ما الذى كان يبتغيه ؟ أهو المال ؟ لقد كان مال خديجة بين يديه ، وهو من جهته لم يكن حريصا على الاستزادة منه . أهو الشرف إذن ؟ لقد كان شريفاً فى قومه ، محترما لذكائه وأمانته ومكانة أسرته ، التى كان بيدها مقاليد

---

(٩) انظر : Joseph Hubby, Christus - Manuel d' Histoire des Religions, p. 795 - 797 , 800 . وهذا الرأى لإدمون پاور (Edmon Power) .

الكعبة ، فلِمَ يغامر بفقدان هذا كله في وقت كان يصعب عليه فيه بناء ثروته من جديد ، وهو الذى فقد ماله كما فقد أصدقاؤه مالهم فى سبيل الدعوة ؟ ثم يمضى متسائلاً : لماذا يتحمل كل ألوان الاضطهاد إذن إذا كان نبيا زائفاً ؟ (١٠) أما فى المدينة فقد تغير ، فى نظر الكاتب الأمريكى ، هذا كله ، إذ بعد أن كان كل همه عليه السلام أن يجد من يحميه إذا به يرى أتباعه يقدسونه ويرى حوله جموعا بها رغبة إلى الحرب . عندئذ ثار طموحه الدنيوى وأصبح القرآن يسوغ له كل شيء ، ووقع فى كثير من المتناقضات . باختصار : زال عنه صدقه وإخلاصه (١١) .

هذه هى النظرية الأولى التى حاول ومازال يحاول غير المسلمين

(10) Washington Irving , Mahomet and His Successors, p. 195 - 196 . وأحب أن أنبه القارئ أن إرفنج ومن على شاكلته لا يؤمنون بنبوة محمد مع ذلك ، فبرغم أنه يدافع ، كما هو واضح ، عن صدق الرسول ، نراه يعزو اعتقاده عليه السلام فى أنه رسول من عند الله إلى شدة تحمسه ، وإلى الوحدة التى كان يميل إليها ، وكذلك إلى مرضه الجسدى ورؤاه . فهذه الأشياء كلها قد جعلته ، فى رأى إرفنج ، يتوهم أنه رسولٌ حقيقةً ، وبخاصة بعد أن عضدته زوجته وشجعه ورقة بن نوفل .

(١١) المرجع السابق / ١٩٧ . والعجيب أن إرفنج يعود بعد صفحتين اثنتين لا غير فيعترف بأن نجاحه الساحق وانتصاراته عليه السلام لم تستتبع غرورا أو غطرسة ، لأنها لم تكن لصالح أهواء أو مصالح شخصية ، بل كانت لنشر الدين . فأى تناقض هذا ؟ بل إنه فى نهاية ترجمته للرسول يعلن حيرته فى الحكم الدقيق على شخصيته عليه السلام (ص/ ١٩٩ ـ ٢٠٠) .

تفسير ظاهرة الوحى القرآنى بها . ولقد رد القرآن هذه التهمة عن الرسول ﷺ وبيّن الباعث عليها ، وذلك فى الآية / ٣٢ من سورة «الأنعام» إذ يقول : « فإنهم لا يكذِّبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يَجْحَدون » . بيد أننا لن نلجأ هنا إلى مثل هذه الآية ، وإلا كان هذا مصادرة منا على المطلوب ، فإن علينا أولاً أن نتأكد بالدليل القاطع من أن القرآن ليس اختراعا محمديا ، وإلا كان محمد هنا ، وهو المتهم بالكذب والتلفيق ، يشهد لنفسه ، وهى شهادة بالطبع مردودة ، بل سوف نلجأ فى مناقشتنا لهذه النظرية إلى سيرة الرسول ﷺ فى مصادرها الأولى ، متتبعين ملامح شخصيته عن كَثَب ، غير ملقين بالاً ، من أخبار حياته وأخلاقه ، إلا لما لاح عليه نور الصدق بمنطق العقل المجرد . وسوف نحاول أن تكون الزوايا التى ننظر منها إلى شخصيته والموازين التى نقيس بها أعماله عليه السلام زوايا وموازين جديدة بقدر الإمكان حتى لا تتحول هذه الدراسة إلى مجرد مضغ لآراء من سبقونا من الكتاب والمفكرين، وإن لم نقصد بأىّ حال من الأحوال ، فى ذات الوقت ، أن نغمطهم حقوقهم ، فمن المؤكد أننا لولاهم ما كنا ببالغى شىء ممّا بلغناه فى هذه الدراسة.

لقد اشتهر الرسول بين قومه بالصدق والأمانة حتى لقد لقبوه بالأمين ، ولم أجد أحدا من المستشرقين شاحّ فى هذا . والملاحظ أنه

عليه الصلاة والسلام ، حين أعلن دعوته لعشيرته الأقربين أول مرة ، قد اعتمد على استفاضة هذه الشهرة فيهم فلم يشأ أن يفاجئهم بالدعوة إلى الدين الجديد قبل أن يحصل على اعترافهم الصريح بصدقه وأمانته ، إذ سألهم وهو واقف فوق أحد المرتفعات المحيطة بمكة : « أرأيتم لو أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلا (يقصد : خيلا مغيرة عليهم) أكنتم مُصَدِّقِيَّ ؟ » فردوا جميعا فى نفس واحد : « نعم » . عندئذ دعاهم إلى الإسلام . لكنهم ، ولمـّا تنْقَضِ ثوانٍ على إقرارهم بصدقه وأمانته ، عادوا فسفّهوا حِلْمه وانفضّوا عنه[١٢] . وقد كان أبو بكر نسابة يعلم ماضى كل إنسان فى قريش وأسرته وأخلاقه ، فلو كان يعرف أقل مغمز فى شخصية الرسول ﷺ ما دخل فى الإسلام ، فضلا عن أن يسارع فيه بدون ذرة من تردد[١٣] .

وقد بلغ من ثقتهم به أنهم كانوا يأتمنونه على أموالهم وودائعهم حتى بعد البعثة واستحكام عداوتهم له . ولو كان المؤتَمَن

---

(١٢) انظر تفسير البيضاوى للآية / ٢١٤ من سورة الشعراء . والملاحظ أن عبد الله ابن سلام ، وكان حبرا جليلا من أحبار اليهود ، اعتمد خطة مشابهة ، فلم يشأ أن يعلن إسلامه على قومه قبل أن يسألهم الرسول عليه السلام عن رأيهم فيه ، فأثنوا عليه وعلى علمه ومنزلته ثناء مستطابا ، ليرجعوا فور نطقه أمامهم بالشهادتين فيرموه بكل منقصة . انظر « سيرة ابن هشام » / ٢ / ١١٨ .

(١٣) سيرة ابن هشام / ١ / ٢٣٢ .

أحداً آخر غير محمد لكان خليقا أن يحمل معه هذه الودائع ليلة الهجرة بعد أن وصلت هذه العداوة حد التآمر الخسيس على قتله . لكنه ، وهو الصادق الأمين بحق ، لم يستحل لنفسه منها دانقا ، بل خلّف وراءه ابن عمه وربيبه عليا ، وكان لايزال صبيًا ، فنام فى فراشه تضليلا لهم حتى أصبح الصباح فغدا عليهم فسلم لكل منهم ما كان ائتمن عليه محمداً عليه الصلاة والسلام (١٤) . وهذه الأمانة وهذا الصدق فى التعامل مع الناس لم يزايلاه لحظة واحدة طول حياته لا فى مكة ولا فى المدينة ، على عكس ما يزعمه هؤلاء المستشرقون من أن تيار الأحداث بعد الهجرة قد جرفه بعيدا عما كان يحرص على الاستمساك به من مثالية فى مطالع الدعوة . ولنترك ابن هشام يرو عن ابن إسحاق بأسلوبه البسيط التلقائى القصة التالية : « قال ابن إسحاق : وكان من حديث الأسود الراعى ،

---

(١٤) المرجع السابق / ٢ / ٩١ ـ ٩٣ . وانظر كذلك كيف أن أبا العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ، وكان قد وقع أسيرا قبيل الفتح فى أيدى المسلمين بالمدينة ومعه تجارة قريش وأموالها ، إذ كان مؤتمنا فيهم ، قد حرص على ألا يعلن إسلامه إلا فى مكة . وبعد أن أطلق المسلمون سراحه بما كان معه من أموال ردها كاملة إلى أصحابها قائلاً إنه لم يمنعه من إعلان الإسلام عند حَميه عليه الصلاة والسلام إلا تخوفه من أن يظنوا أنه أراد أن يأكل أموالهم (ابن هشام / ٢/ ٢١٨ ـ ٢١٩) ، وهو ما يدل على أن الشبيه ينجذب إلى شبيهه . فهذا هو الخَتَن ، وذلك حَمُوه .

فيما بلغني ، أنه أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وهو محاصرٌ لبعض حصون خيبر ، ومعه غنم له كان فيها أجيرا لرجل من يهود ، فقال : يا رسول الله ، اعرض عليّ الإسلام ، فعرضه عليه ، فأسلم . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحقر أحدا أن يدعوه إلى الإسلام ويعرضه عليه . فلما أسلم قال : يا رسول الله ، إني كنت أجيراً لصاحب هذه الغنم ، وهي أمانة عندي ، فكيف أصنع بها ؟ قال : اضرب في وجوهها ، فإنها سترجع إلى ربها ، أو كما قال . فقال الأسود : فأخذ حفنة من الحصا فرمى بها في وجوهها وقال : ارجعي إلى صاحبك ، فوالله لا أصحبك أبدا . فخرجت مجتمعة كأن سائقا يسوقها حتى دخلت الحصن ، ثم تقدم إلى الحصن ليقاتل مع المسلمين فأصابه حجر فقتله ... إلخ » (١٥) .

والشاهد في هذا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يرد أن يلوث مسلم جديد إسلامه بمثل هذه الخيانة ، مع العلم بأنه بعد انتصاره على يهود خيبر قد حاز من أموالهم وأرضيهم وماشيتهم أضعاف أضعاف هذا القطيع من الغنم . ولكن غنم الأموال في حرب شريفة شيء ، واتخاذ الدخول في الإسلام تُكأةً لمثل هذا الاستيلاء الغادر عليها شيء آخر لا تقبله أخلاق الصادقين المطبوعين على الأمانة والوفاء حتى مع ألد الأعداء .

---

(١٥) ابن هشام / ٣ / ٢٢٢ .

وقد كان موقفه عليه السلام ، حين نزل عليه الوحى أول مرة ، دليلاً من دلائل صدقه التى لا تقبل المماراة . لقد شك فى مصدر هذا الوحى ورعب منه . وقصته حين عاد من الغار إلى بيته ليلا وهو يهتف : « دثّرونى . دثّرونى » أشهر من أن نحتاج إلى سوقها بالتفصيل (١٦). ووجه العبرة فيها ، فيما نحن بصدده ، أنه لو كان كاذبا فى أمر جبريل والوحى لكانت له فى ميدان الكذب مراغم واسعة يستطيع أن يصول فيها ويجول كيفما شاء . لقد كان الأحرى به ، لو كان مزيفا دجالا ، أن يدعى أن جبريل ، بدلا من أن يغطَّه مرات ثلاثا حتى كادت روحه أن تزهق ، قد أخذ بيده أخذا رفيقا حانيا ، وسمر معه سمر الأصدقاء المتفاهمين بدلا من هذا الأمر الخاطف الجازم الذى لم يستطع صلى الله عليه وسلم أن يفهم كُنْهَه ولا المقصود به : « اقرأ » . كذلك كان الأحرى به عندئذ أن يعود إلى بيته مبتسما منشرح الصدر . أليس يزعم أنه قد نزل عليه وحى من عند رب العالمين ؟ إذن فقد اصطفاه هذا الرب خليلاً ورسولاً ، وإذن فالنتيجة المنطقية لهذه الكذبة العريضة أن يشفعها بكذبة أخرى عريضة مثلها تبين كيف أن ربه تجلى له شخصيا ، وكلمه مشافهة ، وربّت على كتفه ... إلى آخر هذا الهراء الذى هو

---

(١٦) يمكن الرجوع إلى أى تفسير للآيات الأولى من سورة « المدثر » .

بالكاذبين الدجالين أقمن ، وبصدوره عن عقولهم ونفوسهم الملتوية أشبه [١٧] .

إننا حين نسوق هذا الدليل لا نفعل ذلك لمجرد أننا مسلمون ، فقد قمت بهذه الدراسة المضنية لتبرئة ضميرى أمام نفسى وربى أولا وقبل كل شيء ، لأنى أحب أن أتثبت من كل ما أعتقد أنه حق على قدر ما تسع طاقتى العقلية والنفسية من بحث ونقصّ وتقليب للأمر على وجوهه المختلفة . ثم إننا قد رأينا ألفريد جِيّوم ، وهو مستشرق بريطانى لا يؤمن بنبوة محمد عليه السلام ، يعتمد هذا المقياس دليلا على صدقه ورغبته فى التثبت من أن ما تجلى له فى غار حراء إنما هو حق لا ريب فيه . وها هو ذا واشنجتن إرفنج أيضا يستخدم هذا المقياس ذاته دليلا على صدقه وأنه لم يشأ أن يستسلم من فوره لما كان يمكن ، من باب الاحتمال العقلى المجرد ، أن يكون ضربا من الوهم [١٨]. ليس ذلك فحسب ، فإن مكسيم رودنسون ، وهو الشيوعى الذى لا يؤمن أصلا بقوى روحية ويرجع بكل شيء إلى البيئة المادية أو أثرها فى النفس الإنسانية ، لا يفوته

---

(١٧) قارنه فى ذلك بمسيلمة الكذاب والقاديانى والباب وبهاء الله ، وضع خوفه ورعبه جنب ثقتهم المطلقة بأنفسهم وادعاءاتهم التى تتجاوز حدود العقل والمنطق.

(١٨) إرفنج / ٣٢. مرة أخرى أود أن أنبه القارئ إلى أن هذا الكاتب لا يؤمن بنبوة محمد ، ولكننا الآن نناقش نظرية « الكذب والتدجيل » ليس غير .

أن يبرز هذه النقطة ، إذ يعترف بأن الرسول عليه الصلاة والسلام قد شك طويلا قبل أن يطمئن إلى أن الذى يأتيه هو وحى من عند الله[١٩] . وهذا الشك وهذه الرغبة فى التثبت هما بدورهما دليل قوى لا يمكن رده على أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يتطلع قبل الوحى إلى أن يكون رسولا ، وذلك خلافا لما يدعيه بلا برهان بعض المستشرقين من أن حادثة نقل الحجر الأسود جعلته يعتقد أنه مدعوّ

---

(١٩) رودنسون / ٧١ ـ ٧٣ . هذا ، ولن أقف عند الرواية التى تتحدث عن رغبة خديجة رضى الله عنها فى التثبت من أن الذى يأتيه عليه السلام إنما هو ملاك لا شيطان ، لأنى فى الحقيقة لا أطمئن إليها كثيرا ، وهو ما من شأنه أن يقيم جسرا من الثقة بين كاتب هذه السطور وبين القارئ الذى يبحث عن الحقيقة أيا كان معتقده ، إذ إن معنى ذلك ، فيما أقدّر ، هو أننى لا أسارع إلى اهتبال أية فرصة سانحة ، بغض النظر عن قيمتها البرهانية ، للتدليل على صدق رسالة الإسلام . أما سبب عدم اطمئنانى لهذه الرواية فهو استبعادى أن تكون خديجة فى أول الدعوة ، وكانت قريبة عهد بالوثنية ، قادرة على التوصل إلى هذا المقياس الذى استطاعت به ، على حسب الرواية ، أن تميز بين الملاك والشيطان . وهو يتلخص فى أنه إذا ظهر للرسول صاحبه وهو جالس على فخدها أو فى حجرها بينما يختفى إذا ألقت خمارها فمعنى ذلك أنه ملاك . ألم يكن الرسول أحرى أن يتوصل هو إلى هذا المقياس ، وهو الذى كان يقضى من كل عام الليالى ذوات العدد فى غار حراء يتأمل الكون ويتفكر فى الملكوت باحثا عن الحقيقة ؟ ونفس الكلام ينطبق على الرواية الأخرى التى تقول إنها أدخلته عليه السلام بينها وبين درعها فذهب عند ذلك جبريل ، فكان ذلك دليلا عندها على أنه ملك وليس بشيطان (ابن هشام / ١/ ٢٢٣) .

لحمل رسالة [٢٠]، إذ فضلا عن أن أحدا منهم لم يورد من حياة الرسول ولا تصرفاته دليلا واحدا ولو متهافتا على ذلك ، فإن استعانة قريش بمحمد ، عن طريق المصادفة المحضة ، فى فض خصومتهم حول نقل الحجر الأسود ، لا يمكن أن تستتبع منطقيا اعتقاده فى كون ذلك نذيرا بأنه مدعو لحمل رسالة ما . إن عقل محمد لم يكن فى يوم من الأيام بهذا التهافت ولا بهذه الفسولة فى الربط بين المقدمات ونتائجها .

ويتصل بهذا مسألة فتور الوحى بعد الدفقة الأولى إلى الدرجة التى وجدها قومه فرصة لإيذاء مشاعره مدّعين أن شيطانه قد هجره[٢١]، فينزل الوحى مطمئنا الرسول إلى أن حب ربه له باق لم يتغير ، مما يدل على أن أثر هذا الادعاء قد وجد إلى قلبه سبيلا . ترى لو كان كاذبا دجالا فما الذى يجعله يتوقف عن ادعاء الوحى ولو باللغو الفارغ من القول أو بتدبيج المدائح الإلهية الملفقة فى شخصه ؟ ولو افترضنا أنه قد فاته هذا فلِمَ يتأثر بمثل هذا الادعاء كما تشى بذلك سورة « الضُّحَى » ما دام يعلم من نفسه أنه كاذب وأن الأمر كله لا يعدو أن يكون تلفيقا فى تلفيق ؟ إن ما

(20) Kellet , A History of Religions, p. 335 .

(٢١) انظر البخارى / ١ / ١٩٧ .

داخله من حزن بسبب تقولات قريش عنه إنما هو حزن الصادقين . إن هذه السورة ليست دفاعاً عن محمد ولا مدحا له ولا شتما لأعدائه ، وإنما هى طمأنة له فى جملة قصيرة : « ما ودّعك ربُك وما قَلَى » (الضحى / ٣) ، وتذكير بنعمة الله عليه وأنه كان يتيما فآواه الله ، ضالا فهداه سبحانه ... إلخ . وكيفما كان معنى الضلالة والهداية هنا فإن هذا الكلام هو آخر شىء يمكن أن يصدر عن كاذب محتال فى مثل هذا الموقف . ثم بعد الطمأنة والتذكير تأتى الأوامر الإلهية التى نحسّ فيها نبرة علوية لا يمكن أن تكون صادرة منه عليه السلام إلى نفسه .

وعندما تنجلى مرحلة القلق الأولى بشكوكها وتوتراتها نجد محمدا عليه الصلاة والسلام طيلة حياته قوى الإيمان بربه وبرسالته ، عميق اليقين والاطمئنان لدرجة مذهلة . إنه برغم ألوان الأذى التى صُبّت عليه وعلى أتباعه على قلتهم وغربتهم فى بلدهم ، وبرغم صنوف المؤامرات وتتالى الحروب التى فُرِض عليه خوضها ضد جميع القوى فى الجزيرة العربية وخارجها بعد هجرته إلى المدينة ، فإنه عليه صلوات الله وسلامه لم يتزحزح قِيدَ شعرة عن شىء من معتقداته . ثم إنه لو كان دجالا مخادعا فما الذى أجبره أن يبقى فى مكة وحيدا مع أبى بكر وعلى حتى هاجر كل من أراد الهجرة ؟ لماذا لم

يَنْجُ بجلده أولاً ، ولْيَنْجُ من يريد أن ينجو بعد ذلك ؟ (٢٢)

وإذا كان إرفنج قد جعل أحد ركائز اقتناعه بإخلاص الرسول وصدقه فى المرحلة المكية تحمُّلَه عليه السلام لألوان الاضطهاد المختلفة (٢٣) ، فإن مستشرقين آخرين يهوّنون من مسألة الاضطهاد هذه ويقولون إنها قد بولغ فيها كثيراً . وفى رأيهم أنه لو كان ثمة اضطهاد بهذه الدرجة لانتقمت للمسلمين المضطَهَدين قبائلهم جريا على عادة العرب فى تعصب كل قبيلة لأبنائها .

وهؤلاء المستشرقون ينسون أن هذا التعصب لم يمنع أبا لهب مثلا وزوجته من إيذاء النبى والتحريض عليه ، ولا عمر من البطش بأخته وزوجها ، الذى كان هو أيضا من أقربائه الأدْنَيْن ، وأين ؟ فى بيتهما . كذلك لم يمنع هذا التعصب قريشا أن تقاطع بنى هاشم وتحاصرهم فى شِعْب أبى طالب أشهراً عدة ثقالاً باهظات . أم هل ينبغى أن نكذب هذا كله ونكذب كذلك الحجارة التى رشقه بها ، وهم يطاردونه ، صبيان الطائف وعبيدهم

---

(٢٢) قارن ذلك بفرار كل من عكرمة بن أبى جهل يوم فتح مكة وصفوان بن أمية وتركه زوجته وأولاده . وهروب عدى بن حاتم الطائى إلى الشام ، عند اقتراب جيوش المسلمين من بلاده ، على إبل كان قد أعدها لذلك اليوم وتركه مُلْكه وأخته ، التى منّ عليها النبى بإطلاق سراحها فذهبت إلى أخيها فى مهربه ولامته لوما شديدا (ابن هشام / ٤ / ٤٥ ، ١٦٦) .

(٢٣) إرفنج / ٣٥ ، ١٩٦ .

وسفهاؤهم ، ولا أحد من سادتهم يتدخل لمنعهم ولو من باب المجاملة الكاذبة ؟ ثم هل ينبغي علينا أيضا يا ترى أن ننبذ ما جاء في القرآن عن ائتمارهم به ليقتلوه عليه السلام ؟ (الأنفال / ٣٠) . لقد نسي هذا الفريق من الكتاب (٢٤) أن القبيلة العربية كانت تخلع عنها من يخرج على تقاليدها وأعرافها . وأي خروج على هذه الأعراف والتقاليد أشنعُ في نظرهم من دين يسفه أحلامهم وأحلام آبائهم مِنْ قبلِهم ، ويسخر من أسلوب حياتهم وأصنامهم ومعتقداتهم التي ضربت بجذورها الحديدية في نفوسهم جيلا بعد جيل ؟ لقد بلغ من إصرار قريش على محاربة الإسلام وأتباعه أن تَعَقَّبَتْهم خارج حدود الجزيرة العربية حين تركوا لها الجمل بما حمل وفروا إلى الحبشة نجاة بحريتهم في الاعتقاد وبحياتهم وأولادهم ، فأرسلت إلى النجاشي تحاول ، عن طريق الهدايا والتملق والإيقاع بينه وبين هؤلاء المهاجرين المستضعفين ، إقناعه بإرجاعهم إلى بلادهم . ولا أظن عاقلاً يتوهم ولو للحظة أن قريشا كانت حريصة على استعادتهم لتفرغ عليهم حنانها وتذرف دموع الندم عند أقدامهم . ولولا أن النجاشي كان ملكا عادلا ومتعاطفا مع هؤلاء المساكين لدرجة أنه قد دخل معهم في دينهم لعادوا كرة أخرى إلى التضييق والتعذيب .

---

(٢٤) انظر جوزيف هبى / ٧٨٣ ، وألفريد جيوم / ٣٤ ـ ٣٥ .

ومما يعطيك فكرة عن مدى خوف هؤلاء المهاجرين من قريش أنهم لم يرجعوا نهائيا إلى إخوانهم المسلمين إلا بعد أن هاجر هؤلاء إلى المدينة بعد سنين وأصبحت لهم دولة وشوكة (٢٥).

---

(٢٥) انظر تفصيل ذلك فى «سيرة ابن هشام» / ٢٨٩ - ٢٩٣. والذى حدا بى إلى تصديق رواية إسلام النجاشى ليس مجرد ورودها فى المصادر الإسلامية المعتمدة ، بل التفصيلات التاريخية والتصوير الواقعى لهذه الفترة الحاسمة من تاريخ الحبشة بما فيها من منازعات استمرت زمنا بين النجاشى وشعبه . فمثل هذه التفصيلات وإيرادها على هذا النحو الذى يقتنع به منطق العقل والتاريخ والطبيعة البشرية ، وبالذات المشهد الذى ضم النجاشى وبطارقته ورسولى قريش (عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة)والمسلمين المهاجرين وعلى رأسهم جعفر بن أبى طالب ودارت فيه المناقشات حول طبيعة المسيح عليه السلام كما يعتقد المسلمون ، وهياج البطارقة عندما أمّن النجاشى على ما تلاه جعفر من سورة « مريم » متعلقاً بهذه القضية ، تبدو جدّ مقنعة ، وإلا فلو كان الرواة كاذبين لزعموا أيضا أن هرقل ، وكانت له قصة مشهورة تحتوى على مثل مشهد النجاشى مع القرشيين من بعض الوجوه ، قد دخل الإسلام ، أو أن أبا طالب ، وهو عم الرسول وحاميه، قد أسلم ولو سرا . كذلك لو أن الأمور فى الحبشة مرت على غير هذا النحو لوصلتنا رواية مناقضة على لسان عمرو بن العاص وابن أبى ربيعة ، فإن الكتاب المسلمين مشهورون بالاستقصاء إلى درجة مرهقة . وانظر "Dezobry & Bachelet , Dictionnaire de Biographie , d' Histoire , de Geographie , des Antiquités et des institutions",t. 2, p. 1683. (مادة "Mahomet") ، حيث يجد القارئ أن أصحمة نجاشى الحبشة رفض أن يعيد المهاجرين إلى مكة واعتنق الإسلام سرا . ولابأس أن أشير هنا إلى ما يقوله إرفنج من أن النجاشى لم يجد فى رأى الإسلام فى المسيح عليه السلام، كما شرحه له جعفر بن أبى طالب، ما يخالف مذهبه النسطورى =

أما فى المدينة فكلنا يعرف أن حياة الرسول والمسلمين كانت كلها كفاحا متصلا ضد قوى الكفر والطغيان والنفاق سواء أكان ذلك فى داخل المدينة أم خارجها ، وفى نطاق الجزيرة أم على تخومها مع الدولة البيزنطية . إن المستشرقين عادة ما يتهمون الرسول بالعدوان على الآخرين ، ولكن وقائع التاريخ تكذّب ذلك (٢٦) .

= (ص / ١٠٠ ـ ١٠١) . ولكن إذا كان هذا صحيحا فلم هاج القساوسة ، فى المجلس الذى عقده النجاشى للاستماع إلى عقيدة المسلمين اللاجئين إلى بلاده ، عندما أمّن على ما تُلِيَ عليه من قرآن ؟ كذلك فإن النساطرة لا يؤمنون للمسيح بطبيعتين فقط بل يعتقدون بأنه شخصان أحدهما إلهى ، وهو ابن الله ، وإن كان لهذين الشخصين مظهر واحد فقط . فأين هذا مما تلاه جعفر على النجاشى من آيات تنص على أنه عليه السلام هو «عيسى بن مريم » وأنه «عبدالله» وأن الله قد جعله « نبيا » ... إلخ ؟ وانظر فى عقيدة النساطرة مادة "Nestorians" فى "Hook's Church Dictionary".

(٢٦) انظر مثلا: Moulana Cheragh Ali, A Critical Exposition of the Popular Jihad. وهى دراسة مستقصية لهذه القضية ، وإن خالفناه فى بعض آرائه المتعلقة بحروب الخلفاء الراشدين مع القوتين العظميين فى ذلك الوقت : فارس والروم . وانظر كذلك : Mirza Abul Fazl , Life of Mohammed . وقد أشرت إلى هاتين الدراستين بالذات لسببين : أولهما أنهما مكتوبتان بلغة أوروبية ، بحيث يستطيع مطالعتهما المستشرقون جميعا : من يعرف العربية منهم ومن لا يعرفها بل يعتمد على كتابات عارفيها ، والآخر أن ثانى هذين الكاتبين، على الأقل، ينتمى لطائفة الأحمدية ، وهى موضع =

ترى لو كان الرسول كاذبا فما الذى يضطره لتحمل كل هذا العناء والاضطهاد والاستهداف لعدوان قوى الشر وتآمرها عليه ؟ إن آية صدقه أنه ظل وفيا لعقيدته رغم هذه المحن المتلاحقة ، سواء فى حالة الضعف والتعرض للإيذاء أو فى حالة القوة والمقدرة على رد العدوان ، فلم يهن ولم يتبدل . ولو كان كاذبا لَنَكَلَ عن هذا الطريق بعد قليل . ومع ذلك فإن المستشرقين يأبَوْن إلا أن يتهموه فى قوة إيمانه برسالته وبالوحدانية المطلقة التى هى محور هذه الرسالة ، متشبثين فى ذلك تشبثا غريبا برواية ضعيفة لا تثبت على محك النقد التاريخى أو المنطقى تزعم أنه عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام قد قدم لقومه بعض التنازلات المتعلقة بعقيدة الوحدانية بُغْيَةَ كسبهم إلى صفه ، وذلك بعد ما يئس من أن يتبعوا دينه على ما هو عليه من عداء للأصنام والوثنية ، فأورد آيتين يمجد فيهما اللات والعُزَّى

= اتهام من بقية المسلمين لممالأتها الإنجليز فى أيام استعمارهم للهند واستظلالها بحمايتهم وترويجها لفكرة نسخ الجهاد . فلو أن المسلمين الأوائل كانوا هم المعتدين لما انبرى مثل هذا الكاتب للدفاع الحار عنهم والبرهنة القاطعة على أنهم هم المظلومون المعتدى عليهم . وهناك مستشرق رومانى اسمه Virgil Gheorghiu قد ألف سيرة للنبى عنوانها فى الترجمة الفرنسية "La Vie de Mahomet" ، وفيها يعرض الصراع بين الإسلام وقوى الكفر من وثنية ويهودية ونصرانية عرضا معتدلا لم يتجاهل فيه تلك الوقائع التاريخية الثابتة أو يلو عنقها كما يفعل كثير من المستشرقين .

ومناة ويعلن أنها مناط الشفاعة يوم القيامة . ويستبعد ألفريد جيوم أن تكون هذه الرواية مصنوعة ، وإلا كان معنى ذلك أن المسلمين قد أرادوا الإساءة إلى الإسلام والرسول ، وهو ما يستبعد العقل صدوره من المسلمين المخلصين كما يقول (٢٧). أما مكسيم رودنسون فإنه يورد القصة بشيء من التفصيل بناء على بعض المرويات الإسلامية ، ثم يعقب عليها بقوله إن القرشيين عندما سمعوا هذه الآية (يقصد هاتين الآيتين) سُرّوا سرورا عظيما وسجدوا جميعا مسلمين ومشركين (٢٨).

وقبل أن نناقش هذه الآراء أحبُّ ألا تفوتنى الإشارة إلى أن بعض المستشرقين ، مثل كايتانى المستشرق الإيطالى ، قد رفضوا

---

(٢٧) جيوم / ٣٥ .

(٢٨) رودنسون / ١٠٦ . ولابد من القول بأن الكاتبين قد أشارا إلى أن الرسول سرعان ما رجع عما قاله ونَبَذَ هاتين الآيتين . انظر كذلك كلتْ / ٣٣٧ ، وجوريف هبى / ٧٨٤ ، ٢٢٩ ، و Allan Menzies , History of Religion, p. 229 ، وشارل لودى / ١٠٠ . أما بلاشير فإنه فى الفصل الذى عقده فى الجزء الثانى من كتابه "Histoire de la Littérature Arabe" يشير، فيما يبدو، إلى هاتين الآيتين ، ولكن على نحو خاطف وامض (انظر كتابى «المستشرقون والقرآن» / ٢٨ ، وتعقيبى السريع عليه / ص ٢٣٦ هـ٣ من نفس الكتاب) . والملاحظ أنه فى ترجمته للقرآن لم يشر ، عندما بلغ هذه الآيات من سورة « النجم » ، إلى هذه الرواية من قريب أو بعيد على رغم كثرة الهوامش التى أضافها إلى تلك الترجمة.

تبول هذه الرواية [٢٩]، وهو ما يأخذ به المسلمون بعامة ، وبخاصة المعاصرون منهم : تقليديوهم وعقلانيوهم على السواء [٣٠]. والآن إلى مناقشة هذه الرواية . وأول شيء أفضل أن أتناوله هو ما ساقه جيوم مما ظنه حجة قاطعة على صحتها ، إذ ما أدراه أن المسلمين المخلصين هم الذين وضعوا هذه القصة ؟ إن ابن إسحاق بن خزيمة قد عزاها دون تردد إلى بعض الزنادقة [٣١]، علاوة على أنها لم ترد فى ابن هشام ولا فى أى من كتب الصحاح على هذا النحو . ومع ذلك فإنى لن أعتمد على شيء من هذا ، إنما سأعتمد على التحليل المنطقى لمضمون الرواية ذاتها وللملابسات التاريخية التى أحاطت بأحداثها ، وهو منهجى العام فى هذه الدراسة بل فى كل ما أكتبه عادة . إننا لو أعدنا قراءة ما كتبه رودنسون فى هذه المسألة فسنجد أن المسلمين والمشركين جميعا لدى سماعهم هاتين الآيتين قد خروا إلى الأرض سجّدا بهجة وسرورا . وإنى فى الحقيقة لا أدرى

---

(٢٩) چوزيف هبىّ / ٧٨٥ .

(٣٠) راجع مثلا د . محمد حسين هيكل / حياة محمد / ١٦٠ ـ ١٦٧ . أما الشوكانى فإنه يورد حديثا مؤداه أن المشركين عند مجرد سماعهم لقوله تعالى : «أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى ؟ » خروا ساجدين . والملاحظ أن هذه الرواية لا يوجد فيها أية إشارة إلى الآيتين المزعومتين : « إنهن الغرانيق العلَى* وإن شفاعتهن لترتجى » (انظر الشوكانى / مجلد ٢ / جزء ٣ / ص ٩٧) .

(٣١) د . هيكل / ١٦٢ .

كيف ولا لِمَ يسجد هؤلاء أو أولئك عند هاتين الآيتين : فأما المشركون فإنى لم أقرأ قط أنهم كانوا يسجدون لأصنامهم . وإليك القرآن ، وإليك ابن هشام ، وقد تناول عبادة الأوثان فى جزيرة العرب بالتفصيل ، وإليك كذلك ابن الكلبى ، الذى خصّ هذا الموضوع بكتاب مستقل هو كتاب « الأصنام » ، وقلّب هذه المصادر كلها على مهل كما يحلو لك ، فلن تجد أن مشركا قد سجد لصنم . لقد كانوا يطوفون بالحجارة والأصنام والكعبة ، وكانوا يبنون البيوت لهذه الأصنام ويعينون لها السدنة ، ويُهْدُون إليها ، ويتقربون إليها بالذبائح ، ويَقْسِمون لها من أنعامهم وحرثهم ، ويحجون إليها ويحلقون رؤوسهم عندها ، ويتمسحون بها ، ويجعلون ما حولها حِمًى ، ويستقسمون لديها بالقداح ، ويُقْسِمون بها ويتسمّون بعبد اللات وعبد مناة ... إلخ ، ولكن لم يرد فى أى منها أنهم كانوا يسجدون لصنم أو وثن ولا حتى فى الكعبة . فإذا كانوا لا يسجدون عندها فكيف سجدوا إذن عند مجرد سماعهم أسماء اللات والعزى ومناة فى آية قرآنية ؟ والمسلمون : ما الذى يجعلهم يسجدون عند ذكر هاتين الآيتين ؟ إن هاتين الآيتين ليستا موضع سجدة ، ومواضع السجدة فى القرآن معروفة ولها قاعدتها التى لا تنطبق على هاتين الآيتين ولا على الآيات التى نزلت بعد ذلك ، بناءً على هذه الرواية ، لتنسخها . والعجيب أن رودنسون ، الذى تحمس تحمسا

شديدا لنقل هذه الرواية وما جاء فيها من أن القرشيين جميعا ، مسلمين ومشركين ، قد سجدوا لدى سماعهم هاتين الآيتين ، يعود بعد أقل من صفحة فيعزو رجوع محمد عليه السلام عن هذا التخاذل إلى تمرد المسلمين وحنقهم ، وهو ما لم يحدث . فهل ثمة اضطراب في الرواية أشنع من ذلك ؟ [٣٢]هذا على الرواية كما عرضها رودنسون ، أما الدكتور هيكل فيقول إن الرسول بعد أن تلا الآيتين موضوع بحثنا مضى وقرأ السورة كلها وسجد فى آخرها . هنالك سجد القوم جميعا لم يتخلف منهم أحد ، وأعلنت قريش رضاها عما تلا النبى وقالوا : قد عرفنا أن الله يحيى ويميت ويخلق ويرزق ، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده . أما إذ جعلت لها نصيبا فنحن معك . وبذلك زال وجه الخلاف بينه وبينهم [٣٣]. فالسجود إذن ، على هذه الرواية ، لم يقع إلا فى آخر السورة (أى عند قوله تعالى : « فاسْجُدوا للّه واعبُدوا » لا عند سماع الحاضرين الآيتين المشار إليهما . وهو على هذا النحو مفهوم من المسلمين ، أما من المشركين فكَلاَّ ، إذ إنهم لم يتعودوا السجود لأصنامهم ولا لله ، وليس يُعْقَل أن ينقبلوا هذا الانقلاب الفجائى لمجرد أن محمدا ذكر بعض أصنامهم بخير . على أن هذا ، برغم كل شىء ، لا يهمنى

---

(٣٢) رودنسون / ١٠٧ .

(٣٣) د . هيكل / ١٦٠ ـ ١٦١ .

كثيرا ، بل المهم هو أن السورة كلها من أول آية فيها إلى الآية الأخيرة ترفض هاتين الآيتين بعنف كما يرفض الجسم عضوا غريبا عنه لا يمكنه التفاعل معه . إن الدكتور هيكل يرد هاتين الآيتين لأن الآيات التى تتلوهما تجرى هكذا : « أَلَكُمُ الذَّكَرُ وله الأُنْثَى ؟ * تلك إذن قِسْمَةٌ ضِيزَى * إن هى إلا أسماءٌ سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطانٍ . إن يتبعون إلا الظنَّ وما تَهْوَى الأنفُس . ولقد جاءهم من ربِّهم الهدى » . وهى ، كما ترى ، تعيب هذه الأصنام ، فكيف يتعاقبُ مدح وذم على مثل هذا النحو ؟ (٣٤) والحقيقة أنه لا يُسْتَبْعَد أن يردَّ موردو هذه الرواية ومشايعوهم بأن هذه الآيات الثلاث إنما جاءت فى موضع الآيتين المشار إليهما فنسختهما ، ولم تكن موجودة منذ البداية (٣٥) .

---

(٣٤) د . هيكل ص / ١٦٥ .

(٣٥) انظر مثلا ألفريد جيوم / ٣٦ ، حيث يقول : « وعندما حذف محمد هذه الكلمات (يقصد الآيتين المزعومتين) وأكد أن هذه الآلهة لا حقيقة لها (يقصد قوله تعالى : « إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ... إلخ ») كان غضب أهل مكة أعظم من ذى قبل . وهو ما يوحى بأنه يرى أن الآيتين المشار إليهما قد نسختا وحلت محلهما الآيات التى تعيب هذه الآلهة الزائفة . ومع ذلك فإن جيوم يرى أن عدول الرسول عن هاتين الآيتين وعودته إلى تأكيد مبدإ الوجدانية دليل قوى على صدقه وإخلاصه . ويرى نفس هذا الرأى E. R. Appleton صاحب كتاب "An Outline of Religion for Children" (ص / ٥٢٢) . والكتاب ، وإن كان مكتوبا=

ومن ثم فإنى لا أعوّل كثيراً على التناقص بين الآيات المتعاقبة التى تتحدث عن اللات والعزى ومناة مدحا وقدحا قدر تعويلى على تحليل مضمون السورة كلها والجو النفسى الذى يخيم عليها من مفتتحها إلى مختتمها ، وهو جو عداءٍ مستحكم بين الرسول وقومه : فالآيات (١ ـ ١٨) ترد على تكذيب قريش للنبى عليه الصلاة والسلام ورميهم إياه بالضلالة والغواية واتباع الهوى . وإن القارئ المتذوق ليلمح عنف الرد فى قسمه سبحانه بـ « النجم إذا هوى » ، الذى يشير فى رأيى إلى تهديد القرآن لمشركى مكة بأنهم سيلاقون مصير النجوم حين تنخلع من مداراتها التى كانت مستقرة فيها على مدى الأحقاب المتطاولة وتهوى متبددة فى الفضاء اللانهائى . كذلك يتبدى عنف الرد فى التفصيل الذى تحدثت به الآيات عن تجلى الوحى للرسول ، وفى تعدد الصفات التى وُصِف بها جبريل عليه السلام ، وفى إعادة التأكيد على أن ما رآه محمد عليه السلام حين نزول الوحى عليه إنما هو حق لا مرية فيه . ولا يَفُوتَنَّ القارئَ إشارةُ الآيات الأخيرة من هذه المجموعة (١٣ـ ١٨) إلى حادثة

= للأطفال ، فإنه يتناول موضوعا أكبر من مداركهم ، بل إن مراجعه فى الفصل الذى خصصه لدراسة الإسلام هى من طراز "Heroes and Hero-worship" لكارلايل و "A Short History of the World". ولذلك يرانى القارئ قد جعلت هذا الكتاب من مراجعى .

المعراج ، وهى الحادثة التى كذّب بها أهل مكة تكذيبا شديدا . وإذا قفزنا فوق الآيات التى تتحدث عن الأصنام الثلاثة فإننا سنجد أن الله عز وجل ينفى أن يكون لملَك من الملائكة أية شفاعة إلا بعد إذن الله ورضاه ، ثم تعود الآيات فتتهكم بمن يؤنثون الملائكة بلا علم أو تثبت ، وتأمر الرسول بالإعراض عنهم لتوليهم عن ذكر الله ولهاثهم وراء الحياة الدنيا [٣٦]. أما الآيات (٣٣ ـ ٥٨) فإنها تتحدث عن أحد القرشيين المفتونين بثرواتهم والباخلين مع ذلك بها ، وتقرّعه تقريعا شديدا مسفهة اعتقاده المنحرف فى الجزاء والمسؤولية الأخلاقية ، ومهددة إياه بمثل مصائر عاد وثمود وقوم نوح، ومعلنة بصوت مجلجل أن هذا ليس إلا نذيرا من النُّذُر الأولى وأن ساعة الغضب الإلهى والعقاب المزلزل قد دنت . ثم تنتهى السورة بالتعجب من تكذيب قريش للرسول وللقرآن وتصلُّب قلوبهم حتى إنهم ليضحكون ولا يبكون ، وتأمرهم أمر تقريع وتهديد بأن «اسجدوا للّه واعبدوا» . أيمكن أن يَرِدَ فى مثل هذا السياق الفكرى

(٣٦) هذا ، ولن أتعرض للآية الثانية والثلاثين لأنها ، عند علماء القرآن ، آية مدنية . وهى تتناول نقطة تفريعية متعلقة بالآية السابقة ، وليس فيها على كل حال ما يصادم من قريب أو من بعيد أى شيء مما قلناه أو سنقوله عن تركيب هذه السورة وجوها النفسى . انظر فى مدنية هذه الآية مثلا « القرآن المجيد » لمحمود الشرقاوى/ ٥٠ .

والنفسى آيات تمجد بعض آلهة قريش ؟ إن ذلك هو المستحيل بعينه. ثم لو قبلنا جدلا أن هذا ممكن ، فكيف فات قريشا أن السورة جمعاء هى حملة عنيفة عليهم وعلى موقفهم من الدعوة الجديدة وتسفيه لعقولهم وتهديد جلىّ لهم وانخدعوا ببعض كلمات معسولة عن آلهتهم وسجدوا مع المسلمين؟

فهذه واحدة . والثانية أن الآيتين المزعومتين تجعلان الآلهة الثلاث مناطا للشفاعة يوم القيامة ، وهو ما لم يسنده القرآن على هذا النحو لأى كائن مهما تكن منزلته عند الله . ولماذا نذهب بعيدا ، وثمة آية فى سورة « النجم » ذاتها لا يَفْصِلها عن الآيتين المزعومتين إلا خمس آيات جد قصيرة نصها كالآتى : « وكم من مَلَكٍ فى السمواتِ لا تُغْنِى شفاعتُهم شيئا إلا من بَعْدِ أن يأذنَ اللهُ لمن يشاء ويَرْضَى » ؟ (النجم / ٢٦) . فكيف يقال هذا عن الملائكة فى ذات الوقت الذى تؤكد فيه إحدى الآيتين المزعومتين أن شفاعة الأصنام الثلاثة السالف ذكرها جديرة بالرجاء من غير تعليق لها على إذن الله ؟

أما النقطة الثالثة فهى أن الرسول عليه أفضل الصلوات والتسليم لم يكن من شيمته التردد حتى يقال إنه قد تذبذبت قدماه فى منتصف الطريق وتراجع عن بعض مبادئه . إن صلابة استمساكه بدينه لهى مضرب المثل فى صفاء اليقين والشجاعة المثلى . بل إنه

لم يؤثر عنه مثل هذا التذبذب ولا فى الحرب حيث يعيد الإنسان دائما حساباته. ولقد رأيناه (وقد لبس لأُمَته ووافق على الخروج لملاقاة مشركى قريش خارج المدينة عندما عزموا على مهاجمتها فى غزوة أحد ، وكان يرى البقاء فيها والتحصن بداخلها) يرفض الرجوع حين أبدى الندمَ من خالفوه فى التحصن داخل المدينة ، قائلا قولته الشهيرة : «ما ينبغى لنبى إذا لبس لأُمَته أن يضعها حتى يقاتل » (٣٧). فما عدا إذن مما بدا ؟ ومن قَبْلُ ترجّاه عمه أبو طالب أكثر من مرة أن يخفف من موقفه تجاه الأصنام وعبادها فرض رفضا قاطعا وصاح قائلا : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » (٣٨). أفبعد أن عضّده عمه كل هذه المدة ، وبعد أن وقف معه بنو هاشم وبنو المطلب مسلمُهم وكافرُهم (إلا أبا لهب) وتحملوا من أجله قسوة الحصار والمقاطعة فى الشِّعْب شهورا عددا ، يتراجع هو هذا التراجع المشين ؟ ومتى ؟ بعد أن عزَّ الإسلام بدخول اثنين من صناديد مكة فيه: عمر بن الخطاب(٣٩) وحمزة بن عبد المطلب ،

---

(٣٧) ابن هشام / ٣ / ١٦ ـ ١٧ .

(٣٨) المرجع السابق / ١/ ٢٤٠ .

(٣٩) يخطئ شارل لودى (Ch. Ledit) هنا خطأ تاريخيا فاحشا ، إذ يؤخر إسلام عمر إلى مابعد حادثة الغرانيق المزعومة ، ويجعل لدخوله فى الدين الجديد تأثيرا حاسما على شخصية الرسول ، إذ بتّ عندئذ علاقته تماما بالأصنام وأصبحت=

وأخذ يفشو بين القبائل . ثم ما الذى دفعه إلى هذا التنازل وقد أتاه عتبة بن ربيعة موفدا من زعماء قريش يعرض عليه ، على طبق من ذهب ، المال والرئاسة فرفض أن يجيبه ، مكتفيا بقراءة صدر سورة « السجدة » بآياته التى زلزلت قلب عتبة حتى لقد رجع إلى أصحابه بوجه غير الذى انصرف به عنهم ؟ (٤٠) إن الرسول لم يتساهل يوما فى مسألة التوحيد ، حتى ولا عندما كانت العرب تتهاوى أمام دعوة الإسلام قبيلة إثر قبيلة ، واتضح تماما أن دين الله غالب لا شك فى ذلك . لقد أعفى قوما مثلا من الزكاة ، وأعفى بعض الناس من الالتزام بخمس صلوات كاملات ، ولكنه لم يوافق ثقيفاً على أن يُبقى لها وثنها ولو شهرا واحدا يستطيع بعده أن يفعل به ما

= دعوته خالصة للوحدانية حسبما قال (ص / ٩٦ ـ ٩٧) . بل إنه أيضا يجعل سورة « الكافرون » تصحيحا لما جاء فى سورة « النجم » قبل التعديل المزعوم الذى جرى فيها . والصواب هو أن سورة « الكافرون » قد نزلت قبل سورة «النجم » ، لم تشذ عن ذلك رواية من الروايات التى وردت فى الكتاب الأول من « مقدمتان فى علوم القرآن » (نشر آرثر جفرى / ٨ ، ١١) خاصةً بترتيب سور القرآن على حسب النزول . فتأمل ! وانظر كذلك « الإتقان » للسيوطى (١٣/١ ، ١٤) للتأكد من هذه الغلطة البلقاء المريبة ! وأيضا « القرآن المجيد » لمحمود الشرقاوى (ص / ٥٠ ، ٥٦ ، ٥٥ بهذا الترتيب) ، ولسوف ترى بعد هذا الاستقصاء أن « النجم » قد نزلت بعد « الكافرون » لا العكس .

(٤٠) انظر ابن هشام / ١ / ٢٦١ ـ ٢٦٢ .

يشاء[٤١]. إنه لم يشأ التدرج فى هذه المسألة مع ما عُرِف عنه من أنه كان كثيرا ما يأخذ الناس به . فإذا كان لم يوفق على شىء من ذلك ، وهو أقل ألف مرة من تمجيده بنفسه وفى قرآنه اللات والعزى ومناة واعترافه بأن شفاعتهن مرتجاة ، وكان ذلك فى أواخر حياته وتمكُّن سلطانه واطمئنانه إلى أنه لا ردة بعد ذلك إلى الوثنية، فكيف مالأ الكفارَ على وثنيتهم وهو لا يزال فى أول الطريق وكله حماسة ونار مشتعلة ؟ ثم أيكون أتباعه الذين فروا بدينهم من تعذيب قريش إلى الحبشة أشجع منه وهم الذين كانوا يستمدون منه الثقة والإيمان والصبر على البلاء ؟ لقد صمدوا فى وجه المؤامرة التى دبرها لهم رسولا قريش عند النجاشى وبطارقته ، إذ جىء بهم ليعرضوا على الملإ فى البلاط الملكى دينهم وعقيدتهم فى عيسى عليه السلام فلم يكتموا منها حرفا وهم الأعراب المشردون المحتاجون إلى تملق مشاعر مضيِّفيهم ولو عن طريق التعبير الروّاغ عن رأى الإسلام فى المسيح صلوات الله وسلامه عليه .

لقد ذكر ابن السائب الكلبى فى الصفحة التاسعة عشرة من كتاب «الأصنام» أن قريشا كانت تطوف بالكعبة وتقول : «واللاتِ والعُزّى ، ومناةَ الثالثة الأخرى ، فإنهن الغرانيقُ العلى ، وإن

---

(٤١) المرجع السابق / ٤ / ١٣٧ .

شفاعتهن لتُرتَجى » ، وأنها كانت تعتقد أنهن بنات الله (عز وجل عن ذلك) وأنهن يشفعن إليه ، فلما بعث الله رسوله أنزل عليه : « أفرأيتم اللاتَ والعزّى * ومناة الثالثة الأُخرى ؟ * ألكم الذّكَرُ وله الأنثى ؟ * تلك إذن قسمة ضيزَى * إنْ هى إلا أسماءٌ سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها مِنْ سلطان ». والحقيقة أن هذا هو الأشبه بأن يكون هو الصواب . ويبدو أن أحد الزنادقة قد أخذ هذه الرواية وحرفها ، واضعا كلام قريش فى أصنامها على لسان الرسول عليه الصلاة والسلام . ولنفترض أننا بعد هذا كله قد ضربنا عُرْضَ الحائط بكل هذا التحليل التاريخى والنصّى ، وقلنا إن هذه الآيات قد جرت فعلا على لسان الرسول ، فهل يعنى ذلك تذبذبا فى إيمانه ؟ أم هل الأحرى أن نفسرها بأنها زلة لسان مما نقع فيه جميعا كل يوم ، وعذره أن هذه الكلمات المزعومة ، من كثرة ما كان القرشيون يرددونها أمامه ، قد علقت بذهنه فجرى بها لسانه فى لحظة من لحظات السهو ولكنه سرْعان ما تنبه لها فتراجع عنها قبل أن تلصق بذينه ؟ أقول هذا برغم تفنيدى لها ، وذلك قطعا للطريق على ذوى اللجاجة المكابرين . ولكى أخفف المسألة على ضمير المسلم أذكّره بزلة اللسان التى وقع فيها أحد المؤمنين الأتقياء ، وكانت قد ضلت ناقته كما جاء فى الحديث الشريف ، فلما وجدها انطلق لسانه ليشكر ربه ، الذى ردها عليه، فإذا به من

شدة الفرحة يضطرب قائلا : « شكرا ياعبدى ! أنا ربك » ، والمقصود العكس طبعا . وهى ، لو حاسبناه على طريقة المستشرقين ، أفدح من زلة اللسان المفترضة فى رواية الغرانيق .

فإذا انتقلنا إلى المرحلة المدنية ، وهى التى يتهمه من يسلّم من المستشرقين بصدقه وأمانته فى النصف الأول من تاريخ الدعوة بأنه اطّرح عن ضميره فيها مؤنة الصدق والأمانة ، وجدنا أن أهم ما اتُّهِم صلى الله عليه وسلم به هو قسوته على اليهود ، وعدم احترامه للمعاهدات التى عقدها مع المشركين ، وتساهله (مرة أخرى ، لاحظ) فى قضية الوحدانية ، إذ أبقى فى فريضة الحج على بعض الشعائر الوثنية ، ثم الانغماس فى شهوات الجنس .

فأما بالنسبة لموقفه من اليهود فقد أدخلهم عليه السلام فى المعاهدة التى عقدها مع كل الأطراف الموجودة فى المدينة آنذاك وسوّى فها بين الجميع ، وألزمهم أن يكونوا يدا واحدة على من يريدهم بِشرّ . ولم تكن هذه التسوية ، بالنسبة لليهود ، مع غيرهم من سكان المدينة فقط ، بل مست أيضا علاقتهم بعضهم ببعض ، إذ كانوا فى الجاهلية ، قبل أن يقدم عليهم النبى عليه السلام ، متعادين منقسمين يرى فريق منهم أن له فضلا وعُلُوّا على إخوان الدين والوطن حتى فى الديات ، فأبطلت المعاهدة هذا كلّه . فإذا أضفنا إلى ذلك أن النبى لم يجبرهم على الدخول فى الإسلام تبين

لنا كيف أن ما ابْتُلِيَ به الرسول والمسلمون من قِبَل هؤلاء القوم من غدرٍ كان سخفا شديدا فوق كونه خيانة لا تغتفر . ولقد كان الرسول رحيما مع بنى النَّضير وبنى قَيْنُقاع فاكتفى بالعقوبات المالية إلى جانب الطرد ، إلى أن جاء دور بنى قُرَيْظَة ، وكانت جريمتهم هى الخيانة العظمى ، إذ انقلبوا أثناء حرب الخندق على المسلمين برغم أُخُوَّة الوطن وبرغم المعاهدة الوثيقة التى كانت تربطهم بهم ، يريدون أن يستأصلوا شأفتهم ويمحقوهم مع دينهم محقا ، مع أن هذه المعاهدة كانت توجب عليهم أن يحاربوا مع المسلمين (٤٢) . فما الذى كان ينبغى على الرسول أن يفعله ؟ هل كان عليه أن يربّت على ظهورهم ويعتذر لهم عمّا ارتكبوه من خيانة بشعة فى حقه وحق دينه وحق المسلمين ؟ إن أحد المستشرقين مثلا يتعجب كيف أن دينا يدّعى أن إلهه هو الرحمن الرحيم يفعل ببنى قريظة ما فعله الرسول (٤٣) ، متجاهلا أنهم قد خانوا العهد ، وكان تخطيطهم أن يزيلوا الإسلام والمسلمين من على وجه الأرض . فمَنِ الجديرُ إذن بأن يشعر تجاهه هذا المستشرق بالرثاء ؟ إنهم المسلمون بكل تأكيد ،

---

(٤٢) انظر نص المعاهدة فى ابن هشام (٢ / ١٠٦ ـ ١٠٨) . وانظر كذلك Virgil Gheorghiu فى كتابه " La Vie de Mahomet " (ص / ٢٦٣ ـ ٢٦٤) .

(٤٣) ألفريد جيوم / ٤٨ .

الذين لو ، لا قدر الله ، استطاع اليهود تنفيذ خطتهم التى اشتركوا فيها مع قوى الشرك والوثنية من جميع أرجاء الجزيرة العربية وقضوا على المسلمين ما رأينا من هذا الكاتب دمعة تُذْرَف ، بل ابتسامة تشفٍّ وابتهاج . إن المستشرقين يدّعون دائما كذبا أن التوحيد عند اليهود أظهر منه فى الإسلام وأصفى (٤٤) . أتعرف ماذا كان اليهود فاعليه بموجب حكم التوراة (التى أوحاها إلى نبيهم إلههم الذى يوحّدونه على هذا الزعم خيرا مما يوحد المسلمون رب العالمين) لو أنهم هم الذين انتصروا وفتحوا بلاد المسلمين ؟ تقول التوراة : «حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح ، فإن ... لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يديك فاضرب جميع ذكورها بحدّ السيف . وأما النساء والأطفال والبهائم وكلّ ما فى المدينة كلّ غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك . وهكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التى ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا. (وهو ما لا ينطبق على المسلمين ، لأنهم لم يكونوا بالنسبة لليهود، الذين يجاورونهم فى نفس المدينة ، من الأمم البعيدة، بل ينطبق عليهم الاتى :) وأما هولاء الشعوب التى يعطيك الرب

---

(٤٤) انظر مثلا چوزيف هبى / ٧٨٧ .

إلهك نصيبا فلا تستبق منها نسمة ما » (٤٥). أفلا يرى القارئ أن إله المسلمين كان رحيما باليهود حتى بمقياسهم ؟ فما الذى أنسى المستشرق البريطانى هذا وجعّله أكثر ملَكيّة من الملك؟ إن واحدا من اليهود على الأقل هو عمرو بن سعدى رفض أن يشاركهم فى غدرهم الدنىء وقال : لا أغدر بمحمد أبدا (٤٦) . وهو موقف رجولى كريم ، إذ إنه لم يشأ أن يغدر بالرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم ، الذين لم تُؤْثَر عنهم غدرة ولو تافهة فى حق اليهود . ولكى يرى القارئ مبلغ دناءة القوم وغبائهم وجبنهم ساعة الجِدّ ، وإن انتفشوا انتفاش الدِّيَكة حين يتوهمون أنهم فى مأمن ، أذكر له أن أحدهم ، وهو كعب بن أسد ، حين فرغ لهم الرسول عليه السلام بعد انفضاض الأحزاب من حول المدينة وحاصرهم ، عرض عليهم أن يُسْلِموا أو على الأقل أن يكونوا رجالاً ويخرجوا على المسلمين مباغتة من داخل الحصن فيحاربوهم مواجهة ، لكنهم رفضوا ذلك كله ، فما كان منه إلا أن قال حانقا : « ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلةً واحدة من الدهر حازماً » (٤٧) . وهنا العجب كل العجب ، بل هنا

---

(٤٥) سفر « التثنية »/ ٢٠ / ١٠ ـ ١٦ .

(٤٦) ابن هشام / ٣ / ١٤٤ .

(٤٧) ابن هشام / ٣ / ١٤٢ ـ ١٤٣ .

عبرة العبر يستخلصها الباحث الموضوعى من الصراع بين الإسلام واليهود . ترى لو كان اليهود مخلصين فى التمسك بدينهم والكفر بمحمد فلِمَ لَمْ يستعينوا بربهم كما كان محمد يستعين بربه ويواجهوا محمدا مرة واحدة فى حرب صريحة شريفة ؟ لقد كان مشركو العرب ، برغم وثنيتهم ، أشرف منهم وأرجل ألف مرة . أم ترى كان اليهود ينفذون أمر ربهم حين وضعوا أيديهم فى أيدى الشرك والوثنية ليحاربوا محمدا ، الذى حتى لو سلمنا بأنه رسول زائف فهو على كل حال يدعو إلى التوحيد ويؤمن بموسى وبقية أنبياء بنى إسرائيل ؟ أتراهم كانوا مصغين للصوت الخارج من أعماق ضمائرهم حين أكدوا لقريش أن وثنيتهم خير من دين محمد وأنهم أولى بالحق منه ؟ (٤٨) إن إدمون پاور يدعى على الرسول

---

(٤٨) المرجع السابق / ٣ / ١٢٧ . ولا بد من مقارنة هذا بموقف المسلمين من الحرب بين الروم والفرس فى أوائل الدعوة ، وكيف تعاطفوا مع الروم لأنهم أهل كتاب مثلهم ، مع إيمانهم بأنهم قد حرفوا دينهم ، ومع أن الروم لم يكونوا يؤمنون بمحمد ولا كان المسلمون ينتظرون منهم ذلك . صحيح أن يهودا من غير بنى قريظة هم الذين قالوا هذا لقريش وهم يؤلبونها وغيرها من قبائل العرب على الاشتراك معهم فى حرب تقصم ظهر الإسلام وأتباعه إلى الأبد ، إلا أن ملة اليهود كلهم واحدة . والدليل على ذلك هو هذه الخيانة السافلة التى اجترحها بنو قريظة والتى ليس لها عقاب إلا الإعدام ، وبخاصة أن حبال صبر الرسول على اليهود كانت قد مُزِّقَت تماما. وكان ينبغى عليهم أن يتعلموا الدرس مما فعله بنو قينقاع=

الكريم أنه أكل اليهود لينقذَ بأموالهم أتباعه من الفقر ، وينكرُ أن يكون هناك دليل على خيانة بنى قريظة (٤٩) . وهذا غير صحيح بالمرة ، وإلا لاكتفى الرسول ﷺ بإجلائهم ومصادرة أموالهم أو لأبقاهم فى المدينة بعد أن يستصفى ممتلكاتهم لحساب أتباعه . أما بالنسبة للخيانة فإنهم أنفسهم لم يفكروا لحظة واحدة فى إنكارها . ومن المضحك إذن أن يأتى مثل هذا المستشرق بعد تلك القرون المتطاولة ويتظاهر بأنه مَلَكيّ أكثر من الملك . وأما ألفريد جيوم فإنه يعزو ما فعله الرسول بهم إلى أنهم رفضوا الإيمان به وأخذوا يسخرون منه ويكثرون من مجادلته ، وإلى أنهم كانوا متفوقين اقتصاديا . ثم أرجع عدم إيمانهم به إلى اعترافه بنبوة عيسى . والحقيقة أن الرسول لم يحاول قط أن يكرههم على ترك دينهم ، كما أن نص المعاهدة التى سلفت الإشارة إليها يؤكد حرية العقيدة الدينية (٥٠). أما اليهود

= وبنو النضير من قبل . لكنهم ، بغبائهم وقصر نظرهم وسخف عقولهم وقلة أدبهم، وهِموا أن مصيرهم لن يكون أسوأ من مصير إخوانهم السابقين ، غافلين عن أن المؤمن لا ينبغى أن يلدغ من ذات الحجر ثلاث مرات . وربما كان هذا هو السبب فى أنهم لم ينصتوا إلى ما قاله لهم كعب بن أسد فنالوا جزاءهم .

(٤٩) انظر چوزيف هبى/ ٨٠٣ .

(٥٠) ابن هشام / ١/ ١٦٦، و ٢ / ١٧٠ . وانظر كذلك كتابه عليه السلام إلى ملوك حمير بعد أن دانت له الجزيرة كلها ، فهو يؤكد ذات المبدإ (نفس المرجع/ ٤ / ١٧٥) .

أنفسهم فإنهم كانوا ، قبل مبعث الرسول عليه السلام ، يهددون به الأوس والخزرج ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وبدينه وتراجعوا عما كانوا يقولون . ولا يمكن أن يكون هذا مجرد ادعاء من المسلمين ، فإنه مسجل فى القرآن الذى كان يتلى على اليهود ولم يحدث أن اعترضوا عليه (٥١) . وهذا يبين لنا حقيقة موقفهم ودوافعهم ، وبخاصة إذا علمنا أن بعضهم كان إذا لقى المسلمين أظهر الإسلام فإذا خلا إلى أمثاله من اليهود قرّعوه وطلبوا منه أن يخفى ما يعلمه من الحق (٥٢) ، كما أن بعضا منهم كان ينتهج خطة جهنمية لتدمير ثقة المسلمين بدينهم ، إذ كان يعلن إسلامه أول النهار ولا يكاد النهار يولّى حتى يعلن كفره (٥٣) . أفهذا هو المقابل للحرية الدينية التى منحهم إياها الإسلام ؟ أم هل هذه تصرفات ناس يعتقدون فعلا أنهم على الحق ؟ لقد كان بـــاب الحجَاج أمامهم مفتوحاً ، الحجَاج العاقل لا الحجاج السفيه من مثل « إن الله فقير ونحن أغنياء » و « يد الله مغلولة » و « لن تمسنا النار إلا أياما معدودة » و « نحن أبناء الله وأحباؤه » ... إلى آخر هذا الهراء الذى لا يخطر إلا فى عقول الهازلين المخرفين . لكن لا عجب ، فقد نزلوا فى ذلك على طبيعة الغدر والنذالة المتأصلة فيهم . ومع هذا فقد آمن منهم بالإسلام صادقاً طائفة كان من بينهم

---

(٥١) البقرة / ٨٩ ، وانظر ابن هشام / ٢ / ١٤٠ .

(٥٢) البقرة / ٧٦ ، وابن هشام / ٢ / ١٣٣ .

(٥٣) آل عمران / ٧٢ .

بعض أحبارهم كأُبَيّ بن كعب(٥٤) ومُخَيْرِيق وعبد الله بن سلام.
أما بالنسبة إلى مسألة التفوق الاقتصادى فإن أموال الغنائم لم تكن لتترك المسلمين بحاجة إلى ما فى أيدى اليهود . ومعروف أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان زاهدا فى المال ، وليس من المعقول أن يخطط لقتل بنى قريظة ليوزع بعد ذلك أموالهم على المسلمين ، الذين لم يكونوا حينئذ فقراء كما أوضحنا . ثم لو كانت الرغبة فى الاستيلاء على أموال اليهود هى دافعه عليه السلام إلى قتلهم فلِمَ لَمْ يقتل من قبلُ بنى قينقاع أو بنى النضير ؟ وإذا قيل إن مشاعر الغيظ والكراهية عنده تجاه اليهود كانت تتصاعد وتشتد مع مرور الزمن ، لقد كان الأحرى إذن أن ينكّل بيهود خيبر ، الذين حاربهم بعد بنى قريظة ، تنكيلا لا يغادر منهم كبيرا ولا صغيرا ولا رجلا ولا امرأة . بيد أن عقوبته لهؤلاء اليهود كانت أخف كثيراً من عقوبات نظرائهم السابقين بل أخف مما طلبوه هم أنفسهم (٥٥) . وانظر عدله

---

(٥٤) الزركلى / الأعلام / مادة « أبى بن كعب » ، ونفس المادة فى « القاموس الإسلامى » لأحمد عطية الله . وانظر قصة إسلامه فى ابن هشام (٢ / ١١٨) لترى كيف أن اليهود قوم بهت . وفى إسلام من أسلم من يهود انظر ابن هشام أيضا / ٢ / ١١٦ ، ١٤٧ ، و٣ / ١١٠ ، ١٤٩ ، ٢١٩ ، و ٤ / ١٢٣ ، وإن كان هناك أيضا من أسلم منهم نفاقا ، مما له دلالته على كذبهم فى رفض الإسلام ، فإن هذا ليس سلوك الصادقين .

(٥٥) انظر ابن هشام / ٣ / ٣١٧ ـ ٣١٨ .

واحترامه عليه السلام لإرادة اليهودى الذى كان له دين عند جابر ابن عبد الله ورفض شفاعة النبى له فأعطاه عليه السلام حتى أرضاه ، وكيف أنه مات ودرعه مرهونة عند يهودى كان قد استدان منه طعاماً . ثم إن الرسول لو كان طامعاً فى ثروات اليهود لما أفلت أية فرصة يمكنه فيها أن يستولى على أموالهم ، ومع ذلك فقد رأينا من قبلُ رفضه عليه السلام للغنم التى كان يرعاها خادم لليهود وأحضرها للرسول عند إسلامه أثناء حصار خيبر ، فأمره ﷺ بأن يعيدها إليهم . وإليك قصة أخرى تبين إنصافه وتحرُّجه عليه الصلاة والسلام من أخذ أى شىء منهم بغير حق : «أصيب عبد الله بن سهل بخيبر ، وكان خرج إليها فى أصحاب له يمتار منها تمراً ، فوُجِد فى عين قد كُسِرت عنقه ثم طرح فيها ، فأخذوه فغيبوه ثم قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا له شأنه ، فتقدم إليه أخوه عبد الرحمن بن سهل ، ومعه ابنا عمه حُوَيِّصة ومُحَيِّصة ابنا مسعود ، وكان عبد الرحمن من أحدثهم سنا ، وكان صاحب الدم ، وكان ذا قدم فى القوم . فلما تكلم قبل ابنى عمه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كبِّرْ ، كبِّرْ (أى دع من هو أكبر منك يتكلم) . فتكلم هو بعد ، فذكروا لرسول الله ﷺ قتْل صاحبهم فقال رسول ﷺ : أتسمّون قاتلكم (أى هل تستطيعون أن تذكروا بالاسم أحدا تتهمونه) ثم تحلفون عليه خمسين يمينا فنسلمه

إليكم ؟ قالوا : يارسول الله ، ما كنا لنحلف على ما لا نعلم . قال : أفيحلفون بالله خمسين يمينا ما قتلوه ولا يعلمون له قاتلاً ثم يبرأون من دمه ؟ قالوا : يارسول الله ، ماكنا لنقبل أيمان يهود . ما فيهم من الكفر أعظم من أن يحلفوا على إثم . فوداه (أى دفع ديته) رسول الله ﷺ من عنده مائة ناقة [٥٦] . إن رسولا يربى أتباعه هذه التربية السامية التى تمنعهم من أن يحلفوا على قاتل لم يشاهدوه بأعينهم ، رغم تأكدهم أن القاتل واحد من اليهود ورغم العداوة التى بين الفريقين وانعدام الثقة فى اليهود ودينهم لدى المسلمين ، لهو رجل جدير أن يعلو فوق الشكوك والاتهامات . وقد كان بمستطاع الرسول ، لو أراد ، أن يُلْزِم اليهود بدفع الدية تحت أية حجة ، وليس بأضعفها أن القتيل قد وُجِدَ فى إحدى عيونهم وأنه لم تكن بينه وبين أحد آخر عداوة ، وإلا لذكر ذلك للرسول أولياءُ دمه ، ولكنه عليه السلام آثر أن يدفع الدية من ماله [٥٧] .

أما الاتهام الثانى فهو عدم احترامه عليه السلام لمعاهداته مع مشركى مكة . والحقيقة أن هذا كلام من لا يجد شيئا يقوله ، وإلا فالدنيا كلها تعلم أن المشركين هم الذين نقضوا صلح الحديبية برغم

---

(٥٦) ابن هشام / ٣ / ٢٢٩ ـ ٢٣٠ .

(٥٧) انظر فى هذه الحادثة أيضا « الموطأ » / ٣ / ٧٧ ـ ٧٨ .

أنهم هم الذين أملوا شروطها ، ووافقهم عليها النبى ﷺ ابتغاء السِّلم وليكونوا هم الحكّام على أنفسهم إذا غدروا . وكان من جرّاء هذه الموافقة أن المسلمين حزنوا عليه ، ربما لأول مرة ، عندما أراد أن يحلق رأسه ويضحّى الهَدْىَ الذى كان أحضره معه ليذبحه . ولولا أن أم سلمة عليها رضوان الله طيبت خاطره واقترحت عليه أن يقوم فيحلق شعره ويضحى هديه حتى يراه المسلمون فيستحوا منه ويصنعوا صنيعه لظلوا حَزِنين (٥٨) . ومعروف كذلك اعتراض عمر على شروط الصلح وقولته المشهورة : « عَلاَمَ نُعْطَى الدَّنِيَّة فى ديننا ؟ » . لقد أملى المشركون شروطهم المتعنتة أشد التعنت ، ووفىّ لهم الرسول أعظم توفية أُثِرَتْ عن إنسان فَرَدَّ ، ولما تكن الاتفاقية قد جف حبرها ، مَنْ جاء من معسكر المشركين مسلما لأن شرط موافقة أهله على هذا الإسلام لم يكن متوفرا . بل إنه لم يقبل ، ولو فى السر ، أحدا ممن أسلم من أهل مكة بغير موافقة ذويه ، حتى جاء القرشيون إليه يترجَّونه أن يقبل كل من جاءه منهم مسلما ، إذ شكّل الداخلون من أهل مكة فى الإسلام على كره من أهليهم عصابة فى طريق تجارة قريش فسببوا لها المتاعب. ومع ذلك كله فإن المشركين هم الذين نقضوا الصلح حتى

---

(٥٨) انظر البخارى / ٢ / ١٢٢ .

لقد اضْطُرَّ أبو سفيان ، بجلالة قدره ، أن يفد على المدينة قلقا مذعورا يحاول أن يسترضى الرسول ، كأن الأمر لعب عيال ، فقوبل من ابنته حبيبة زوجة الرسول عليه الصلاة والسلام مقابلة جافة ، إذ رَبَأَتْ بفراش رسول الله أن يجلس عليه أبوها الكافر. وعبثا حاول أن يضحك على المسلمين ، وكانت آخر محاولاته أن رجا فاطمةَ بنت رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام أن تأمر ابنها الحسن ، وكان طفلا صغيراً يدب بين يديها ، أن يُجير بين الناس ليكون ، على حد قوله ، سيد العرب إلى آخر الدهر (٥٩) ، ظنا منه أنه يستطيع أن يضحك على ذقنها بمثل هذا الكلام ، وهو الذى أبى حتى تلك اللحظة أن يعترف لأبيها رسول الله بالسيادة على العرب . فكيف يزعم زاعم ، وهذه هى الحقائق سافرة ، أن الرسول قد قام بهجوم غادر على مكة بعد محاولات فاشلة سابقة ؟ (٦٠) إن المقصود هنا هو الأحداث المسجلة فى أول سورة « التوبة » ، مع أن الآيات هناك تغنى عن كل تعليق ، إذ القرآن يفرق بين من وَفَّى من هؤلاء المشركين بعهوده مع المسلمين ، فهذا يُتمّ إليه المسلمون عهده إلى مدته ، وبين من غدر وفجر ، فهؤلاء يُمْنَحون مهلة أربعة أشهر ،

---

(٥٩) انظر فى الصلح ونقضه ابن هشام / ٣ / ٢٠٣ فما بعدها ، و ٤ / ٢٢ فصاعدا .

(٦٠) انظر أيضا كِلتْ / ٣٤١ .

وبعد ذلك يعاملون معاملة العدو المحارب ، فأين الغدر هنا ؟ (٦١) إن الغادرين هم المشركون ، الذين حَظُوا مع ذلك بفترة سماح أربعة أشهر كاملة يسيحون فيها في الأرض بملء حريتهم . ولو كان الرسول عليه السلام غادرا فلِمَ لَمْ يقتل رسولَىْ مسيلمة ، الذى نازعه الرسالة والسلطان ، وكان الرسول فى أوج سلطانه وانتصاراته ؟ لكنه عليه السلام عفّ عن ذلك برغم تغيُّظه من صفاقة مسيلمة وصفاقة رسوليه وفداحة الأمر ، إذ يريد هذا المسيلمة الذى كان قد ورد عليه قبل ذلك بقليل مع من أسلم من قومه أن يأتى فى آخر المطاف فيهدم الصرح الشامخ الذى قضى محمد عمره كله يضحى من أجل بنائه ورفع سمكه عاليا فى السماء (٦٢) .

ونصل إلى التهمة الكبيرة الثالثة ، تهمة التساهل فى قضية الوحدانية أو ، كما يقول بعض المستشرقين ، المصالحة مع الوثنية ، إذ تحول الرسول إلى الكعبة بعد أن كان يصلى نحو بيت المقدس (٦٣) . ويرميه بعض آخر بأنه زيّف وحياً فى المدينة لربط الكعبة بإبراهيم عليه السلام (٦٤) ، على حين يستغرب بعض ثالث

---

(٦١) التوبة / ١ ـ ١٣ .

(٦٢) الشوكانى/ مجلد ٤ / ج ٨ / ص ٢٩ .

(٦٣) انظر چوزيف هبى / ٧٩١ ـ ٧٩٢ .

(٦٤) ذاك لامانس (انظر چوزيف هبى /٨٠٠) ، ويتابعه فى ذلك إدمون پاور (نفس المرجع / ٨١٢) .

أنه عليه الصلاة والسلام قد أبقى على الحجر الأسود ، وهو شعيرة وثنية [٦٥] . ويستطيع القارئ أن يرى أن المجادلة فى تحول النبى ﷺ من بيت المقدس إلى الكعبة ليست إلا مماحكة فارغة [٦٦] ، إذ ما الفرق بين اتجاه المسلم إلى هذه الجهة أو تلك ما دام الأمر كله رمزا على طاعة الله سبحانه وعلى وحدة المسلمين ؟ هل استقبال بيت المقدس دليل على التوحيد واستقبال الكعبة دليل على الوثنية ؟ ولكن لم ؟ إن الله موجود سبحانه أينما تولى المؤمن ، والمهم الاتفاق على وجهة ما ، ويا حبذا لو كانت مهوى الأفئدة المؤمنة . وإذا كان النبى قد صلى هو والمسلمون بعد الهجرة زمنا إلى بيت المقدس وقيل إن هذا كان تألفا منه لليهود كي يجتذبهم إلى الدين الجديد ، فما العيب إذن فى ذلك ؟ على أننا ينبغى ألا ننسى أن الرسول فى صلاته فى مكة قبل الهجرة كان يستقبل القبلتين معا . يتضح ذلك من عبارة ابن هشام : « وكان رسول الله ﷺ بمكة وقبلتُه إلى الشام، فكان إذا صلى صلى بين الركن اليمانى والحجر الأسود ، وجعل الكعبة بينه وبين الشام »[٦٧] . فما معنى ذلك ؟ أليس معناه أنه كان يجمع بين التوجه إلى الكعبة وبيت المقدس معًا من قبّل

---

(٦٥) مرجليوث / ٤٨ .

(٦٦) انظر أمر تحول القبلة فى البخارى / ١ / ١٦ .

(٦٧) ابن هشام / ١ / ٢٦٤ ، ٢٩٧ .

الهجرة ؟ لكنه لما انتقل إلى يثرب ، التى تقع فى شمال مكة بينها وبين الشام ، وكان من المستحيل الجمع بين القبلتين ، ظل يصلى إلى بيت المقدس وهو يتوق إلى أن يستدير إلى الجنوب ، إلى الكعبة التى بناها أبو الأنبياء إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام . فلو كان الأمر مجرد عواطف شخصية تجاه اليهود ، فهل كانت عواطف الرسول نحو قريش فى ذلك الوقت هى عواطف الحبّ والوله حتى يتحول عن قبلة بيت المقدس إلى الكعبة ، التى كانوا يقومون عليها؟ وهل كان موقف مشركى مكة منه صلى الله عليه وسلم ومن أتباعه فى ذلك الوقت المبكر (بعد ١٧ شهرا من الهجرة) مما يبعث على الأمل فى إسلامهم كى يتبع قبلة البيت الحرام ، الذى مقاليده فى أيديهم ؟ إن العلاقة بين الرسول عليه السلام واليهود لم تكن بعدُ قد تطورت إلى ما تطورت إليه من عداوة مستحكمة ، فليس ثمة وجه إذن للقول بأنه تحول إلى الكعبة من تلقاء نفسه يأساً منهم . وفضلا عن ذلك فلو كان الرسول قد قصد حقا بالصلاة إلى بيت المقدس تألُّف قلوب اليهود ، وإن كنت لا أرى فى ذلك ما يشينه من أى وجه ، فلِمَ نفر من اتخاذ البوق أداة لنداء المسلمين إلى الصلاة ، وقد كانت اليهود تدعو به لذات الغرض ؟ ولِمَ لَمْ يعد إلى بيت المقدس عندما عرض عليه ذلك نَفَرٌ من أشرافهم ليؤمنوا

به ؟ [٦٨] وهنا ينبرى بعض المستشرقين يتهمونه ﷺ بأنه اخترع قصة زيارة إبراهيم لمكة وبنائه الكعبة ، ناسين بذلك أمورا ثلاثة هامة: الأمر الأول أن العرب كانوا يؤمنون بهذا أجيالا بعد أجيال ، أى أن النبى لم يخترع هذه القصة . وقد جاء فى تاريخ ديودورس الصقلى ، الذى كان يعيش فى القرن الأول للميلاد ، أن من العرب فى ذلك الوقت من كانوا ينتسبون إلى نبات بن إسماعيل ، وهو ما نجده فى شعرٍ جاهلى لجد الصحابى حسان بن ثابت يفتخر فيه بوراثته مفاخر نبت بن إسماعيل (الذى ذُكِر فى العهد القديم). كما جاء فى التوراة السامرية أن برِّيَّة فاران (موطن إسماعيل كما جاء فى العهد القديم أيضا) تقع فى الحجاز . ويذكر المؤرخ سوزومين أن اليهود كانوا ينظرون إلى العرب الساكنين شرق الحد العربى على أنهم من نسل إسماعيل وإبراهيم وأنهم من ثَمّ من ذوى رحمهم . وهناك نص لتيودوريتو من النصف الأول للقرن الخامس الميلادى يصف فيه العرب بالقبائل الإسماعيلية [٦٩]. إذن فإبراهيم عليه السلام هو جد العرب ، وإسماعيل ابنه كان يعيش فى الحجاز ،

---

(٦٨) انظر ابن هشام / ٢ / ١١١ ، ١٤٢ .

(٦٩) من الفصل الخاص بـ « ترجمة النصوص القرآنية والتعليق عليها فى دائرة المعارف الإسلامية » من كتاب « دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية _ أضاليل وأباطيل » ، الذى سيصدر قريبًا بمشيئة الله لكاتب هذه السطور .

ومعنى ذلك أنه هو نفسه قد زار ذلك الإقليم . كذلك كان الحنفاء يقولـون لبعضهم البعض : « تعلّموا والله ما قومكم على شيء . لقد أخطـأوا دين أبيهم إبراهيم. ما حَجرٌ نطيف به لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع ؟ ياقوم ، التمسوا لأنفسكم ، فإنكم والله ما أنتم على شيء ». ويعقب ابن هشام قائلا : « فتفرقـوا فى البلـدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم » (٧٠). وكـان زيد بن عمـرو بن نفيل، وهو أحد هؤلاء المتحنفين ، يقول : « أعبد رب إبراهيم » ، وقال يوما وقد أسند ظهره إلى الكعبة : « يامعشـر قريـش ، والذى نفس زيد بن عمرو بيده ، ما أصبـح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى » (٧١). والأمـر الثـانى هو أن المشـركين كـانوا قد صنعـوا لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام صورة فى الكعبة مع ما صنعوا من صور للملائكة وفى أيديهما الأزلام يستقسمان بها (٧٢) . وإن دلالة ذلك واضحة تمام الوضوح، وهى أن الرسول لم يخترع العلاقة بين الكعبة وإبراهيم عليه السلام ، بل كـانت العرب تؤمن بذلك إيمانًا جـازمًا . وثالثًا : لو كـان الرسـول هو الذى زيف مـثل هذه

---

(٧٠) ابن هشام / ١ / ٢٠٥ .

(٧١) المرجع السابق / ١ / ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

(٧٢) ابن هشام / ٤ / ٤١ ، وابن كثير فى تفسير قوله تعالى : « وأن تستقسموا بالأزلام » (المائدة / ٣) .

العلاقة ، أو لو كان العرب واهمين فيما كانوا يعتقدون بشأنها ، لما سكت اليهود وهم البارعون فى إثارة الفتن ، ولملأوا الدنيا ضجيجا وعجيجا. وأخيرا فإذا كان النبى عليه السلام قد اخترع قصة بناء إبراهيم وإسماعيل للكعبة فلماذا ، بدلاً من ذلك ، لم ينسب بناءها إلى هود مثلا أو صالح أو أى نبى عربى آخر ، وبذلك يكون البيت عربيا وبانيه عربيا، مادام المقصود هو تملق العروبة لكسب قلوب مشركى مكة ؟

وما قيل عن استقبال الكعبة أثناء الصلاة يقال مثله عن الحجر الأسود ، فإن الوثنية لا تقوم فى الأشياء أو الأفعال ذاتها بل فى العقل والضمير . والمسلمون حين يحجون إلى مكة ويستلمون الحجر الأسود لا يفعلون ذلك لأنهم يعبدونه كى يقربهم إلى الله زلفى (بل لم يؤثر عن عرب الجاهلية أنفسهم أنهم كانوا يعبدونه كما كانوا يعبدون الأصنام). إنما هو سنة من سنن الطواف ، وكل ما يفعله الحاج هو أن يلمسه بيده ، فإن تعذر ذلك بسبب الزحام اكتفى بالإشارة إليه من بعيد . وقد قال الرسول ﷺ لعمر رضى الله عنه : « يا أبا حفص ، إنك رجل قوى ، فلا تزاحم على الركن (أى الحجر) ، فإنك تؤذى الضعيف . ولكن إذا وجدت خلوة فاستلم ، وإلا فكبِّر وامْضِ » . وقد روى ابن عمر أن رسول الله ﷺ استلم الحجر ثم وضع شفتيه يبكى طويلا ، فإذا عمر يبكى طويلا ،

فقال : يا عمر ، هنا تُسْكَب العَبَرات . ومن المأثور أن يقول الحاج عند استلام الحجر : « اللهم إيمانًا بك ، وتصديقًا بكتابك ، ووفاء بعهدك ، واتباعا لسنة نبيك سيدنا محمد ﷺ » (٧٣). ويرى القارئ كيف أن كل كلمة وكل حركة بل كل خالجة إحساس تدل على الإيمان العميق بالله سبحانه وتعالى وحده . فهذا هو الحجر الأسود الذى يدعى كثير من المستشرقين أنه بقية من الوثنية الجاهلية . لقد كان الرسول حتى فى الجاهلية ينبذ العادات الوثنيـة فى الحـج . وقد شهدت السنة التاسعة بعد الهجرة القضاء على هذه العادات السخيفة (٧٤). إن بشعائر الحج كلها ، مَثَلُها كَمَثَل شعائر الصلاة والصوم والزكاة ، هى عنوان على طاعة الله والمسارعة فى مرضاته . كما أنها تعبير عن الوحدة بين المسلمين ، إذ يرتبطون جميعهم على تنائى البلاد واختلاف اللغات والسَّحَن بقبلة واحدة على كل منهم أن يحج إليها ويجتمع عندها بإخوانه المسلمين من كل صقع مرة فى العمر . ثم أكان الحجر الأسود أهمّ من هُبَل أو بقية الأصنام الثلاثمائة والستين ، التى أطيح بها جمعاء غداة الفتح إلى الأبد ؟

والآن نصل إلى التهمة الأخيرة ، وهى تهمة الانغماس فى شهوات الجنس واختراع الوحى بعد الوحى لتسويغها . والمستشرقون

---

(٧٣) انظر « فقه السنة » لسيد سابق / ١ / ٧٠٠ ـ ٧٠١ ، والقاموس الإسلامى لأحمد عطية الله / مادة « استلام الحجر » .

(٧٤) انظر ابن هشام / ١ / ١٨٤ ـ ١٨٨ ، و ٤ / ١٤١ .

حين يتناولون هذه النقطة لا يلتزمون بحقائق التاريخ حتى لو كانت استنتاجاتهم خاطئة من وجهة نظرنا ، بل إن بعضهم ليخترع من عنده أشياء ما أنزل الله بها من سلطان : فإدمون پاور مثلا يزعم أن الرسول قد أعفى نفسه من الالتزام بحرمة زواج المحارم (٧٥) ، أما واشنجتن إرفنج فإنه يدعى أن آية « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ... إلخ » (٧٦) قد منعته عليه الصلاة والسلام من اتخاذ مارية حظيّة فاخترع وحيا خاصًا به (٧٧) ، مع أن مارية كانت ملك يمين ، وهذا جائز فى الإسلام لأى مسلم ، ولا تسبب حالتها أية مشكلة من أى نوع ، فضلا عن أن الرسول عليه السلام قد أعطى حسان بن ثابت أختها سيرين ، فهل اخترع له الرسول أيضا وحيًا له ؟ أم ماذا ؟ ولقد أفاض الكتاب والمفكرون المسلمون فى العصر الحديث في الرد على اتهامات المستشرقين للرسول عليه الصلاة والسلام فيما يتعلق بزواجه مما لا أجد معه ضرورة لتناول هذه المسألة ، وإن كنت أرى مع ذلك أن الأمر ، قبل نزول الوحى بتحديد الزوجات اللاتى يستطيع المسلم أن يحتفظ بهن فى نفس الوقت بأربع ، لا يحتاج كل هذا العناء ، فما دام التزوج بأكثر من أربع

---

(٧٥) انظر چوزيف هبى / ٨١٥ .

(٧٦) النور / ٢ .

(٧٧) انظر إرفنج / ١٣٣ .

كان قبل ذلك مباحا فما معنى اختصاص أعداء الإسلام للرسول عليه الصلاة والسلام بالنقد ؟ أما احتفاظ الرسول بكل زوجاته بعد التحديد ، وهن أكثر من أربع ، فهو الذى يحتاج إلى بيان . وإن أهم سؤال في نظرى هو : أكان الأمر هنا أمر شهوة وتلفيق وحى لتسويغها أم أمر سماح إلهى ؟ (٧٨) وأحب أن أبادر فأقول : لقد أُثِر عن الرسول عليه الصلاة والسلام فيما أُثِر عنه أن مما حُبِّب إليه من دنيانا النساء ، وإن كان قد ذكر أيضاً أن الصلاة هى قُرَّة عينه(٧٩) . لكن حب الرجال للنساء ، والعكس أيضا ، ليس عيبا . إنما القضية

---

(٧٨) فى رسالته للدكتوراه التى حصل عليها من باريس (La Condition de la Femme dans la Tradition et l' Evolution de l' Islamisme, p. 18) ردد د. منصور فهمى رأى المستشرقين فى هذه المسألة ، ولكنه سرعان ما عاد بعد رجوعه من فرنسا عن مثل هذه الآراء ، مما يدل على مدى ما لتأثير المستشرقين على أبناء المسلمين أحيانا من خطر شديد . انظر « الملل والنحل » للشهرستانى / تحقيق محمد سيد كيلانى / ٢ / ٨٢ ـ ٨٣ .

(٧٩) انظر مثلا الشوكانى / مجلد ١ / ج ١/ ص١٢٧ . أما ما ورد منسوبا إلى بعض الصحابة عن قوته الجنسية وأنه كان يطوف على نسائه جميعهن فى الليلة الواحدة فهو سخف لا يحتمل المناقشة ، فمن أين لهم أنه كان ينام مع كل منهن فى نفس الليلة ؟ إنه لم يؤثر عن الرسول عليه الصلاة والسلام ولا عن واحد من أمهات المؤمنين عليهن رضوان الله كلام فى هذا الموضوع ، فهل كان هناك إذن من يقتفى أثره ويتجسس عليه ﷺ ليرى ماذا يفعل إذا دخل عند كل زوجة من زوجاته ؟ ثم من أين لرجل ، كائنه ما كانت قوته الجنسية ، الوقت لمضاجعة تسع نساء فى ليلة واحدة ، وبخاصة إذا كان كالرسول عليه السلام يقوم الليل=

هى : أكان الرسول متهالكا على المرأة ؟ (٨٠) إن المعروف مثلاً

= يعبد ربه ، أما عندما ينام فكلما تقلب فى فراشه وظن الفجر قد حان قام فغسل أسنانه وأخذ يدعو ربه ثم يخلد ثانية إلى النوم حتى يطلع الفجر ويسمع صوت بلال ؟ (انظر مثلا الشوكانى / مجلد ٢ / ج٣ / ص٣٧ ، حيث تقول عائشة ردا على من سألها عن وتر صلاة رسول الله عليه السلام : « كنا نُعِدُّ له سواكه وطهوره فيبعثه الله متى شاء أن يبعثه من الليل فيتسوك ويتوضأ ويصلى تسع ركعات ... إلخ » . وانظر كذلك ، فى كيفية قضائه عليه السلام الليل ، البخارى / ١ / ٤٦ ، ١١٧ ، ١٩٨، و ٣ / ١١٦، و ٤ / ٧٤ ، والموطأ / ٣ / ١٠٣) . ثم كيف أمكن هذا الشهوانى العارم أن يفطم نفسه عن زوجاته شهرا كما سيأتى بيانه بعد قليل ؟ وأيضا ما القول فى أن ذلك يخالف ما هو معروف عنه ﷺ من أنه كان يخصص لكل واحدة من زوجاته ليلة لاتشاركها فيها غيرها ؟ لكل هذا أجدنى غير مطمئن لهذا الحديث الذى يستطيع القارئ أن يجده فى الشوكانى (مجلد ١ / ج ١ / ص ٢٣٠) .

(٨٠) فلم إذن لم يتزوج على خديجة وقد كان شابا لم ترهقه السنون ولا متاعب الدعوة والحروب ؟ إن المستشرقين ينبرون هنا زاعمين أن مكانة خديجة ومالها قد أخضعاه لها وجعلا لها الكلمة العليا فى البيت ، كأن مكانته عليه السلام فى قومه لم تكن أكبر من مكانتها ، وإلا فلم اختارته هى نفسها وأرسلت إليه من تعرض عليه الزواج بعد أن رفضت رجالات قريش الذين تقدموا لها ؟ ثم إذا لم يكن يستطيع أن يتزوج عليها أكان أيضا لا يستطيع أن يجد متنفسا لشهواته المنطلقة مع مومسات مكة مثلا ؟ أما المال فإن أبا بكر قد أنفق ماله كله على الدعوة ، وكان تعضيده للرسول عليه السلام من العوامل الهامة جدا لانتصار الإسلام ، ومع ذلك فلم يمنع ذلك كله الرسول أن يتزوج على عائشة ابنته (وكانت صغيرة بكرا نضرة على عكس خديجة) لا زوجة واحدة ولا اثنتين بل ثمانى ؟ وأخيرا كيف نعلل إخلاصه لذكرى خديجة إلى آخر حياته وتفضيله لها حتى على عائشة ، التى كان يغيظها ذلك منه أيما غيظ ؟

عنـه عليه الصلاة والسلام أنه كان يعزف عن مصافحة النساء(٨١) . ترى لو كان شهوانيا ، كما يحلو لأعدائه أن يتقولوا عليه ، أفما كان الأحرى به أن يحرص على مصافحتهن والتلذذ بلمس أيديهن الرَّخْصة واستبقائها بين يديه أطول مدة ؟ بل لِمَ شَرَّع الاحتشام فى الملبس بحيث لا يظهـر من المرأة إذا بلغت المحيض إلا وجـهـهـا وكفاها؟ أفما كان الأجدر بمثل هذا الرجل الشهوانى كما تصوره كتابات هؤلاء المستشرقين ألا يفكر مجرد تفكير فى وضع مثل هذا التشريع الذى سيوقف عينيه النهـمتين عند حدهما ؟ إنه عليه الصلاة والسلام لم تؤثر عنه طيلة حياته ، لا قبل المبعث ولا بعده ، فى مكة أو فى المدينة ، ريبة قط ولوكلمة غزل عابرة أو غامضة . وحياته الشخصية ، والحمد لله ، واضحة وضوح الشمس ليس فيها أسرار(٨٢) . ثم إن حياته عليه الصلاة والسلام كانت ، بوجه عام ، حياة متقشفة ، ولم يعرف عنه ﷺ اهتمام بالغذاء ، بل كان يأكل ما تيسر، وكانت الأسابيع تمر على بيتـه لا يوقَد فيهـا نار ، ولا يتعدى طعامه أثناءها التمر والماء . وفى بعض الأحيان كان لا يوجد فى البيت شىء أصلا . وهذا ثابت مستفيض لا أحتاج إلى أن أحيل

---

(٨١) الموطأ / ٣ / ١٤٧ .

(٨٢) قارن المبادئ الأخلاقية الصارمة فى الإسلام بالتحلل الخلقى (كإسقاط الصلاة وإباحة الزنا والخمر) فى دين مسيلمة حسبما جاء مثلا عند ابن هشام (٤ / ١٦٥).

القارئ على مصادره . ولا يمكن أن يقول عاقل أبدا إن هذا سلوك المتعبدين لشهواتهم . كذلك لو كان الرسول عبداً لشهوة الجنس أكان بمقدوره أن يفطم نفسه عن زوجاته شهرا حين أبدين شيئا من التطلع إلى عيشة أرفه مما كُنّ فيه ؟ قد يقال إنه أراد أن يعاقبهن . لكن السؤال هو : ولم يريد أن يعاقبهن أصلاً ، والشهوانى فى مثل هذه الحالة يعمل بكل ما فى وسعه وما فى غير وسعه لإرضاء من يهواهن الفؤاد ؟ ثم لو سلمنا بهذا ، وهو لا يمكن التسليم به ، أفما كان عليه السلام قادرا على أن يتزوج خلال هذا الشهر الجاف جنسيا مَنْ تبلّ ريقه وتخفف عنه الحرقات التى بين الضلوع ؟ بل إن الولائم التى كان يصنعها فى أعراسه عليه الصلاة والسلام كانت تتسم بالبساطة الشديدة ، مع أن أموال الدولة كانت كلها تحت يده يقدر أن يغترف منها بالكفين كما يشاء ليرضى زوجاته ، وهن بَعْدُ نساء لا يكرهن ، على الأقل ، أن يعبر زوجهن عن رغبته فيهن بإقامة الولائم الفخمة التى تراق فيها الخمور ويكوّم فيها اللحم تكويما . لا ، ليس هذا سلوك شهوانى متهالك على المرأة . وكذلك ليس شهوانيا لئيما من تستعيذ منه بالله إحدى زوجاته حين أراد الدخول بها ، وكانت حديثة عهد بكفر ، فلا يكون رد فعله إلا أن يقول : « مَنِيعٌ عائذ الله » ثم يسرحها بإحسان ويردها إلى أهلها معززة مكرمة دون كلمة واحدة تسيء إليها أو نية فى

تأديبها على ما بدر منها [٨٣] . (للتفكهة ألفت نظر القارئ هنا لما زعمه واشنجتن إرڤنج [٨٤] من أنه عليه الصلام والسلام كان إذا رأى امرأة جميلة سوى شعره ومسح على حواجبه . ولا أدرى من أين أتى بهذه الرواية التى لا تنطبق إلا على المتعطلين الذين يقفون على النواصى يعاكسون العابرات ويحتكون بهن . والغريب أن إرڤنج نفسه قد وصف الرسول قبل ذلك بصفحة بأنه كان محبا للصوم ، بسيط الملبس ، يكره بطبيعته المظاهر الفارغة . كما وصفه فى موضع آخر بأن الصلاة كانت سلوى روحه [٨٥] . وفى موضع ثالث يقف عند بساطة معيشته وبيته كما رسمها عدى بن حاتم حين وفد عليه ﷺ [٨٦] ، وهو ما يتعارض تمام التعارض مع الشهوانية) . أما بالنسبة لاحتفاظه ﷺ بزوجاته جميعا بعد نزول القرآن بتحديد زوجات المسلم بأربع غير ما ملكت يمينه ، فأول ما ينبغى أن نذكره هنا هو أن هذا التحديد لم يتم إلا فى السنة الثامنة للهجرة ، أى فى آخر حياة الرسول ، وكان قد جاوز الستين وبَنَى بزوجاته جميعا فلم يتخذ بعد ذلك زوجة أخرى . وإن المرء ليتساءل : ترى لو كان الرسول

---

(٨٣) انظر ابن هشام / ٤ / ٢١٧ . وانظر أيضا البخارى / ٣ / ٦٩، والشوكانى / مجلد ٣ / ج ٦ / ص ٢٤٣ .

(٨٤) ص / ١٩٣ .

(٨٥) ص / ١٩٩ .

(٨٦) ص / ١٣٢ .

متدلها فى حب النساء فلِمَ حددهن حينئذ بأربع إذا كان لن يلتزم بذلك التحديد ؟ أكانت غايته أن يحرج نفسه بإصدار تشريع لا يلتزم هو به ؟ أم يا ترى كان حتى ذلك الحين ، أى بعد ثمانى سنين من التهالك على النساء كما يصوره أعداء الإسلام ، يجهل هذا الضعف فى نفسه وأخلاقه ؟ إن الرسول لو كان هو مؤلف الوحى لما أصدر مثل هذا التشريع أبدا حتى لو انطبقت السماء على الأرض ، أو على الأقل كان ينبغى عليه أن ينسخه إذا وجد أنه لن يستطيع الالتزام به كما ظن قبلا . ولا يقولن قائل إن النسخ فى الشريعة إنما يكون تدرجا نحو الأصعب ، فإن القرآن قد توقع من المسلمين فى بداية معاركهم مع الكفار أن يهزم الواحد منهم عشرة من أعدائهم ثم خفف ذلك إلى اثنين فقط (٨٧) . كذلك شرع القرآن فى فترة من الفترات على كل من يريد مناجاة الرسول على حِدَة أن يقدم بين يدى نجواه صدقة ثم نسخ ذلك (٨٨) . فإذا لم يكن هذا ولا ذاك فلم أصدر مثل هذا التشريع وقد كان التعدد بلا ضابط عُرْفًا متبعا ؟ أكان هناك حزب نسائى بين أتباعه يقوم بالضغط عليه ويلوح له بأنه لن يعطيه أصواته فى الانتخابات إلا إذا حدد عدد الزوجات ؟ أم تمرد عليه أحبُّ أربع زوجاته إلى قلبه وخيّرنه بين

---

(٨٧) الأنفال / ٦٥ ـ ٦٦ .

(٨٨) المجادلة / ١٢ ـ ١٣ .

التحديد أو تركه واللحاق بأهلهن ؟ ولكن من هن ياترى هؤلاء الأربع الواثقات بأنفسهن كل هذه الثقة ؟ ولِمَ لَمْ يسرّح الباقى من زوجاته ويحتفظ بهؤلاء وحدهن وله فيما ملكت يمينه مندوحة عن مخالفة التحديد ؟ بل لقد كان يستطيع ، مادام نوى أن يصدر هذا التشريع ، أن يطبقه على نفسه مع إرضاء شهوته الجسدية بأن يطلّق كل زوجاته القديمات التى لم يكن له من واحدة منهن ولد يمكن أن يبقى عليها من أجله ويتزوج بدلا منهن أربعا من أجمل بكارى العرب . إن العجيب أن يكون محمد شهوانيا إلى هذا الحد الذى يتفنن فى تصويره هؤلاء المستشرقون ويخترع مثل هذا الوحى المحرج مع أنه قبل ذلك بسنة واحدة كان قد تزوج صفية بنت حُيَىّ ، رضوان الله عليها ، اليهودية الأصل ، وكان يستطيع أن يُبْقِيها أَمَةً لأنها من السبى . وقبل صفية بسنة اتخذ جويرية بنت الحارث زوجة، مع أنها كانت من نصيب أحد المسلمين من سبى بنى المصطلق ، فكان الأحرى أن يتخذها عليه السلام أَمَةً ، ولكنه لم يفعل هذا أيضا . فهل كان يبحث عن المتاعب يخلقها لنفسه خلقا ليزداد إحراجا فوق إحراج بإضافة زوجتين إلى زوجاته اللائى سيصدر بعد شهور تشريعا لا يسرى عليهن ؟ إن هذا إنما يدل على التخبط، وهو لم يكن يوما من سمات الرسول عليه الصلاة والسلام . كذلك فإن الذين يأخذون عليه أنه أعفى نفسه من الالتزام بأربع زوجات يتناسون أن القرآن بعد

ذلك بقليل قـد نزل يحـرّم عليـه هو وحـده من دون المسلمين أن يستبدل بأى من زوجاته زوجة جديدة ، مما يدل على أنه عليه السلام كان له وضع خاص فى هذه المسألة ، فتارة يلتزم المسلمون بما لا يلتزم به ، وتارة العكس . وفى النهاية أود أن أشير إلى أن أحدا من المسلمين أو حتى من المشركين لم ينكر عليه صلى الله عليه وسلم ذلك. ولو قـد أحس المسلمـون أن فى الأمـر مـا يدعـو إلى الريبـة لما سكتوا ، وفيهم عمر النقادة ، وكان حمآ للرسول ويهـمه ألا يكون لبنته كل هؤلاء الضرائر ، فيضطر الرسول إلى إصدار تشريع يعفيهم مثله من الاقتـصـار على أربع زوجـات ليسكتـهم فـلا يسـببـوا له المشـاكل. الحقيـقة أننى كيـفمـا قلّبت هذه المسألة لا أجد فيـهـا مـا يؤخذ على الرسـول ، فـإن السـمـاء هى التى شـرّعت ، أمـا هو فلم يشرع لنفسه ولا للمسلمين من عنده شيئا . وأظننى كنت صريحا جدا فى معالجة الأمر كله سلبا وإيجابا (٨٩) .

(٨٩) أحب أن أشير هنا إلى رأى هربرت جورج ويلز (الكاتب والعالم والمؤرخ الإنجليزى المشهور) فى الرسول عليه السلام ، فهو ، وإن وصف الإسلام الذى صنعه ، على حد قوله ، محمد نفسه بأنه دين عظيم ، يرمى رسولنا صلى الله عليه وسلم بالشهوانية ، ويستكثر عليه أن يوضع فى مصاف عيسى عليه السلام وجوتاما ومانى (The Outline of History, p. 234) . إن ويلز هذا المتقـزز من خلق نبينا عليه السلام فيما يتعلق بالمرأة ، والمتدله فى عفة المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، يتناول حياته هو نفسه بالتشريح فى كتابه "Experiment in Autobiography" ، كاشفا غسيله القذر فى حديثه عن المومسات =

ويتصل بهذا الاتهام المتهافت ما تلقفه المستشرقون من رواية ضعيفة اخترعها ورواها بعض من ينتسبون إلى الإسلام ولا يقدرون المسؤولية فيما يقولون ويتناقلون ، وهى الرواية التى تتعلق بزواج الرسول الأكرم بابنة عمته زينب بنت جحش . وتتلخص هذه الرواية فى أن رسول الله ﷺ ذهب يوما إلى بيت زيد فى أمر فلم يجده ، وكلمته زوجته زينب من وراء الستار وهى تلبس ملابسها على عجل، فإذا بالهواء يرفع الستارة بغتة ليراها الرسول حاسرة ، مما كان له تأثير طاغ على مشاعره فانصرف وهو يردد : « سبحان مقلب القلوب ! » . ولما جاء زيد وعلم من زوجته بما حدث فهم أن الرسول قد علِق زوجته ، فذهب إليه وعرض عليه أن يطلقها ويتزوجها هو فأمره عليه السلام أن يمسك عليه زوجته ويتقى الله . ولكن الوحى ما لبث أن نزل على الرسول يكشف مشاعره التى حاول عبثا أن يخفيها ، ويأمره فى صراحة أن يتخذ زينب زوجة . هذا ، وقد أضاف واشنجتن إرفنج من عنده بعض التوابل ، إذ ذكر أن الرسول عليه السلام هو الذى فاجأ زينب وهى فى مباذل البيت ، وذلك

= اللاتى كان يصطادهن من أزقة لندن ، وعن تكرار خيانته لزوجته فى أول فرصة تسنح له ، دون أن يبدى أية مقاومة يسوغ بها هذا الترفع الكاذب ، كما حدث مثلا عندما خلا عليه البيت هو وآنسة كانت تساعده فى بعض الأعمال حسبما جاء فى الفصل الثانى من الباب السابع من ذلك الكتاب .

حين اقتحم عليها خلوتها في بيتها بصفته أبا لزوجها بالتبني ، فرأى جمالها مكشوفا أمام عينه المحملقة (٩٠) .

وأول شيء أحب أن أسارع فأقوله هو أننا لم نسمع بمثل حادثة الستار هذه في أية رواية أخرى عن ذلك العهد ، بل إن الستور لم ترخ في بيوت الرسول إلا بعد زواجه من زينب (٩١). الحقيقة أن هذه رواية من الروايات الغرامية التي هي بامرئ القيس وابن أبي ربيعة أليق . أما ادعاء إرفنج بأنه ﷺ قد اقتحم على زينب خلوتها فليقل لنا أولا من أين له به ، فإن مثل هذا السلوك ، فضلا عن أنه يجافي خلق الرسول والصحابة ، لم يرد ولا حتى في تلك الرواية التافهة التي هي محل كلامنا الآن .

وثمة نقطة هامة جدا في قصة زينب هذه هي أنها وأهلها كانوا

---

(٩٠) إرفنج / ١١٢. وقد أورد د. محمد حسين هيكل هذه القصة في « حياة محمد » (ص/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣) على نحو قريب من هذا . كما روى مكسيم رودنسون هذه القصة أيضا (ص / ٢٠٥ ـ ٢٠٨) ، وإن لم يرد فيها ذكر لستار بل قال إن زينب قد قابلته وهي شبه عارية . ولا أدري كيف واتت زينب الجراءة على مقابلة الرسول ﷺ بهذا الشكل . إن هنا لَبِسْلوك ممثلات أدوار الإغراء أشبه. وانظر إشارة لهذا الأمر ساخرة في ص / ٢٧٢ من كتاب "Comparative Religion" لبوكيه (A.C.Bouquet) ، وهو رجل دين نصراني بريطاني .

(٩١) انظر البخاري / ٣ / ١٧٧ .

قد رفضوا رفضا باتا أن تتزوج زيداً ، الذى لم يكن إلا عبداً للرسول أهدته إليه خديجة عند زواجها فأعتقه عليه السلام ، بينما زينب هى ابنة عمة محمد زعيم المسلمين وحاكمهم ورسول السماء ، وأسرتها من أرفع أسر قريش عزة ومكانة ، ولولا أن وحيا قرآنيا شديد اللهجة قد نزل فى زينب وأهلها يعنفهم على هذا الرفض ما رضيت ولا رضوا أبدا . والشاهد هنا أن هذه هى المرة الوحيدة تقريبا التى أرغم فيها الرسول امرأة على التزوج ممن لا تريد (٩٢) ، فإن الشريعة الإسلامية تتشدد فى هذه المسألة حتى إن فتاة ذهبت إلى الرسول تشكو له من أن أباها قد زوجها من ابن عمها ليرفع بذلك الزواج خسيسته ، ففكّ الرسول عليه السلام عقد الزواج بسبب رفض الفتاة، التى عادت بعد فسخ العقد فأعلنت موافقتها قائلة إنها إنما فعلت ذلك ليعرف الآباء أن لبناتهم إرادة مستقلة لا يجوز لهم أن يجوروا عليها (٩٣) . بل إن الرسول نفسه عليه السلام لم يحاول، ولو من بعيد ، إرغام زوجته التى استعاذت بالله منه (وكانت

(٩٢) هناك حالة أخرى قابلتنى فى كتب الحديث التى رجعت إليها نجد فيها الرسول عليه الصلاة والسلام يتدخل لدى العروس لترضى بمن خطبها له . والطريف أن الرجل الذى رشحه الرسول فى هذه المرة هو أسامة بن زيد بن حارثة! (الشوكانى / مجلد ٣ / ج ٦ / ص ١٠٨) .

(٩٣) انظر « فقه السنة » لسيد سابق /٢ / ١٣٠ . وانظر كذلك الشوكانى / مجلد٣/ ج ٦ / ص ١٢٠ _ ١٢٢ .

حديثة عهد بكفر) على البقاء في عصمته ، وإنما سرحها تسريحا جميلا . وفضلا عن ذلك فلدينا حالة بريرة ، وكانت أمَة فأُعْتِقت ، وعندئذ أعلنت أنها لا تريد البقاء مع زوجها ، الذى أخذ يجوب شوارع المدينة وراءها وهو يبكى من فرط تعلقه بها ، وقلبها لا يرقّ له. وعبثا حاول الرسول عليه السلام الشفاعة له ، فقد أصرت على أن ينفصلا ، فكان لها ما أرادت (٩٤) . فأين بريرة من زينب سليلة العز والشرف ؟ ولماذا ينزل وحى فيها هى وأهلها خاصة يرغمهم على أن يرضوا بالزوج الذى اقترحه الرسول عليهم وهو عبد عتيق ؟ ألا إن فى الأمر سرا سوف ينجلى حين ينزل وحى آخر يرغم الرسول عليه السلام بدوره على أن يتزوج زينب هذه . ولكن فلننتظر قليلا .

ثم لو أن الرسول كان طالب شهوة فلِمَ لَمْ يدخل البيت عندما رأى زينب على تلك الهيئة المزعومة (فهو على كل حال ابن خالها) ويتودّد إليها متظاهرا بأنه يريد أن يكفر عن إرغامه إياها على الزواج من زيد ، وبخاصة أن العلاقة بينها وبين زوجها لم تكن على ما ترام بسبب إحساسها أنها مغموطة فى هذا الزواج ، ثم يتخذها (أستغفر الله) عشيقة ؟ وهى بعدُ ليست إلا زوجة لمن كان فى يوم

(٩٤) انظر «رياض الصالحين»/٩٢ ـ ٩٣، والشوكانى/ مجلد٣ / ج ٦ / ص١٥٢.

من الأيام له عبدا فمنّ عليه بالحرية وقربه منه ، أما هو فزعيم الأمة وحاكمها المطلق على زعم المستشرقين ، أمره مطاع ولا يتورع عن تلفيق الوحى لتسويغ ما يريد . إن القارئ يمكنه أن يتصور منطقية هذا الحل إذا وضع فى ذهنه أن مَلِكاً حَسُنَتْ فى عينه زوجة خادمه أو سائقه مثلا ، وكان هذا الملك لا يبالى بخلق ولا عُرْف كريم ، فماذا تراه فاعلاً إلا أن يأمرها بأن تتبعه إلى فراشه فتفعل ؟ وذلك بدلا من أن يتزوجها وينزل فى نظر الناس من عليائه إلى اتخاذ امرأة خادمه زوجة له . ثم إن هناك فى المسألة جانبا خطيرا أشد الخطورة ، فإن العرب لم تكن تُقِرّ قط مثل هذا الزواج ، لأن التبنى فى نظرهم كان هو والأبوة الطبيعية شيئا واحدا . وهذا هو لب المشكلة كلها ، ومن ثمة نستطيع أن نفهم تردد الرسول وعدم رغبته فى إتمام هذا الزواج ، كما هو واضح من قوله تعالى : « وتخشى الناسَ ، واللهُ أحقُّ أن تخشاه » (٩٥) ، الذى فهمه رودنسون على أنه إشارة إلى أن محمدا قد خاف أن يعرف الناس تعلق قلبه بزينب ووقوعه فى هواها منذ تلك النظرة المزعومة (٩٦) ، مع أن له تفسيراً آخر يتسق مع تحليلنا هذا الذى نراه أقرب تماما إلى المنطق ، ولا ندرى لِمَ لَمْ يشر إليه بكلمة واحدة ، وهو أن الرسول لم يشأ أن يواجه الناس بأن عليه

---

(٩٥) الأحزاب / ٣٧ .

(٩٦) رودنسون / ٢٠٦ ـ ٢٠٧ .

أن يتزوج زينب . لكن وحي الله ينبغي أن يُبلّغ للناس مهما تكن مرارته، وشرع الله لا بد أن يطبّق مهما يتعارض مع التقاليد الحديدية. وليكن أول من يطبق هذا التشريع هو الرسول نفسه على رغم ما سوف يثيره من لغط لما سيسببه للناس من صدمة شديدة . أما الادعاء بأن نظرة واحدة مباغتة لزينب ، ولما تكن قد استكملت ارتداء ملابسها ، قد زلزلت قلب محمد فمن الصعب جدا قبوله . لماذا ؟ لأن الرسول هو الذى أرغمها على الزواج من زيد ، وكان ذلك منذ وقت قريب . فما الذى تغير فيها فى هذه المدة القصيرة جدا حتى ترج كيانَه نظرةٌ إليها ؟ لو أنه عليه السلام لم يرها منذ طفولتها ثم فوجىء بها امرأة ناضجة الأنوثة لقلنا : هذا معقول ، فإن فترة المراهقة تُحْدِث من التغييرات فى الفتيات الأعاجيب . أما أن تتغير امرأة ناضجة فعلا فى هذا الزمن الوجيز فهو غير معقول ، وبالذات إذا عرفنا أن زينب لم تكن راضية عن زوجها ودائما تعيّره بأنها أشرف منه ، لأن مثل هذه الزوجة لا تجد فى حياتها الزوجية دافعا إلى الاهتمام بشكلها أو ملابسها أو زينتها ، وهى الأشياء التى يمكن أن تجعلها تبدو جميلة إذا لم تكن كذلك ، أو تزيدها ، إن كانت ، جمالا فوق جمال .

إن القصة تمضى فتقول إن محمدا عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ، عندما وقع بصره عليها وهى فى حالتها تلك ، قد انصرف

من فوره وهو يردد : « سبحان مقلب القلوب ! » . فقف معى هنا أيها القارئ وقل لى : علام تدل هذه العبارة ؟ ألا تدل ، حتى بفرض صحة هذه الرواية ، على أن الإيمان بالله كان يملأ قلب محمد عليه السلام ، وأنه كان يرى ربه مطلق المشيئـة ؟ ترى أهذه مشاعر دجال يزعم كذبا أنه متصل بالله يأتيه الوحى من لدنه بينما هو فى الحقيقة يلفق هذا الوحى ليحقق به شهواته ؟ على أية حال لقد رجع محمد ، بناء على هذه الرواية ، ولم يفكر ولو لحظة فى الدخـول على زينب برغم أن البيت كان خاليا عليها . إن رد الفعل الطبيعى هنا ، مادام محمد أسيراً لشهوته كما تصوره كتابات المستشرقين ، هو أن يدخل وينفرد بمن زلزلت كيانه ، حتى لو كان كل ما سيفوز منها حينذاك هو مجرد الأنس بالحديث معها ساعة ومَلْء العين من جمالها إلى أن يعود الزوج المسكين من الخارج .

ولنفتـرض أن مـحـمـدا قـد أخطأ خطأ العـمـر حين ترك هذه الفـرصـة الغـاليـة تفلت منه فـانصـرف بدلا من أن يدخل ، فلِمَ لَمْ يهتبل تلك الفرصة الأخرى التى قدمهـا إليه فى منديل من حرير الزوجُ الساذج السادر فى حب سيده غفلة منه وحمقا ، أستغفـر الله، حين أتى إليه توّ علمه بالحادثة وعرض عليه بإخلاص السذّج وحـرارة الحـمـقى أن يتنازل له عن زوجته، التى وقعت فى قلبـه موقعا؟ لقد كان جواب الرسول على هذا العرض هو: « أَمْسِكْ عليْكَ

زَوْجَكَ واتَّقِ اللّه » . أتراه كان يتردد خوفا من كلام الناس ، حتى إذا ما تهيأ الرأى العام لذلك لم يجد غضاضة فى قبول العرض ؟ لكن هذا الأمر قد ظل سِرًا بين أطراف هذا المثلث فلم يبلغ آذان الرأى العام ، ولم يتهيأ من ثمة هذا الرأى العام لذلك الأمر الجلل . ثم ألم يكن أفضل من هذا كله وأسرع وأبلغ بمحمد إلى غرضه وشهوته أن يتفاهم مع زوجة عبده السابق على ترتيب لقاء سرى بينهما كلما سنحت الفرصة بدلا من وجع الدماغ هذا والدخول فى هذه المتاهات المعقدة والتعرض لألسنة الناس ؟ أم تراه حين أخطأ وأفلت فرصة الخلوة بها قد فاته أيضا أن يلجأ إلى حيلة داود على حسب ما يرويه الكتاب المقدس ، الذى يتهم هؤلاء المستشرقون أنفسُهم سيدَنا رسول الله بالسرقة منه ، فيرسل زيداً فى غزوة من الغزوات المهلكة بعد الاتفاق مع واحد من أصحابه الذين يغارون منه على أن يضعه فى مقدمة الصفوف عرضة لرماح الأعداء وسهامهم وسيوفهم كى يموت ، بالضبط كما فعل داود مع أوريا قائده المقرب إليه عندما وقع له شىء مشابه لما وقع لمحمد على حسب هذه الرواية الملفقة ، على رغم أنه ، على عكس محمد ، قد أروى غلته من امرأة هذا القائد قبل أن يرسله إلى الحرب ليموت هناك ويخلو له بذلك وجه الزوجة ؟ لقد فعل داود هذا بقائده المقرب إليه ، فلم لَمْ يفعله محمد مع عبده السابق ؟ إن التخلص من عبد سابق لأهون

ألف مرة من التخلص من قائد له مكانته الاجتماعية والسياسية الرفيعة مثل أوريا (٩٧) . أم تراه عليه السلام لم يكن يسرق من اليهود إلا الأفكار الطيبة بينما يعف عن الأفكار الشريرة ؟

على أننى مازلت أرى أن من المستحيل أن يكون الأمر قد تم على النحو الذى تزعمه تلك الرواية المتهافتة ، فقد كانت علاقة الحب المتبادلة بين محمد وزيد من المتانة والعمق والرسوخ حتى إن زيدا فى صباه قد فضله على أبيه وأمه وكل أهله الذين لم يكن قد رآهم منذ اختُطِف وبِيعَ بَيْعَ العبيد وتقاذفته المقادير حتى استقر فى يد محمد ، ورفض أن يرجع معهم حين خيره النبى بين البقاء معه أو الذهاب مع أهله (٩٨) . ولم يُؤْثَر عنه بعد ذلك قط أنه حنَّ إلى أهله مرة . ترى أيمكن أن يبلغ الحب من قلبه هذا المبلغ المستحيل لو أنه شام من محمد ريبة على مدى هذه السنوات الطويلة ؟ أم ترى كان يبقى بعد هذه الحادثة معه عليه السلام لو أن مجرد صدى هاجس خافت قد عبر قلبه ؟ أم ترى محمدا ، وهذه أبوّته لزيد الذى رباه على يديه وسقاه من كؤوس حنانه الصافية منذ كان صبيا حتى أصبح الآن رجلا فأرغم بنت عمته هو الزعيم والحاكم المطلق

(٩٧) انظر ، فى قصة داود وأوريا ، الكتاب المقدس / صموئيل الثانى / ١ / ٢ - ٢٧ . واقرأ فى تفنيدى لها كتابى « المستشرقون والقرآن » / ١٣٠

(٩٨) انظر ابن هشام / ١ / ٢٣٠ - ٢٣١ ، ولوفنج / ٣٤ .

السلطان على الزواج من هذا العبد السابق ، يمكن أن يقع فى مثل هذا الغرام المشتعل فجأة مع زوجة ابنه ؟ أم تراه ، بافتراض صحة وقوعه فى هواها من مجرد نظرة عابرة ، كان يرضى أن يتزوجها لولا أمر السماء له بأن يكون أول من يطبق ذلك التشريع الجديد على نفسه ليحطم التقليد الجاهلى الذى كان يَعُدّ الابن بالتبنى مثل الابن الحقيقى تماما ؟

على أن هناك شيئا فات هؤلاء المسارعين إلى تصديق كل ما من شأنه أن يلطخ سمعة الرسول الأعظم محمد ﷺ ، وهو أن تلك الرواية المتهافتة تقول إن زواج محمد من زينب بعد طلاقها من زيد قد أثار زوبعة شديدة لأن الناس لم يستطيعوا بسهولة أن يهضموا زواج رجل من مطلقة ابنه ، حتى لو كان ابنا سابقا بالتبنى . أفلم يكن المنطقى إذن ألا يفكر زيد فى عرض تطليق زوجته على أبيه السابق ليتزوجها ما دام الناس كانوا يستنكرون مثل هذا الزواج إلى هذه الدرجة العنيفة ؟ ثم أليس من المنطقى أن ننكر نحن إمكان حدوث ذلك ؟

ثم عائشة ! لقد كانت زوجة غيوراً ، ولو أنها أحست بشىء يحاك فى الخفاء لما سكتت . ولقد سمعته عليه السلام يقول عن رجل جاء إلى بيته فى أمر ما : « بئس أخو العشير هو ! » ، فلما قابله وهشّ له وألان الكلام لم تسكت على ذلك رغم تفاهة الأمر

ورغم أن هذه هى المرة الوحيدة (فيما نعرف) التى وقع ذلك فيها من الرسول عليه السلام وسألته عن سر هذا التناقض التّافه (٩٩). فأحرى بها هنا ألا تسكت لو شعرت بشىء مما يتقوله المستشرقون. لكن كان لعائشة الجريئة ذات الدلال على رسول الله ﷺ رأى آخر ، إذ قالت : لو كان رسول الله ﷺ كاتما شيئاً لكتم هذه(١٠٠). ذلك أنها كانت تدرك تمام الإدراك فداحة الصدمة التى سيخلّفها زواج رسول الله عليه السلام من زينب كما مر بيانه .

مما سبق يتبين لنا أن المستشرق البريطانى مونتجمرى وات كان على حق عندما اتفق رأيه فى هذه القضية مع آراء المسلمين المعاصرين ، وأنه لا معنى لاستغراب مكسيم رودنسون رأى رصيفه البريطانى هذا (١٠١). ثم فلنفترض أن وقائع القصة كلها صحيحة ، فما الذى يؤخذ على الرسول فيها ؟ أيؤخذ عليه أن نظره وقع عفوا على زينب فكان لذلك تأثيره على قلبه ؟ أم يؤخذ عليه أنه بدلا من أن يدخل انصرف وهو يتمتم : « سبحان مقلب القلوب » ؟ أم يؤخذ عليه نهيه زيداً أن يطلق زوجته من أجله (١٠٢) وقوله له :

---

(٩٩) انظر فى هذه القصة مثلا « الموطأ » / ٣١ / ٩٦ .

(١٠٠) البخارى / ٤١ / ٢٨١ .

(١٠١) انظر رودنسون / ٢٠٧ .

(١٠٢) هذا ما يدعيه المستشرقون ، أما الرواية القديمة (كما فى تفسير الطبرى والزمخشرى مثلا لهذه الآية) فتقول إن زيدا ذهب إلى الرسول عليه =

«أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ واتقِ اللّه» ؟ أم يؤخذ عليه أنه تزوج زينب زواجا شرعيا بعد أن طلقها زوجها بملء إرادته وحريته ؟ ألا يرى القارئ أن الأمر كله عراك فى غير معترك ، وأن ما يتقوله المستشرقون إنما هو ضجة فارغة ، وأن الآية محل النقاش ليست إلا وحيا إلهيا نزل يأمر الرسول عليه الصلاة والسلام بأن يكون أول من يطبق على نفسه التشريع الجديد؟

ومن دلائل صدقه عليه السلام فى دعوته أنه كان أول الناس وأشدهم التزاما بمبادئ الإسلام عقيدة وعبادة وتشريعا . إن إيمانه بربه وشعوره بقدرته وعظمته ومجده ورحمته ونعمه وأنه محاسب عباده يوم القيامة على ما اقترفت أيديهم من خير أو شر كان يُفْعِم عقله وقلبه وضميره ، وينبجس دائما على لسانه فى كل ساعة . لقد كان يدعو دائما ربه فى كل وقت وفى كل مناسبة : فهو إذا استيقظ دعاه سبحانه بما يدل على تقديره نعمة الحياة ليوم جديد ،

= السلام وعرض عليه أن يفارقها ، فهتف به : « أرابك منها شىء ؟ » ، فقال له: «لا والله يا رسول الله ما رابنى منها شىء ولا رأيت إلا خيرا ، ولكنها تتعظم على لشرفها وتؤذينى »، فقال له الرسول : « اتق الله وأمسك عليك زوجك » ، فأمسكها زيد ، ولكن تعاظمها عليه اشتد حتى نفد صبره فطلقها ... إلخ . فانظر الفرّق وافهم السبب فى هذا التحريف . وأصل الرواية ، كما ترى ، يؤكد ما قلناه قبلا من أن زيدا لم يكن ليجرؤ على أن يعرض على الرسول الزواج من زينب .

وإذا أخلد إلى فراشه دعاه عز وجل دعوة المطمئن إليه المسلم له نفسه وكل كيانه . وهو إذا هطل المطر دعا ، وإذا كسفت الشمس أو خسف القمر صلى ودعا ، وإذا أجدبت السماء صلى ودعا ، وإذا سافر ابتهل إلى ربه ، وإذا عاد رفع صوته بالحمد والشكران ، وإذا حجَّ لبَّى ورددت تلبيتَه الجبالُ والفجاج والوهاد . وهو لا ينسى ربه ولا يكف لسانه عن اللهج بذكره فى سلم أو حرب . وهو يدعو للموتى ويدعو للأحياء فى ضوء النهار وفى جوف الليل . لقد كان عليه الصلاة والسلام إذا ركب دابته هتف « سُبْحان الذى سخر لنا هذا ، وما كُنَّا له مُقْرِنين ، وإنا إلى ربِّنا لمنقلبون . اللهم إنَّا نسألك فى سفرنا هذا البِرَّ والتقوى ، ومن العمل ما تَرْضَى . اللهم هوِّن علينا سفرنا هذا واطْوِ عنَّا بُعْده . اللهم أنت الصاحبُ فى السَّفر والخليفة فى الأهل . اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المُنْقَلَب فى المال والأهل والولد » . وإذا رجع قالهن وزاد فيهن : «آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون » (١٠٣) . وكان إذا قفل من الحج أو العمرة كبَّر ثلاثا كلما أوْفى على ثَنِيَّة أو فَدْفَد ثم قال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون . صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » (١٠٤).

---

(١٠٣) رياض الصالحين / ٢٧٦ .

(١٠٤) المرجع السابق / ٢٧٧ .

وكان إذا خاف قوما قال : « اللهم نجعلك فى نحورهم ، ونعوذ بك من شرورهم » (١٠٥). وعند لبسه ثوبا جديدا كان عليه الصلاة والسلام يقول : « اللهم لك الحمد ، أنت كسوتنيه . أسألك خيره وخير ما صنِع له ، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له » (١٠٦). وإذا أوى إلى النوم قال : « اللهم أسلمتُ نفسى إليك ، ووجهتُ وجهى إليك، وفوضتُ أمرى إليك ، وألجأت ظهرى إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منَّجَى منك إلا إليك . آمنت بكتابك الذى أنزلت ، ونبيك الذى أرسلت » (١٠٧) ، وإذا استيقظ قال : « الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا ، وإليه النشور » (١٠٨). ومن أدعيته عليه الصلاة والسلام : « اللهم إنى أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين ، وإذا أردتَ فى الناس فتنة فاقبضنى إليك غير مفتون » (١٠٩) . وكان يدعو وهو داخلٌ المرحاض أو خارج منه. وقلما قام عليه السلام من مجلس إلا ودعا قائلا : « اللهم اقسم لنا

(١٠٥) السابق / ٢٧٨ .

(١٠٦) السابق / ٢٤٢ .

(١٠٧) السابق / ٢٤٣ . وتأمل مَلِيًّا إقراره فى نهاية الدعاء بالوحى وبالرسل جميعا وهو منهم ، فهل يمكن أنْ يكون مثل هذا الرجل كاذبا ؟ أيمكن أن يكذب الإنسان حتى على نفسه فى مثل هذا الدعاء العفوى ؟

(١٠٨) السابق /٢٤٣ . وانظر كيف يربط بين النوم والموت وكذلك بين الاستيقاظ والبعث ، وهو ما يدل على امتلاء عقله وقلبه بصدق عقيدة الألوهية والنشور .

(١٠٩) الموطأ / ٢١٩/١. والتفتْ إلى خوفه عليه السلام من ربه وتعلق قلبه به وفزعه من الفتنة .

من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تُبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا . اللهم متّعنا بأسماعنا وأبصارنا ما أحييتنا ، واجعله الوارث منا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل مصيبتنا فى ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا » (١١٠) . ترى لو كان محمد كذابا أكان يعترف هكذا أنه ، وهو رسول الله الذى يتنزل عليه الوحى من السماء ، يحتاج إلى بذل الجهد للفوز بالجنة ، ويعلن خوفه من المعصية على هذا النحو ؟ وهل يمكن أن يفنى الكاذب الدجال فى ربه على هذا النحو العجيب ؟ وكان دعاؤه للمرضى : « اللهم ربَّ الناس ، أذهب اليأس واشف ، أنت الشافى ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقما » (١١١) . أما أدعيته وصلواته عند الكسوف والخسوف والاستسقاء وموت أحد الناس فمعروفة فى جميع كتب الفقه . وفى آخر لحظات حياته كان دعاؤه : « اللهم أعِنّى على غمرات الموت وسكرات الموت ، اللهم اغفر لى وارحمنى ، وألحقنى بالرفيق الأعلى » (١١٢) . فهل هذا كلام مزيف محتال ؟ أم هل

(١١٠) رياض الصالحين / ٢٤٦ .

(١١١) المرجع السابق / ٢٥٩ .

(١١٢) السابق / ٢٦١ . وفى مرضه الأخير هذا نهى بشدة عن اتخاذ قبره وثنا (الموطأ/ ١ / ١٨٥ ـ ١٨٦) .

يُقْبِل المزيف المحتال على الموت بمثل هذا التعلق بالله ، الذى يكذب عليه ويضع الوحى وينسبه إليه ؟ كذلك كان ﷺ يطلب من بعض صحابته أن يدعوا له ، كما هو الحال مثلا عندما قال لعمر بن الخطاب : « لا تنسنا من دعائك يا أخى » (١١٣) . ومن ذلك طلبه من المؤمنين أن يسألوا له الوسيلة رجاء أن تُكْتَب له (١١٤). أما القرآن فكان ربيع قلبه ، كما كان يبكى أحيانا لدى سماعه(١١٥) . وهل رؤى كاذب يبكى لسماعه كلاما يعلم فى قرارة نفسه تمام العلم أنه هو الذى زوّره ونسبه إلى الله ؟ اللهم إلا إذا قيل إنه كان عليه السلام ممثلاً بارعاً . لكن تحليل شخصيته واستقصاء دقائق حياته يبعدان عنه تماما شبهة التظاهر بالبكاء من غير تأثر حقيقى . ليس هذا فقط بل كان عليه السلام يرقِّى نفسه بالقرآن ، وعندما يأوى إلى فراشه كان يقرأ المعوذتين ويمسح بهما جسده (١١٦) .

أما بالنسبة لعبادته صلى الله عليه وسلم فقد أعلن أن الصلاة

---

(١١٣) رياض الصالحين / ١٢٧. وانظر كيف ، وهو المبشر النذير ، يعلن على أتباعه أنه بحاجة إلى دعائهم ، بما يدل على أنه لا يوجد فرق بينه وبين أى إنسان آخر فى مسألة الحساب والثواب والعقاب ، والطمع فى الجنة ورضا الله ، والخوف من عذابه وناره .

(١١٤) انظر الشوكانى / مجلد ١ / ج ٢ / ص٥٥ .

(١١٥) رياض الصالحين / ١٤٩ .

(١١٦) رياض الصالحين / ٣٧١ .

هى قرة عينه، بل كان يبكى أحيانا وهو يصلى [١١٧] . ولم يكن عليه السلام يكتفي بالمفروضة على ما فى صلاة الفجر وحدها من ترك الفراش الدافئ وبخاصة فى ليالى الشتاء واستعمال الماء البارد فى الوضوء . ويتنبه كِلِتْ إلى هذه النقطة من شخصيته فيشير إلى أنه ﷺ ظل يؤدى الصلاة حتى اللحظة الأخيرة من حياته [١١٨]. بل كانت له نوافل عند كل صلاة ، وذلك غير صلاة القيام والضحى . وكان لا يدع هذه النوافل حتى فى الحرب أو المرض أو وهو مسافر راكب حماره أو بعيره . وتأمل كيف أنه ، وقد فتحت جيوشه مكة معقل الوثنية الأعظم (مكة التى أخرجته من بيته وبلده وتآمرت على قتله وناصبته الحرب الضروس طيلة هذه الأعوام، مكة أبى سفيان وهند وأضرابهما) ، لا يزدهيه هذا النصر فينسيه ربه ولو للحظة من نهار ، بل يبادر فيصلى الضحى ثمانى ركعات، مما يدل على أنه كان موصول القلب والضمير بالله مشدودا إليه بأمراس من الإيمان لا تنقطع أبداً [١١٩]. ولم يكن يُخْرِج الزكاة فقط ، بل كان يخرج كل ما يصله من مال على كثرته ، كما كانت زوجاته

---

(١١٧) رياض الصالحين / ١٥٠ .

(١١٨) كِلِتْ / ٣٤٢ . كذلك لم يفته أن يذكر اشتهار الرسول عليه السلام بين قومه بالصدق والأمانة (ص / ٣٣٥).

(١١٩) ابن هشام / ٤ / ٤٠ .

اللائى اتُّهِم بأنه تزوجهن زواج الشهوة المغتلمة يخرجنها مضاعفة ، وذلك على عكس زوجـات الكذابين الذين يتـوسلون بالدين وبالدعوات النبيلة لاحتبال أموال الآخرين والتنعم بها خلف أسوار قصورهم المبنية من عرق الكادحين المخدوعين . وكان عليه الصلاة والسلام عندما يصوم ويتصادف أن يكون الجوُّ شديد الحرارة لا يستنكف أن يصب الماء على رأسه ، وفي هذا من التواضع والصدق ما فيه ، وإلا لتظاهر بالتحمل ليكبر فى أعين أتباعه ، شأن المنافقين، وله فيما يستطيع أن يكرعه من ماء إذا خلا بنفسه مندوحة واسعة(١٢٠) . ولست بحاجه إلى أن أشير إلى حجه ﷺ وما لقى فيه سَفَراً وحِلاً من متاعب ما كان أغناه عنها وأَقْمَنَه أن يزعم أن الله قد أعفاه منها لو أنه كان كاذبا . وكانت النية عنده هى الأساس فى هذا كله ، مما يدل أقوى الدلالة على أن مدار أمره كله هو الصدق والإيمان الصحيح لا مجرد التظاهر والتمسك بالشكليات (١٢١). وكانت زوجاته فى الصف الأول بين المطيعين لما جاء به عليه السلام . وانظر كيف أفطرت عائشة وحفصة يوما في صيام نفل لم يكن يعرف عنه شيئا فأخبرتاه تستفتيانه ، وما كانتا

---

(١٢٠) انظر فى هذا « الموطأ » / ١ / ٢٧٥ .

(١٢١) انظر مثلا الشوكانى / مجلد ١ / جـ ١ / ص ١٣١ .

بحاجة إلى ذلك لو لم يكن الإيمان قد خالط قلبيهما وغمرهما تماما . ولكنه عليه السلام رغم أخذه دائما بظاهر الأعمال كان يتشدد مع زوجاته . ومن ذلك أنه لم يسترح لتنافسهن فى الاعتكاف فى الموضع الذى علمن أنه سيعكف فيه ، إذ حدث أن رأى فى المسجد بعض الأخبية فسأل عنها فأُخبر أنها لعائشة وحفصة وزينب ، فقال ﷺ : « آلبرّ تقولون بهن ؟ » ، ثم انصرف فلم يعتكف حتى اعتكف عشرا من شوال (١٢٢) . ولو لم يكن صادقا يتضوع الصدق من كل كيانه ونواياه وأفعاله لأثنى عليهن ساعتها أمام الناس خيرا وزعم أنهن فى كل شىء نِعْمَ المثالُ المحتذَى .

وله عليه الصلاة والسلام فى هذا الباب عجائب لا تكاد تصدق : فقد سها فى صلاته بأصحابه مرة ، فلما نبهوه إلى ذلك لم يتمحّل ولم يدّع مثلا أنه لا يسهو وأن ما ظنوه سهواً إنما كان تخفيفا من الله فى هذه الصلاة بالذات لسبب أو لآخر كان بإمكانه اختراعه ، بل أقر بخطئه وعاد ليكمل الصلاة بهم (١٢٣). كما سها مرة أخرى فى صلاته ، فسجد سجدة السهو من تلقائه من غير أن ينبهه أحد(١٢٤)، وهو ما يعد اعترافا منه تلقائيا بأنه يجوز عليه

---

(١٢٢) الموطأ / ١ / ٢٩٥ .

(١٢٣) الموطأ / ١ / ١١٥ .

(١٢٤) السابق / ١ / ١١٨ .

النسيان رغم أنه رسول رب لا يضل ولا ينسى ، بل لقد قال ذلك صراحة فى إحدى المرات (١٢٥). كذلك فقد حدث أن أقيمت الصلاة ذات مرة وعُدّلت الصفوف ثم خرج النبى عليه الصلاة والسلام، فلما قام فى مصلاه ذكر أنه جُنُب فقال لأصحابه : «مكانَكم» ، ثم رجع فاغتسل ، وخرج إليهم ورأسه يقطر ماء فأمّهم فى الصلاة (١٢٦). لقد كان عليه السلام يستطيع ، لو كان نبيا مزيفا ، أن يصلى جُنُبًا ، إذْ مَن ذا الذى كان يعرف من المصلين أنه جنب ؟ لكن حرصه على أن يرجع فيغتسل أوّلا ، برغم خروجه للصلاة بالناس الذين كانوا ينتظرونه وقد أقيمت الصلاة وعُدّلت الصفوف، وبرغم ما فى ذلك من إحراجٍ ضاعفه أن فى ذلك اعترافا منه بجواز النسيان عليه حتى فى مسائل الطهارة والاستعداد للصلاة ، التى هى عماد الدين ، هو من الدلائل القاطعة على صدقه . إن مثل هذا الرجل الذى كان يسأل الله أن يرزقه لسانا صادقًا (١٢٧) لا يمكن أن يكون من الكذابين ، وإلا فليس ثمة إنسان فى الدنيا أهل للثقة إذن (١٢٨).

---

(١٢٥) السابق / ١/ ١٢١ .

(١٢٦) السابق / ١ / ٦٩ ، والشوكانى / مجلد ٢ / ج ٣ / ص ١٩٠ .

(١٢٧) الشوكانى / مجلد ١ / ج ٢ / ص ٢٩٥ .

(١٢٨) وكان عليه السلام يسأل الله أن يرزقه كلمة الحق فى كل حال (الشوكانى/ مجلد ١ / ج ٢ / ص ٢٩٦) .

ولم يكن النسيان هو العرض البشرى الوحيد الذى اعترف النبى عليه الصلاة والسلام بجوازه عليه ، فهو لم يدع يوماً أنه يعلم الغيب ولا حتى فيما يتعلق بمواقيت الصيام ، وهو العبادة الثانية فى الإسلام ، إذ غُمَّ هلالُ شوال فى إحدى السنين فصام المسلمون ومعهم الرسول ، ليأتى فى اليوم التالى من يخبرهم وهم صائمون بأن الهلال قد رُئِى البارحة فى مكان آخر فيفطر عليه السلام ويفطرون . وقد كان يستطيع ، لو كان كذاباً يدعى معرفة الغيب من السماء ، أن يشكك هذا القادم فى رؤيته ويصر على مواصلة الصيام حتى لا يقال عنه إنه لا يعرف الغيب. ذلك أن كثيراً من العرب فى ذلك الوقت كانوا يظنون أن النبوة تستلزم هذا (١٢٩). كما أكد لأصحابه أنه إذا قضى بين اثنين فإن أحدهما يمكنه ، لو أراد ، أن يخدعه بالباطل إذا كان أبرع فى القول من خصمه (١٣٠). كذلك لم يكن عليه السلام يدعى أنه يعرف مصائر الموتى، بل كان يقول عن نفسه : «والله ما أدرى وأنا رسول الله ماذا يُفْعَل بى » (١٣١) . ومثل ذلك أن عائشة حين رُمِيَتْ بما رُمِيَتْ به ، عليها رضوان الله،

---

(١٢٩) انظر الشوكانى / مجلد ٢ / ج٣ / ص ٣١٠ .

(١٣٠) انظر البخارى / ٤ / ٢٠٤ .

(١٣١) انظر البخارى / ٤ / ٢١٢ ، ٢١٥ ، حيث توجد رواية عن موت عثمان بن مظعون وشهادة إحدى النساء له بأن الله أكرمه ، مما دفع الرسول عليه السلام إلى قول ما قال .

لم يسارع الرسول عليه السلام ، وهى زوجته ويهمه ألا يلوك الناس سيرتها ، بتبرئتها ، بل انتظر حتى نزل الوحى بعد وقت يعد طويلا جدا فى تلك الظروف (١٣٢) . وكان يستطيع ، لو كان كاذبا ، أن يصنع وحيا منذ أول لحظة يُخرس به الألسنة . ويضاف إلى ذلك اعترافه بأن علمه بأمور الدنيا محدود ، برغم أنه رسول الله خالق الدنيا والآخرة . وحادثة تأبير النخل مشهورة مستفيضة . ومثلها أنه هم بالنهى عن الغيلة لولا أنه نظر إلى الروم وفارس فإذا هم يغيلون فلا يضر ذلك أولادهم فى شىء (١٣٣). ليس ذلك فقط ، بل كانت تقع له أمور لو وقعت لغيره لكتمها خوفا من أن تسىء إليه فى نظر الناس ، لكنه عليه السلام كان يصرّح بها رغم أنه لم يُؤْمَر بتبليغها لأحد . ومنها أنه زار ذات يوم قبر أمه فبكى وأبكى من حوله . إلى هنا والأمر مفهوم ، لكن الغريب أن يتطوع فيذكر لهم أنه استأذن ربه فى زيارة قبر أمه فأذن له، بينما حين استأذنه أن يستغفر لها لم يأذن . أفهذا فِعْلُ أو كلام دجال؟ (١٣٤)

ومن عجائبه فى هذا الباب ، باب الصدق ، أنه عليه الصلاة

---

(١٣٢) السابق / ٤ / ٢٧١ .

(١٣٣) الشوكانى / مجلد ٣١ / ج ٦ / ص ١٩٦ . والغيلة أن يجامع الرجل امرأته وهى مرضع أو أن تُرْضِع المرأة وهى حامل .

(١٣٤) انظر المرجع السابق / مجلد ٢ / ج ٤ / ص ١٠٩.

والسلام لم يدَّع يوما أنه قادر على الإتيان بمعجزة ، فما هو (كما كان يقول دائما في الرد على من يَتَحَدَّوْنه من المشركين أو اليهود) إلا بشر رسول . ولَرُبَّ من ينبرى قائلا : وهل كان المراد أن يدعى قدرته على صنع المعجزات حتى إذا سُئِل أن يصنع واحدةً عجز وانكشف كذبه ؟ إن دهاءه إذن لا صدقَه وإخلاصَه هو الذى منعه من مثل هذا الادعاء . وبغض النظر عن أنه لم يحاول أن يهتبل فرصة كسوف الشمس يوم موت ابنه وفلذة كبده إبراهيم مثلا ويدّعى أنها آية إلهية على مشاركة الكون له فى أحزانه (١٣٥)، فإنه عليه الصلاة والسلام كان بإمكانه أن ينكر وقوع المعجزات ممن تقدّمه من الرسل والأنبياء حتى يسوى بينهم وبينه فى هذا المجال ، وعلى من لا يصدقه أن يثبت العكس ، وهو مستحيل طبعا ، فإن هؤلاء الأنبياء والرسل كانوا قد ماتوا وشبعوا موتا منذ أحقاب متطاولة . ولا أعتقد أن أحدا يمكنه أن يعزو عدم نفيه عليه السلام وقوع المعجزات من الأنبياء السابقين إلى أن ذلك كان مقررا فى العقول والنفوس ، فإن ما كان قد رسخ فى نفوس النصارى وعقولهم من الإيمان مثلا بألوهية المسيح أو على الأقل بنوته لله وموته عليه السلام على الصليب تكفيرا عن خطيئة آدم ، وهما أساس النصرانية وبهدمهما تنهدم من قواعدها ، لم يمنعه من أن يَحْمِل على هذه العقيدة

---

(١٣٥) انظر إرفنج / ١٧٦ .

وينسفها نسفا ، مسفّها لها ولمن يتمسكون بها . ومِثْل ذلك وأشدّ منه صَنَّعه مع اليهود ومع الكفار ، فلماذا لم ينف معجزات الرسل الماضين ليغلق باب التحدى والإحراج الذى كان القوم مغرمين بفتحه ظنا منهم أنهم يفحمونه ؟ لقد اعترف عليه الصلاة والسلام بمعجزات إخوانه السابقين ، وفى نفس الوقت أكد أنه ليس إلا بشرا رسولا وأن المعجزة مهما كانت غرابتها وشدهها للعقول فإنها لا تغنى عن التأمل والنظر واستخدام العقل نعمة الله الكبرى على الإنسان . أفهذا موقف مزيف كذاب ؟ بل لقد بلغ من صدقه أنه كان يكون له فى المسألة المعروضة عليه رأى ثم ينزل الوحى بغير ذلك فيعلنه ولا يكتمه ، وفى ذلك ما فيه (١٣٦).

ومما ينبغى ذكره فى هذا السياق أنه عليه الصلاة والسلام لم تُمْسَك عليه كذبة واحدة . كيف لا وقد جعل الصدق يهدى إلى البر فالجنة ، والكذب يؤدى إلى الفجور فالنار ؟ كذلك كان يوجه أصحابه إلى توخى الدقة فى الكلام والوعود حتى إنه ، عند مبايعتهم له على السمع والطاعة ، كان يعقب على ذلك بقوله : « فيما استطعتم» (١٣٧). كما كان يحب لأصحابه إذا مدح بعضهم أحداً

---

(١٣٦) البخارى / ٣ / ١٦٢ .

(١٣٧) الموطأ / ٢ / ١٤٧ .

أن يقول : « أحسبه كذا » [١٣٨] . ويتصل بهذا كراهيته للتكلف فى العبادة [١٣٩] . وقد بلغ حبه للصدق أنه لم يجوِّز الكذب قط مهما كانت الظروف إلا فيما لا يمكن لعاقل صادق بالغا ما بلغ من تحرُّج وتأثُّم أن يدّعى أن الصدق مفضل فيه ، وذلك فى الحرب والإصلاح بين الناس وحديث الرجل امرأته والمرأة زوجها [١٤٠] . وكان عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليمات أشبه الخلق جميعا ظهرا ببطن . وقد رأينا كيف أن عائشة ، فى المرة الوحيدة التى رأته يتسم ويُلِين القول لرجل لم يكن رأيه فيه طيبا ، لم تشأ أن تدع الأمر يمر من غير استغراب واستفسار ، وهو ما يدل على أنها لم تتعود منه إلا الوضوح التام . ومن ذلك أنه عليه الصلاة والسلام قد استنكف أشد الاستنكاف أن يغمز بعينه لأحد الصحابة من حوله بعد فتح مكة ليقوم فيضرب عنق عبد الله بن سعد كاتب الوحى الخائن الهارب حين ناشده عثمان العفو عنه ، واكتفى عليه السلام بالصمت لعل أحدهم ينهض فيقتله من تلقاء نفسه جزاء خيانته ونذالته ، فلما لم يفعلوا وهبه العفو المطلوب. ولما فُتِح الموضوع بعد ذلك وعرفوا ماذا كان يدور فى نفسه عليه السلام ساعتها

---

(١٣٨) رياض الصالحين / ٤٥٢ .

(١٣٩) المرجع السابق / ٥٧ .

(١٤٠) الشوكانى / مجلد ٤ / ج ٧ / ص ٢٥٥ .

سألوه لِمَ لَمْ يغمز لهم بعينه ، فكان جوابه أن مثل هذا العمل لا يليق بالأنبياء (١٤١) .

وإن تفانيه في الصدق ونفوره القاطع من الكذب هو الذى جعله يلتفت إلى ما اضْطُرَّ إليه أبو الأنبياء إبراهيم ، عليه وعلى نبينا أفضل لصلاة والسلام ، من تجاهل للحقيقة ، وإن لم يتجاوز ذلك ثلاث مرات(١٤٢) .

ولا يحسبنَّ ظانٌّ أنه عليه السلام قد قال عن خليل الرحمن ذلك لَمْزاً له من طرْف خفى ، فقد كان صلى الله عليه وسلم لا يذكر إخوانه الأنبياء إلا بخير : ومن ذلك وصفه فى أحد ابتهالاته لربه إبراهيم عليه السلام بأنه عبد الله وخليله ونبيه ، بينما لم يصف نفسه إلا بالعبودية والنبوة فقط (١٤٣) . كما كان ينهى أن يفضله أحد على يونس بن متى عليه السلام (١٤٤). أما عن يوسف عليه السلام فكان يقول : « لو لبثتُ فى السجن ما لبث يوسف ثم أتانى الداعى لأجبت » (يشير عليه الصلاة والسلام إلى أن يوسف رفض أن يخرج من السجن إلا بعد ظهور براءته تماما خالية من أى

(١٤١) ابن هشام / ٤ / ٣٩ .

(١٤٢) انظر البخارى / ٣ / ١٥٠ ، ٢٤٠ ، ورياض الصالحين / ٤٧٣ .

(١٤٣) الموطأ / ٣ / ٨٣ .

(١٤٤) البخارى / ٣ / ١٢٨ ، ١٨٠ .

شك) (١٤٥). كذلك لما سُئل ﷺ : « أىّ الناس أكرم؟ » كان جوابه : « يوسف نبى الله ابن نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله » (١٤٦). وعن أحب صيام وصلاة إلى الله قال ﷺ إن أحب الصيام إلى الله صيام داود ، وأحب الصلاة إليه سبحانه هى صلاة داود (١٤٧). حتى موسى عليه السلام نبى اليهود ، الذين لقى سيدنا رسول الله من خبثهم وقلة أدبهم وخيانتهم ما لقى والذين كانت بينه وبينهم حروب وثارات ذحلاء رفض أن يُخَيِّره أصحابه عليه قائلا: « لا تخيّرونى على موسى ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى باطش بجانب العرش ، فلا أدرى أكان فيمن صعق فأفاق قبلى أو كان ممن استثنى الله » . وحتى يعرف القارئ عظمة هذه الشهادة ودلالتها على صدقه عليه السلام أذكر أن ذلك القول منه كان تعقيبا على مشادة وقعت بين مسلم ويهودى أقسم المسلم فيها قائلا : « والذى اصطفى محمدا على العالمين » ، فقال اليهودى بدوره : « والذى اصطفى موسى على العالمين » ، فرفع المسلم يده عند ذلك فلطم اليهودى ، فذهب هذا إلى رسول الله ﷺ فأخبره بالأمر (١٤٨) . غير أن ذلك كله لا يعنى أنه ﷺ

---

(١٤٥) المرجع السابق / ٤ / ٢١١ .

(١٤٦) رياض الصالحين / ٣٨ .

(١٤٧) الشوكانى / مجلد ٢ / ج ٣ / ص ٥٨ .

(١٤٨) انظر البخارى / ٤ / ٢٩٢ .

كان يرى نفسه ضئيلا بجانب إخوانه الأنبياء . إنما هى العظمة والثقة والتواضع ، وإلا فهو القائل إنه يرجو أن يكون أكثر الأنبياء أتباعا يوم القيامة (١٤٩) ، كما أن الشفاعة العظمى قد ادُّخِرَتْ له (١٥٠) . وعن على ، كرم الله وجهه ، أنه قال : « قال رسول الله ﷺ : أُعْطِيتُ مالم يُعْطَ أحد من الأنبياء : نُصِرْتُ بالرعب ، وأُعْطِيتُ مفاتيح الأرض ، وسُمِّيتُ أحمد ، وجُعِلَ لى التراب طهورا ، وجُعِلَتْ أمتى خير الأمم » (١٥١) . فهل رأيت دقة فى تقويم قدره وأقدار العظماء من إخوانه الأنبياء أدق من هذه ؟ إنها الموضوعية بدون شقشقة أو ادعاء .

وهذه العظمة النبوية والثقة بالنفس التى جعلته يتواضع لإخوانه الأنبياء هى هى التى جعلته يرسل الرسل والكتب إلى ملوك العالم من حوله ، هؤلاء الملوك الذين تعود زعماء العرب منذ أدهار أن ينحنوا لهم إذا دخلوا عليهم (١٥٢)، وكان أقصى ما يتطلع إليه أنظار هؤلاء الزعماء هو أن يكون الواحد منهم على دُوَيْلة تتبع

---

(١٤٩) المرجع السابق / ٤/ ٢٥٦ .

(١٥٠) انظر رياض الصالحين / ٤٧٢ ـ ٤٧٤ .

(١٥١) الشوكانى / مجلد ١ / ج ١ / ص ٢٦٢ .

(١٥٢) وقد نهى النبى أصحابه أن يعظموه كما كانت الأعجام تعظم ملوكهم ، وكان يذكّرهم دائما بأنه عبد لله مثلهم .

إمبراطورية كسرى فى الشمال الشرقى أو إمبراطورية هرقل فى الشام . أما محمد عليه الصلاة والسلام فقد حطم هذا كله تحطيما حين أرسل كتبه إلى هؤلاء الملوك يدعوهم فى عبارة موجزة حاسمة كلها ثقة بالسماء وبالدين الذى أُوحِيَ إليه وبرسالته إلى الدخول فى الإسلام ، وإلا فإنهم يتحملون وزر أتباعهم المستضعفين . وقد أخرجت كسرى عن طَوْره هذه الجرأةُ التى سولت لمحمد أن يضع اسمه قبل اسمه هو الإمبراطور الجبار ، فمزق الكتاب وأرسل إلى عامله على اليمن أن يأتيه برأس محمد (١٥٣) ، وهو ما يدل على خطورة الخطوة التى خطاها الرسول والتى لا يمكن تفسيرها إلا بأنه رسول موحى إليه من السماء ، وإلا ما فكر مجرد تفكير فى إرسال خطاب إلى كسرى أو هرقل أو مقوقس مصر ولو لعرض خدماته عليهم (١٥٤) .

على أن ثمة مقياسا نفسيا آخر يقاس به صدقه عليه أفضل الصلاة والسلام وأمانته هو أنه لم ينقلب قط على أحدٍ من أصحابه ، وكذلك لم ينتقض واحد من أصدقائه عليه ولم يتنكر له أو يغير رأيه فيه ولو بعد وفاته عليه السلام بعشرات السنين . إن من المستحيل أن

---

(١٥٣) ابن هشام / ١ /٦٢ ـ ٦٣ ، وإرفنج / ١٣٢ .

(١٥٤) انظر تعليق كارلايل فى كتابه « الأبطال » (ترجمة محمد السباعى) / ٢ / ٩٢ .

يحتفظ كاذب مخادع بمثل هذه الصداقات النادرة المتنوعة كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاوية وأبىّ وخالد وعمرو وأبى موسى الأشعرى وأبى ذر وأبى هريرة ومئات غيرهم من الذين عاشوا على مقربة منه واستحقوا أن نقول عنهم إنهم أصحابه (أصحابه بمعنى « أصدقائه » ، لا بالمعنى الاصطلاحي للكلمة ، فهذه تشمل عشرات الألوف). إننا نرى الحاكم أو الزعيم من هؤلاء في الماضي أو فى الحاضر لا يكاد أحيانا يمر يوم عليه من غير أن تسوء العلاقة بينه وبين هذا أو ذاك ممن وقفوا معه وآزروه وأَتَوْا به إلى الحكم فينقلب أحدهما على الآخر ، أما مع محمد فالأمر مختلف تمام الاختلاف . ومثل هذا الصِّدّيق لا يمكن أن يكون مزورا كذابا (١٥٥) .

وما قيل عن أصدقائه يقال عن زوجاته ، فقد كان رفيقا معهن جمعاوات ، وكُنَّ من جانبهن يحببنه حبا جمّا ويَغَرْن عليه ، وبالذات عائشة ، التي كانت أصغرهن سنا والعذراء الوحيدة بينهن. كما كن من أشد أتباعه تمسكا بالدين عبادة وأخلاقا وكرما ورفقا بالمساكين ، سواء في حياته أو بعد مماته ﷺ . أو ليس عجيبا أن يحظى بحبهن كلهن على هذا النحو رغم أنهن كن في وقت من

---

(١٥٥) وانظر إلى توصيته بالأنصار خيرا وهو فى مرضه الأخير (ابن هشام / ٤ / ٢١٩) .

الأوقات تسعا، ورغم اختلافهن سناً وبيئة وشكلا ودينا ؟ ترى لو كان كاذبا مخاتلا أفما كُنَّ أو كان بعضهن على الأقل سيلحظن ذلك ؟ وعندئذ أوَما كُنَّ سيتمردن عليه أو تتناثر من أفواههن بعض الكلمات هنا أو ههنا يعبِّرن بها عن ارتيابهن فيه ولو بعد وفاته، وبخاصة أنهن كن ضرائر؟ لقد بلغ من حبهن له أن رفضن جميعهن رفضا باتا أن يطلقهن عليه السلام حين عرض عليهن ذلك إثر مطالبتهن له بأن تكون حياتهن معه أرفه قليلا . وكلنا يعرف كيف كان تقشف حياة الرسول ! وبلغ من حب أم حبيبة له، عليها رضوان الله ، أنها ربَأَتْ بفراشه عليه السلام أن يجلس عليه أبوها أبو سفيان ، الذى لم تكن رأته منذ أعوام بعد غربة طويلة فى بلاد النجاشى وموت زوجها الأول فى المهجر ، فطوت الفراش عنه وجبهته بالحقيقة حين حاول أن يخدع نفسه بأنها إنما ربأت به هو أن يجلس عليه (١٥٦) . وأعجب من ذلك أنه عليه السلام لم يكن شابا ولا كانت حياته فى بيته ، كما قدمنا ، لينة بله مترفة (١٥٧).

---

(١٥٦) ابن هشام / ٤ / ٢٧ .

(١٥٧) قارن ذلك بصفية بنت حُيَىّ ، إذ لم تأسف ولو بكلمة على زوجها ، الذى أمر الرسول بقتله ، وكأنه لم يكن لها زوجا ، رغم أنه كان من سادة قومه ورغم غناه وترفه وشبابه (الشوكانى / مجلد ٤ / ج ٨ / ص ٥١) . وقارن أيضا بهند زوجة أبى سفيان ، فقد استقبلته يوم الفتح أسوأ استقبال وأهانته بالكلام المسموم حينما أقبل من عند الرسول يطلب من أهل مكة عدم التصدى =

ثم تأتى عجيبة العجائب ! لقد نزل الوحى يحرّم الزواج على هؤلاء الزوجات جمعاوات إلى الأبد ، ومعظمهن شوابٌّ ، فلم تنبس واحدة منهن ببنت شفة تذمرا . ثم مات الرسول عليه الصلاة والسلام بعد ذلك بقليل فلم تفلت من فم واحدة منهن ولو عفوا كلمةٌ تنفّس بها عن ضيقها من هذا الحرمان الذى كتب عليها إلى آخر حياتها . لو أن الرسول مات وهو شاب لقلنا : لقد امتثلن لهذا التحريم وفاءً لشبابه الذى اغتُضِر ! لو أنهن عشن معه عيشة مترفة لقلنا : إنهن سيعشن ما بقى لهن من عمر على ذكرى الأيام الناعمة ! لو أنهن أنجبن منه لقلنا : إنهن سيخصصن حياتهن الباقية لتربية الأولاد ، وسوف يجدن فى إغداق الحنان عليهم تعويضاً عن فقدان الزوج ! لو أنه ورثهن مالا عريضا لقلنا : لقد جعلن من هذا المال سلوتهن ! لكن شيئا من ذلك لم يكن . وقد عشن جميعهن بعده عليه السلام ماعدا زينب أم المساكين رضى الله عنها ، وبعضهن امتدت حياتهن بعده عشرات السنين ، مثل عائشة ، التى ظلت على قيد الحياة بعده تسعة وأربعين عاما (١٥٨)، وصفية ، التى ماتت فى خلافة معاوية بعد أن عاشت بعده أربعين عاما (١٥٩)، وميمونة ،

= لجيش محمد (ابن هشام / ٤ / ٣٤) ، وكذلك زوجة الأسود العنسى ، التى انقلبت عليه ، وساعدت المسلمين على التخلص منه (إرفنج / ١٨٢) .

(١٥٨) انظر « تأويل مختلف الحديث » لابن قتيبة / ٣٨ .

(١٥٩) د. هيكل / ٣٩٢، وإرفنج / ١٣١ . ولاحظ أنها كانت يهودية قبل أن تسلم، كما كانت بنت سيد قومها حُيَيّ بن أخطب ، فكانت جديرة أن تكشف =

التى لاقت ربها سنة ٦٣ أو ٦٦ هـ (١٦٠) ، فلم تُسْمَع عن واحدة منهن ولو همسة ريبة ، فهل يُعْقَل أن يلتزمن كلهن بهذا التشريع المقصور عليهن وحدهن من بين نساء المسلمين جمعاوات لو أنهن ارتبن فى محمد ذرة من ارتياب ؟ أيرضين أن يحرمن أنفسهن هذا الحرمان القاسى الذى امتد فى حالة عدد منهن عشرات السنين ، وقد كان معظمهن (كما قلت) شابات حين تأيَّمْنَ ، لمجرد تشريع اخترعه زوج كذاب فلا يتخذن العشاق (١٦١) أو على الأقل يهربن إلى خارج البلاد ؟ ولهن فى جبلة بن الأيهم حين هرب من العقوبة إلى بلاد الروم وتنصّر هناك أسوة . ولا شك أن ملوك البلاد التى حول جزيرة العرب كانوا سيرحبون بهن كل الترحيب ، إن لم يكن من أجل شىء فمن أجل استغلالهن فى الدعاية ضد الدين الجديد الذى ابتدأ يهدد عروشهم (١٦٢) .

= كذب محمد بسهولة لو أنه كان عليه السلام كاذبا ، وبخاصة أنه تزوجها بعد أن أمر بقتل زوجها (ابن هشام / ٣ / ٢١٧ ، ٢١٩) . وكانت قد وقعت فى نصيب أحد المسلمين من سبى خيبر ، فأعتقها رسول الله وتزوجها .

(١٦٠) ابن هشام / ٤ / ٦ بالهامش .

(١٦١) وكان باستطاعة عائشة حينئذ أن تستغل وجود أبيها على قمة السلطة فى الدولة الجديدة بوصفه الخليفة فتفعل ما يحلو لها . كما كانت حفصة تستطيع نفس الشىء فى عهد أبيها ، الذى تولى الخلافة بعد وفاة الرسول (زوجها) بسنتين ، وبقى فيها عشرة أعوام .

(١٦٢) انظر مثلا كيف سارع ملك غسان فأرسل إلى كعب بن مالك ، حين علم بغضب الرسول عليه لتخلفه عن غزوة تبوك ومقاطعة المسلمين له ، كتابا =

والآن بعد أثبتنا أن محمدا ﷺ لا يمكن أبداً أن يكون كاذبا ، وبعد التحليلات التاريخية والنفسية المطولة والمفصلة التى أثبتنا بها ذلك على نحو قاطع لا يحتمل لجاجة ولا ترددا ، فإننا سوف نعدّ ما مرّ كله كأنه لم يكن ، وسنقلب الورقة على وجهها الثانى لنرى إن صحت التهمة ، وهذا مستحيل ، كيف ألف محمد قرآنه المزيف ومن أين استقاه ، ومن الذين أعانوه . ألم يتّهم عليه الصلاة والسلام من أعـدائه منذ أن دعا إلى دين الله حتى الآن بأنه أخذه عن قوم آخرين ؟

= فى شقة من الحرير يدعوه فيه إلى اللحاق به ليكرمه ويواسيه (ابن هشام / ٤/ ١٣٢) . إن هذا الموقف من زوجات الرسول لدليل على كـذب مـا لاكـه المنافقون وكثير من المستشرقين عن عائشة عليها رضوان الله ، فقد عاشت تسعة وأربعين عاما بعد الرسول ، وكانت فى عز شبابها حين وفاته ، فلم يؤخذ عليها أدنى شيء ، ولدليل أيضا على كذب ما قيل عن زينب بنت جحش من أنها ما كادت تسمع تمتمات الرسول وهو منصرف عنها حتى انقلبت على زوجها ونغصت عليه عيشه لتتزوج محمدا المعجب بها ، إذ إن من تتصرف هكذا لا يمكن أن تصبر على الحرمان من الرجل والولد معا فى هذا العمر عشر سنوات، وهى المدة التى عاشتها بعد وفاة الرسول . وهذه شهادة اثنتين من ضرائرها فيها : قالت عائشة : « لم تكن امرأة خيرا منها فى الدين ، وأتقى لله تعالى ، وأصدق حديثا ، وأوصل للرحم ، وأعظم صدقة » ، وقالت أم سلمة : « كانت صالحة، صوامـة قوامة ، تعمـل بيديهـا وتتصدق بذلك كله علـى المسلميـن ». انظـر « القاموس الإسلامى » لأحمد عطية الله (مادة « زينب بنت جحش ») .

لقد اتهمه كفار مكة بأنه إنما يعلمه بشر ، وأن الوحي ما هو إلا أساطير الأولين اكتتبها (١٦٣) . فأما التهمة الأولى فإن القرآن يدحضها على أساس أن ذلك المعلِّم المزعوم كان أعجمى اللسان ، إذ لم يكن يستطيع من العربية إلا ما يقوم بحاجاته العامة ، ومن ثم فمظنة مناقشته والأخذ والرد معه من قِبَل الرسول عليه السلام مستحيلة (١٦٤) . ولو كان رد القرآن على هذه التهمة غير صحيح لما سكت الكفار عليه بل فنّدوه ، وعندئذ كان القرآن سيسجل التفنيد ويرد عليه بدوره كما هى عادة الوحى ، فما من شىء رمى الكفار أو غيرهم من أعداء الإسلام الرسولَ به إلا حفظته آياته ، لم يشذ أى شىء عن هذا . كذلك فإن الملاحظ أن الكفار لم يحددوا شيئا بعينه فى القرآن قد تعلمه من هؤلاء ، وإنما هو كلام عام عليه مسحة الرغبة في التشويش على الدعوة الجديدة ورسولها عليه السلام. وإن الذى عنده دليل لا يكتفى أبدا بمثل هذه التهمة ، بل يقصد قصدا إلى التحديد ، ويأتى بالشهود ، ويعين الزمان والمكان

(١٦٣) النحل / ١٠٣ ، والفرقان / ٤ ـ ٥ .

(١٦٤) انظر مثلا تفسير ابن كثير والزمخشرى والبيضاوى للآية / ١٠٣ من سورة «النحل» : « وقالوا إنما يُعلِّمه بَشَر . لسان الذى يُلْحدون إليه أعجميٌ ، وهذا لسان عربىٌ مُبين » . وانظر كذلك تفسيرهما للآية / ٤ من سورة « الفرقان » : «وقال الذين كفروا : إنْ هذا إلا إفْكٌ افتراه وأعانه عليه قَوْمٌ آخَرون » . ومن الواضح أن القرآن لم يبال فى البداية بالرد على هذه التهمة ، فلما لجّ الكفار فيها فندها وبين عُوارها فى سورة « النحل » ، التى نزلت بعد « الفرقان » .

والظروف التى لابست الواقعة . وليس شىء من ذلك فى كلام الكفار . أما الذين قيل إن الرسول عليه السلام قد اتُّهِم بالتعلم على أيديهم فبالنسبة لمن أسلم منهم فإن إسلامه دليل على كذب هذه التهمة ، إذ لا يعقل أن يتابع الأستاذُ تلميذَه فيما علمه إياه ويكتم الحقيقة بلا أى سبب ، فإن رسول الله فى ذلك الوقت لم يكن يملك لغيره رغبة ولا رهبة (١٦٥) . أما من لم يسلم فلماذا سكت فلم يفضح محمدا هذا الذى تعلم عليه ما تعلم ثم انقلب فادعى أنه نبى وخطأ دين أستاذه ؟ وذلك كله على فرض أنه كانت هناك وسيلة اتصال لغوية كافية لتأدية مهمة التعليم المزعومة هذه ، وهو افتراض مستحيل كما سبق أن بينّا .

أما الاتهام الثانى فإن الملاحظ أن القرآن لا يقف عنده بل يكتفى بوسمه بالظلم والزور ، مؤكدا أن الوحى منزل من عند الله(١٦٦) . أيا ما كان الأمر فلو كان هذا الاتهام صحيحا لردده

---

(١٦٥) انظر المراجع السابقة .

(١٦٦) الفرقان / ٤ . والمقصود بـ « اكتتبها » هنا أنه « أمر من يكتبها له » . وللفعل معنى آخر ، وهو « كتبها بنفسه » ، وليس هو المراد هنا ، وإلا لكان رد القرآن أنه عليه السلام أمىّ . وقد استعمل ابن اسحاق هذا الفعل فى معناه الأول عند حديثه عن وفود ثقيف على رسول الله سنة تسع ، إذ قال : «اكتتبوا كتابهم» أى كتبوا اتفاقية بينهم وبين رسول الله عليه السلام ، لأنه قد نص بنفسه على أن الكاتب كان خالد بن سعيد بن العاص ، وهو من صحابة النبى (انظر ابن هشام / ٤ / ١٣٧) .

عبيد الله بن جحش (الذى تنصر فى الحبشة بعد إسلامه)هو ورسولا قريش على مسامع النجاشى حين ذهب هذان لتأليبه على المسلمين المهاجرين لديه ، أو لردّده أبو سفيان ومن معه أمام هرقل حين سألهم عن محمد وعن صفاته . وقد كانت هاتان فرصتين ثمينتين للدعاية ضد دعوة محمد . بيد أن قريشا كانت تعرف أنها تكذب وتتقول رغبة منها فى التشويش بالباطل على دعوة الإسلام ، وإلا فإذا كانوا صادقين فلِمَ آمنوا بمحمد بعد ذلك وحاربوا أعداء دينه ولم نسمع أحدا منهم بعدها قط يردد هذه التهمة القديمة ولو من باب استعادة الذكريات ؟ وهنا نقطة مهمة ، فإن المستشرقين يزعمون أن الرسول عليه السلام كان يستطيع القراءة والكتابة . وهم يريدون من وراء ذلك أنه كان يقرأ الكتب السماوية السابقة وما إلى ذلك ، وأنه قد تعلم منها . وهو مزْعم متهافت ، فإن القرآن قد وصفه فى موضع بـ « النبى الأمى » (١٦٧). كما أكد فى موضع آخر أنه لم يكن يتلو قبل نزول القرآن عليه من كتاب أو يخطه بيمينه (١٦٨). ولو كان كلام القرآن غير صحيح لما سكت الكفار ، ولسجل القرآن نفسه كالعادة ردهم عليه . إن ألفريد جيوم مثلا يشكك فى أمية النبى عليه الصلاة والسلام ، وحجته أن من غير المعقول أنه كان

---

(١٦٧) الأعراف / ١٥٧ .

(١٦٨) العنكبوت / ٤٨ .

يطمئن إلى أحد غيره فى قراءة الفواتير أيام اشتغاله بالتجارة ، أو فى قراءة ما يرد إليه من رسائل بعد ذلك عندما أصبح نبيا . كما أن إحدى الروايات المبكّرة تعزو إليه الكتابة يوم صلح الحديبية . وهو يفسر آية « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطُّه بيمينك » بأن المقصود بذلك هو كتب اليهود والنصارى ، وأن أميته (إن صح ما تقوله هذه الآية) إنما استمرت إلى بداية رسالته فقط (١٦٩) .

والحقيقة أن الآية المذكورة تنفى أنه كان يقرأ أى كتاب ، فلا معنى إذن لقصر ذلك على كتب اليهود والنصارى. أما فهمه لقوله تعالى: « وما كنت تتلو من قبله من كتابٍ » بمعنى أنك ، وإن كنت قبل ذلك تجهل القراءة والكتابة ، فإنك الآن تستطيع ذلك فهو فهم غريب، إذ إن حجة القرآن بذلك تتهافت وتصبح غير ذات معنى ، لأن رد الكفار حينئذ كان سيكون كالتالى : « ما دمت تعرف الآن القراءة والكتابة فهذا معناه أنك تستطيع أن تنظر فى كتب السابقين وتنقل منها ». ولكنهم لما لم يجدوا جواباً كان ذلك دليلا على أن فهم جيوم للآية غير سليم ، وأن المقصود منها هو أنه عليه السلام كان قبل ذلك وظل بعده أميا ، وإلا فالواحد يستطيع ، على طريقة هذا المستشرق ، أن يقول إن القرآن ينفى أن يكون محمد قادرا على أن يخط شيئاً بيمينه ، ولكنه لم ينف قدرته على

(١٦٩) جيوم / ٥٦ ـ ٥٧ .

ذلك بيده الشمال ، فمحمد إذن كان يكتب ولكن بيسراه. وهو كما ترى فهم مضحك . إن الرسول عليه الصلاة والسلام قد فسر الأمية عَرَضاً أثناء حديثه عن الشهور القمرية ، إذ قال : « إنا أُمّةٌ أُمّية لا نكتب ولا نحسب . الشهر هكذا وهكذا . يعنى مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين » (١٧٠) . أما قول جيوم إن إحدى الروايات قد ذكرت أن الرسول كتب بيده فى صلح الحديبية فالرد عليه هو أن الرواية المتلقاة بالقبول هى أنه أمر بكتابة ما طلب المشركون من تعديل فى بعض ألفاظ الصلح (١٧١) . أما الرواية التى يشير إليها فهى إن صحت يكن المقصود منها هو المعنى المجازى كما هو الحال فى قولنا : «حارب السادات إسرائيل» و « بنى عبد الناصر السد العالى » وما إليه . ومثله ما ورد فى البخارى(١٧٢)من أن الرسول عليه السلام قد اتخذ خاتما من فضة ونقش فيه «محمد رسول الله» ، إذ لا يعقل أن الرسول هو الذى نقش ذلك بنفسه ، فهو لم يكن نقّاش خواتم ، بل المقصود أنه أمر بذلك. وإذا كانت الرواية التى أشار إليها جيوم قد نصت على أن الرسول كتب فعلا بيده اسمه فهذا لا يدل على معرفة بالقراءة والكتابة ، فربما كان عليه السلام

---

(١٧٠) البخارى ١/ ٣٢٧ .

(١٧١) انظر ابن هشام / ٣ / ٢٠٣ .

(١٧٢) ج ٢ / ص ١٩٥ .

يستطيع كتابة اسمه وقراءته فقط كما هو الحال بين كثير من الأميين الذين نعرفهم . على أية حال فليس من الحكمة فى شىء أن نتمسك برواية واحدة غير مشهورة ولم ترد فى المصادر الأصلية لسيرة الرسول عليه السلام ونترك كل الروايات الأصيلة المتضافرة على أنه عليه السلام كان أميا. أما استبعاده أن يطمئن النبى عليه الصلاة والسلام إلى أحد غيره يكتب له الفواتير ويقرأ له الرسائل التى ترد إليه فليس له أساس إلا مجرد الهوى ، وإلا فإن كثيرا من التجار والمقاولين فى القاهرة المعاصرة ، التى لاشك أن مستواها الحضارى والثقافى أرقى ألف مرة من مستوى مكة فى ذلك الزمان ، لا يستطيعون القراءة والكتابة ولا يمنعهم ذلك من النجاح فى تجارتهم إلى درجة أن بعضهم يصبح مع مر الأيام مليونيرا (١٧٣). لا، ليس من المعقول أن يعيش النبى ثلاثا وستين سنة فلا نسمع بواقعة محددة كتب فيها رسالة أو قرأ فيها كتابا أو حتى ورقة سوى هذه الإشارة المقتضبة إلى أنه كتب فى صلح الحديبية كلمة لم يرضَ الكاتب المسلم أن يكتبها بنفسه ، فنسارع إلى تصديق هذه الإشارة المقتضبة المغموزة ونهمل كل تلك الوقائع القاطعة .

---

(١٧٣) على أية حال فإن السيرة النبوية تذكر أن ميسرة غلام خديجة كان يصاحب الرسول فى رحلاته التجارية عندما كان يعمل عليه السلام فى أموال خديجة ، فمن الممكن جدا أن الرسول كان يشتغل بالتجارة بينما يقوم ميسرة بالكتابة .

ومما اتهم به المستشرفون نبيَّ الإسلام عليه أفضل الصلاة وأعطر السلام أنه قد تعلم أشياء من بحيرا ، بل إن بعضهم يزعم كذبا أنه عليه السلام قد سكن مع هذا الراهب أثناء إحدى رحلاته إلى الشام[١٧٤]، وهو ما يدلك على أسلوب القوم في محاربة الإسلام ، إذ السيرة واضحة تمام الوضوح هنا . وقريش نفسها ، وقد كان منها من حضر واقعة اجتماع بحيرا بالصبى محمد ، إن صحت الرواية أصلا ، لم تتهم الرسول بذلك ، فكيف يأتي الأوروبيون بعد أكثر من أربعة عشر قرنا فيتخيلون ويزعمون ؟ إن واشنجتن إرفنج يفسر اهتمام بحيرا بالصبى محمد بأنه كان يريد تنصيره حتى إذا ما رجع إلى قومه قام هو بدوره بحمل بذور النصرانية إليهم [١٧٥]. أتدرى ماذا كان عمر محمد آنذاك ؟ لقد كان عمره اثنى عشر عاما ! ومع ذلك يزعم إرفنج هذا الزعم السخيف ، وكأن لم يكن فى القافلة العربية ، التى تقول الرواية إنها حطت رحالها قريباً من صومعة بحيرا، رجال يمكن هذا الراهب أن يتوجه اليهم بدعوته . أليست هذه بالذمة « مَعْيَلَة » من بحيرا أو من إرفنج أو من كليهما ؟ لقد سفّه كارلايل احتمال أن يتعلم صبى فى هذه السن من راهب يتحدث لغة أجنبية شيئاً ذا بال[١٧٦] . ومع ذلك كله فإن السيرة لم تتحدث

(١٧٤) أبلتون / ٥١٩ .

(١٧٥) إرفنج / ٢٢ ـ ٢٥ .

(١٧٦) كارلايل / ٢ / ٦٩ .

عن أى تعليم بين بحيرا ومحمد . ثم فلنفترض أن بحيرا قد لقنه (بأية لغة ؟ لا ندرى) أشياء من النصرانية ، فأين كان بحيرا يوم ادّعى محمد أنه أتى بدين جديد يخطّئ فيه دين بحيرا ؟ أو أين من شاهد بحيرا أو سمع منه أو من غيره أن هذا النبى الجديد كان تلميذاً فى صباه لذلك الراهب ؟ لماذا لم ينبَرِ بحيرا أو غيره ليكشف زيف هذا النبى ويبين المصدر الحقيقى لما يزعم أنه وحى من السماء؟ أكانت الدولة البيزنطية أو الدويلات العربية على حدودها تسكت على محمد وعلى مزاعمه ورسائله التى أرسلها إلى هرقل وغيره من ملوك العالم المحيطين بالجزيرة العربية يدعوهم فيها إلى الإسلام فلا تحاربه أو تحارب خلفاءه بهذه الورقة؟ إن ذلك لغريب !

ولا يكتفى المستشرقون بتضخيم هذه المقابلة التى ترويها كتب السيرة بين الصبى محمد وبحيرا الراهب والتى يجعلون من حبتها قبة ضخمة تناطح السماء (١٧٧) بل يؤكدون أنه لابد أن يكون قد عرف فى رحلاته التجارية بعد ذلك إلى الشام واليمن أشياء كثيرة من اليهودية والنصرانية . وهم كعادتهم لايشيرون إلى شىء محدّد جاءت به الروايات الموثقة أو حتى غير الموثقة ، بل يكتفون بإطلاق القول على عواهنه . وفاتهم أن محمدا فى هذه الرحلات لم يكن

(١٧٧) هناك من المستشرقين من يشك فى قصة بحيرا ، كإدمون پاور (انظر چوزيف هبى / ٧٨٠) .

وحده بل كان معه مواطنون من مكة ، فلماذا لم يتحدثوا عن شيء من ذلك ؟ لقد كان ما وجهوه إليه من اتهام هو أنه كان يتعلم من بعض الرقيق الأجنبى المقيم بمكة والذى لا يستطيعُ التفاهم بالعربية إلا فى أضيق نطاق . وأين كان ميسرة من هذا كله ، وهو الذى كان ملازما له ؟ ثم ألم يتذكر فيما بعد أحد من الدولة البيزنطية أو من اليمن ممن شاهدوه واختلطوا به وتناقشوا معه فى هذه الرحلات أن هذا النبى الجديد ليس إلا ذلك التاجر الذى كان يَفد إلى بلادهم فيشترى منهم عُروض التجارة ويأخذ معها الأفكار اليهودية والنصرانية ؟ أم ترى قد طمس الله على ذاكرتهم ؟ إن اللافت للنظر أن المستشرقين لا يثّبتون على حل واحد ، فقد كانوا يقولون أولاً إن الإسلام مأخوذ من اليهودية وإلى حد ما من النصرانية ، ثم عادوا فقالوا إنه مأخوذ أساساً من نصرانية السريان ، ولكنهم مع ذلك لا يقدمون أبدا دليلا موثقا على هذا الأخذ ولايرسمون لنا الطريق الذى سلكته هذه الأفكار حتى وصلت إلى محمد ، بل هى مجرد تخمينات (١٧٨) ، مما يدل على أنهم قد عقدوا العزم منذ البداية، مثل

---

(١٧٨) انظر مثلا جب / ٣٧ ـ ٣٩ . أما تور أندريه فقد نفى أن يكون الرسول قد زار بلادا نصرانية . وحجته فى ذلك أن معرفته بالنصرانية كانت ساذجة (انظر شارل لودى / ١٠٧) . وقد رد عليه لودى بأنه ما أكثر المسلمين والنصارى الذين لا يعرفون دينهم أو دين بعضهم البعض إلا معرفة ساذجة ، ثم تتبّعَ (تخمينا) خط سير القوافل التى كان فيها محمد وما كانت تمرّ به من نصارى وكنائس=

مشركى مكة وكفار العرب بالضبط ، على تخطئة محمد والسلام.
لقد وفد على الرسول نصارى من نجران فناقشهم وأراد أن يحسم الأمر معهم فدعاهم ، لو كانوا صادقين ، إلى المباهلة ، أى أن يبتهلوا جميعا (هو وهمْ ومعهم ذووهم نساءً وأطفالا) ويجعلوا لعنة الله على الظالمين ، فنكصوا على أعقابهم ونزلوا على شروطه ولم يدخلوا معه فى هذه المباهلة ، وهو ما يوحى بخبيئة نفوسهم أيما إيحاء . ترى لِمَ لَمْ يحرجه نصارى نجران منذ البداية فيقولوا له إنهم يعرفون أنه هو ذلك التاجر الذى كان يتردد على بلادهم وكنائسهم ويتعلم على رهبانهم ويغلقوا بذلك باب المباهلة ودفع الجزية لو أن شيئاً من ذلك قد حدث ؟ (١٧٩) ثم أكان أبو عامر الراهب ، الذى كان يحقد على الرسول أشد الحقد والذى كان المنافقون يجتمعون به سرا فى المدينة ونزلت فيه آيات مسجد الضرار (١٨٠)، يدع فرصة مثل هذه تفلت من يديه هو الذى ذهب إلى هرقل يستعين به ضد محمد ودينه لو أنه نما إلى سمعه ، ولو بالباطل ، أن النبى قد تعلم فى أثناء رحلاته التجارية على أحد

= دون أن يشير إلى واقعة محددة تعلم الرسول عليه السلام فيها شيئا محددا من شخص محدد ، بناء على رواية موثقة أو حتى غير موثقة . لا شىء ! لا شىء سوى تحبير الصفحات !

(١٧٩) ابن هشام / ٢ / ٢٨ .

(١٨٠) التوبة / ١٠٧ ـ ١١٠ .

اليهود أو النصارى؟ (١٨١) واليهود : أكانوا يتركونه لو شَمُّوا من بعيد أنه سرق شيئاً من كتبهم عن أى طريق ؟ لقد كانوا يلقنون كفار مكة أسئلة يتَحَدَّوْنه بها عن الروح وأهل الكهف وذى القرنين(١٨٢) ، وهو دليل قاطع على أنهم لم يشكّوا فيه من هذه الناحية . ذلك أن اليهود كانوا مشهورين بأنهم يَضنّون بما عندهم من العلم ، ومن ثَمَّ نراهم يحتكمون إلى محمد فى زنا اثنين منهم ، وكانوا يريدونه ألا يرجمهما . فلو كانوا يشتبهون فى أنه على علم بالتوراة لما احتكموا إليه مخافة أن يحكم بالرجم الموجود فى التوراة. بل إنه حينما سألهم عما فى التوراة فأنكروه وأمر بإحضارها وضع قارئهم يديه على حكم الرجم ، ظنا من عقله السخيف أن ذلك سيعمى محمدا عليه السلام والمسلمين من حوله عما تحت هذه اليد النجسة(١٨٣) . كما لم تكن التوراة حتى ذلك الحين على

---

(١٨١) انظر قصته فى ابن هشام / ٢ / ١٦٦ ـ ١٦٧ ، و ٣ / ١٩ . ومما يدل على كذبه هو لا كذب النبى عليه السلام أن ابنه حنظلة كان مسلماً قوى الإسلام ، وكان أحد المدافعين عن المدينة يوم أحد ، واستُشهد رضى الله عنه فى ذلك اليوم . ترى ما الذى جعله ينحاز إلى محمد ضد أبيه ، ولم يكن الإسلام قد قَوِىَ آنذاك بعدُ حتى يقال إنه أسلم رغبة أو رهبة ؟ انظر فى استشهاده ابن هشام/ ٣ / ٢٥ .

(١٨٢) المرجع السابق / ١ / ٢٦٥ ـ ٢٦٦ .

(١٨٣) السابق / ٢ / ١٥٤ .

الأقل قد ترجمت إلى العربية . وفى البخارى أن اليهود فى المدينة كانوا يقرأون التوراة بالعبرية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام (١٨٤) .

والآن بعد أن طوّفنا مع المستشرقين شمال وجنوب الجزيرة العربية وفى جنوب بلاد الروم ووجدنا أنه ما من دليل واحد على أن النبى قد تعلم من يهودى أو نصرانى شيئا انتفع به فى تأليف دينه وتلفيق الوحى الذى كان يزعم ، بناء على اتهامات هؤلاء المستشرقين، أنه يتنزل عليه من السماء نعود إلى مكة لنناقش اتهامهم له عليه أفضل الصلوات وأعطر التسليمات بأنه قد تعلم من ورقة بن نوفل (١٨٥) . ويكتفى إرفنج هنا بترديد القول بأنه عليه السلام أخذ أشياء كثيره مما ترجمه ورقة من العهدين القديم والجديد ومن مرويات المشنا والتلمود وضَمَّنَها قرآنه . ومع خطورة هذا الاتهام فإنه لا يسوق عليه دليلا واحدا ، بل كل ما عنده هو أن المفترض

---

(١٨٤) البخارى / ٤ / ٢٧٠ . ولم يكن اليهود يفسرون توراتهم بالعربية للمسلمين ليثقفوهم ويعطوهم الفرصة كى يسرقوا أفكارهم وينقلوها لرسولهم فيدعى أنها وحى سماوى ، بل ليشوشوا على المسلمين أمر دينهم كما يتضح من بقية الحديث . بل إنهم كانوا يتكاتبون مع النبى بالعربية ، ولذلك أمر الرسول عليه الصلاة والسلام زيد بن ثابت أن يتعلم العبرية ليكتب إليهم ما يريد الرسول ويقرأ له ما يرد من رسائلهم (البخارى / ٤ / ٢٤٤) .

(١٨٥) سنتحدث عن ورقة بن نوفل ثانية فيما بعد بوصفه واحدا من الحنفاء. أما هنا فقد ألحقناه بأهل الكتاب ، الذين اتُهِم النبى عليه السلام بأنه تعلم عليهم وأخذ عنهم . ذلك أن ورقة كان نصرانيا قبل البعثة النبوية .

حدوث ذلك [١٨٦] .

ومثله كلِت ، الذى يقول إن من الممكن أن يكون ورقة قد قص على محمد بعض الروايات النصرانية [١٨٧] ، وإن ما ورد فى إحدى السور (يقصد سورة مريم)عن السنوات الأولى من حياة المسيح عليه السلام ربما أُخِذ منه [١٨٨]. فها أنت ذا ترى أن الأمر لايعدو « من الممكن » و « ربما » [١٨٩] .

هذا كل ما قاله المستشرقون عن ورقة بن نوفل وتأثيره المزعوم فى النبى والوحى . والحقيقة أن ورقة لم يظهر فى كتب السيرة والتاريخ إلا بعد أن نزل الوحى عليه صلى الله عليه وسلم ، أما قبل

(١٨٦) إرفنج / ١٠ .

(١٨٧) كلت / ٣٣٦ .

(١٨٨) المرجع السابق / ٣٥١ .

(١٨٩) وعلى عكس ذلك فإنه يذكر أن القرآن قد صرح بأخذ بعض قصص العهد القديم من صحف إبراهيم وموسى (ص / ٣٥٠ ـ ٣٥١)، مع أن كل ما قاله القرآن هو أن ما جاء فى سورة « الأعلى » موجود فى صحف إبراهيم وموسى . وهذا طبعا شىء ، وتصريح القرآن بالأخذ عن هذه الصحف شىء آخر ، وإلا فأين كانت صحف إبراهيم فى ذلك الوقت ؟ بل أين هى حتى الآن ؟ علاوة على أن القرآن هنا يشير إلى الجنة والنار وما يؤدى إليهما من عمل صالح أو عمل سيئ ، فليس فى الأمر قصص ولا أبطال من العهد القديم كما يزعم الكاتب . أما تفسير القرآن لذلك التوافق بين ما جاء فيه وما هو موجود فى الكتب السماوية السابقة فهو أنها جميعا من عند الله .

ذلك فلا (١٩٠). ومن المستحيل أن يكون المؤرخون والمحدّثون وكُتّاب السيرة المسلمون قد حذفوا من حياة ورقة وعلاقته بالنبى ما يمكن أن يثير الشك فى مصادر النص القرآنى ، إذ لم يكن ديدنهم التحرج من رواية أى شيء يتعلق بسيرة المصطفى عليه السلام قط. وإليك تعليق ورقة عندما أتته خديجة ليبدى رأيه فيما شاهده النبى وسمعه عند غار حراء . قال : « قُدُّوسٌ قُدُّوس . والذى نفس ورقة بيده لئن كنتِ صدَقْتنى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى، وإنه لنبى هذه الأمة ، فقُولى له : فليثبت » (١٩١)، وهو ما يدل على أن ورقة قد صدّق بنبوة محمد ودخل فى الإسلام . ومما يدل أيضا على أن ذلك لم يكن مجاملة فارغة أو حماسة طارئة منه، رضى الله عنه ، أنه كان يمر بعد ذلك ببلال وهو يقاسى وطأة التعذيب الفاجر ويصيح : « أحَدٌ أحَد » فيؤمن على صياح بلال

(١٩٠) يذكر توماس هيوز فى "The Dictionary of Islam" (مادة "Hanif") أن ورقة هو ابن عم الرسول (أو ابن خاله أو عمته أو خالته : his cousin) ، وهذا غير صحيح ، فقد كان ابن عم خديجة ، التى لم يتصل بها الرسول إلا حينما كبر ونضج للزواج . أما ورقة نفسه فلم يظهر فى سيرته عليه السلام إلا بعد نزول الوحى عليه كما سيأتى .

(١٩١) ابن هشام / ١ / ٢٢٢ . وفى البخارى (٤/ ٢٠٨) مثل هذا ، ولكن يزيد عليه أن ورقة قال له : « ياليتنى فيها جذعا أكون حيا حين يخرجك قومك »، فقال رسول الله ﷺ : « أوَمُخرِجِىَّ هم ؟ » ، فقال ورقة : «نعم ، لم يأت رجل قطّ بما جئت به إلا عُودِى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا » .

قائلاً : « أَحَدٌ أَحَدٌ والله يا بلال ! » ، ثم يقبل على أمية بن خلف ومن يصنع ذلك به من بنى جُمَح فيـقـول : « أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذنّه حنانًا » أى لأتبركنّ بقبره [١٩٢] .

أما عن دين ورقة وثقافته فيقول ابن اسحاق : « وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتب ، وسمع من أهل التوراة والإنجيل » [١٩٣]. لكن أية كتب هذه ؟ وبأية لغة كان يقرؤها ؟ ذلك ما لم يوضحه ابن إسحاق . أما البخارى فإنه مرة يورد رواية مُفَادها أن ورقة كان يكتب الكتاب العربى وكان يكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب[١٩٤] ، ومرة يورد رواية ثانية تقول إنه يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب[١٩٥] . فأين الحقيقة بين الروايتين ؟ علم ذلك عند الله ، وإن كان مالك بن نبى يرى أنه لو كانت الفكرة اليهودية والنصرانية قد تغلغلت حقا فى الثقافة والبيئة الجاهلية فإن من غير المفهوم ألا توجد ترجمة عربية

---

(١٩٢) انظر ابن هشام / ١ / ٢٧٧ ـ ٢٧٨ . ومع هذا كله فـإن إدمـون پاور (چوزيف هبى / ٧٨٢) يزعم أن ورقة لم يجد سببا لترك النصرانية واعتناق الإسلام . وهو يسوق هذا الرأى بدون أوهى دليل .

(١٩٣) ابن هشام / ١ / ٢٢٢ .

(١٩٤) البخارى / ٤١ / ٢٠٨. وانظر أيضا / ٢ / ٢٤٣ .

(١٩٥) المرجع السابق / ١ / ٧ . والملاحظ أن عبارة الروايتين متطابقة تقريبا إلا فى تعيين اللغة التى كان يكتب بها .

للكتاب المقدس . كما يؤكد أنه حتى القرن الرابع الهجرى لم تكن قد وضعت للإنجيل ترجمة عربية (١٩٦) . أيا ما يكن الأمر فإن الثابت تاريخيا هو أن ورقة قد صدّق بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم . فإذا لاحظنا أنه كان فى ذلك الوقت شيخا طاعنا فى السن أدركنا قيمة شهادته ، إذ كان من الصعب على شيخ مكى فى ذلك الحين أن يتقبل فكرة أو عقيدة جديدة . كذلك ينبغى ألا يغيب عن بالنا أن محمداً كان أصغر كثيرا من ورقة ولا يملك فى يده فى ذلك الوقت أى سلطان . ومعنى هذا أن إيمان ورقة به كان إيمانـًا صادقا خاليا من الغرض ، وإذن فمن المضحك أن نظن بعد ذلك كله أن محمدا كان يتعلم منه ، وأنه هو قد سكت عن هذا ، بَلْهَ قد

(١٩٦) مالك بن نبى / الظاهرة القرآنية /٢٥٤ . وأنا ، وإن كنت لا أستطيع القطع فى هذا الأمر ، فإنى أميل إلى أن الأجزاء التى كتبها ورقة من الإنجيل كانت بالعبرية ، وإلا لذاعت بين الحنفاء والمهتمين بالقضية الدينية ممن يعرفون القراءة والكتابة فى مكة وما حولها . ولعل هذا هو السبب فى أننا لم نعرف ماذا كان مصيرها بعد موته . أما العهد القديم فقد رأينا أن يهود يثرب كانوا يقرأونه فى العبرية بعد أن هاجر الرسول إلى تلك المدينة . كما رأينا أن الأجانب الذين كانوا بمكة واتهم القرشيون الرسول بأنه يتعلم منهم كانوا لا يعرفون من العربية إلا ألفاظا محدودة . وفى تفسير ابن كثير أن اثنين ممن قيل إنهم اتهموه بالتلقى عنهم كانا يقرآن كتابا لهما بلغتهما ، وذلك من غير تعيين هذا الكتاب أو تحديد هذه اللغة . انظر تفسير ابن كثير للآية / ١٠٣ من سورة « النحل » .

آمن به واتبعه ووقف من معذبى أتباعه موقف الرافض لما يفعلون .

وكعادتنا سوف ننسى ما مر ونتجاهل تفاهة وتهافت هذه الاتهامات التى فندناها تماما بالاستناد إلى الروايات التاريخية الموثقة بعد عرضها على ضوء المنطق الإنسانى العام ووضعها تحت مجهر التحليل النفسى والاجتماعى للبيئة والأشخاص والرسول على وجه خاص ، سوف ننسى هذا كله ونمضى مع المستشرقين إلى نهاية الشوط لنرى ما هم قائلون . إن جب مثلا يعدد ما أخذه الرسول من اليهود بعدما هاجر إلى يثرب ، فيذكر صيام عاشوراء وصلاة الظهر واستقبال بيت المقدس (١٩٧) . ولنبدأ بآخر شيء ذكراً فنقول إننا قد ناقشنا هذه النقطة من قبل ، وخلاصة ما قلناه هناك إنه عليه الصلاة والسلام كان يصلى إلى هذه القبلة قبل الهجرة ولكنه كان يجعل الكعبة بينه وبينها ، أى أنه كان يستقبل القبلتين . فلما هاجر إلى المدينة استحال عليه أن يجمع بينهما ، فاستقبل بيت المقدس لفترة ، ثم نزل الوحى الإلهى بالتحول إلى الكعبة . وقد عرض اليهود عليه أن يعود إلى قبلة بيت المقدس ويتبعوه ، وهو ما يبين التواءهم وخبثهم، فالصادق فى التمسك بدينه لا يعرض مثل هذا العرض . لكنه عليه السلام قد رفض ذلك . أما الزعم بأنه تحول إلى الكعبة

---

(١٩٧) جب / ٤٤ .

بعد أن يئس من اليهود فهو زعم أعرج ، إذ إنه عليه السلام لم يُعْهَد فيه اليأسُ يوما ، فضلا عن أن موقف كفار مكة منه ومن دينه فى ذلك الحين لم يكن مما يبعث على توقع إيمانهم وشيكا بحيث يصح القول بأنه كان يهدف إلى إقامة دين عربى قبلته عربية . ثم لو صح هذا التعليل أفلا يدل على أن النبى ، برغم كل هذا العمر الذى قضاه يدعو قومه إلى دين الله فلم يؤمن به إلا القليل ، كان لا يزال عنده أمل كبير فى أن يتبعوه يوما ؟ فكيف يقال إذن إنه يئس من اليهود هكذا سريعا ؟ (١٩٨) أم تراه وجد أن اليهود أشد مراسا من كفار مكة ؟ بالعكس ، لقد كان اليهود فى يثرب حينذاك أذل وأخنع من هذا ألف مرة ، لأن المسلمين هناك كانوا أغلبية ، وكان السلطان فى أيديهم ، وكان لهم جيش وظفر وناب ، وهو ما لم يكن لهم منه شىء فى مكة . ثم إن عددا كبيرا منهم نسبيا قد آمن به ، وفيه بعض أحبارهم كما مر . ثم فلفترض أن اليهود كانوا صادقين فى كفرهم به ، فلماذا تحاكموا إليه فى أمر الزانيين ، وهى عقوبة دينية منصوص عليها فى توراتهم ؟ (١٩٩) بل لماذا لم يستعينوا

---

(١٩٨) صُرِفَت القبلة إلى الكعبة بعد مقدمه ﷺ إلى المدينة بسنة ونصف (ابن هشام / ٢ / ١٨١).

(١٩٩) وقد أثار استغرابى فى رواية هذه الحادثة أن الرسول لما أمرهم بإحضار التوراة ليقرأوا ما ورد فيها خاصا بعقوبة الزانى وضع قارئ التوراة يده على آية الرجم ، التى أنكروا أنها موجودة فيها . ومثار استغرابى أن يلجأ ذلك اليهودى إلى=

بإلههم الذى جعلهم شعبا مختارا مميّزا على سائر البشر ويحاربوا محمدا ويقضوا عليه مرة واحدة ؟ لقد كان محمد وأتباعه هم الذين استعانوا عليهم بالله فنصرهم عليهم أعظم انتصار . فهذا عن

= هذا الأسلوب الخبيث المفضوح هكذا علنا على رؤوس الأشهاد ، حتى قرأت فى صحيفة « أخبار اليوم » القاهرية (عدد السبت ١٩٨٥/٩/٢١ ، ص ٥، عمود ٥) عن مناحم بيجين (فى اجتماعه بالدكتور عصمت عبد المجيد فى الإسماعيلية فى أول زيارة له لمصر ، ردا على زيارة الرئيس السادات للقدس ، التى ستعود بمشيئة الواحد القهار إسلامية) ما يلى : « وعندما تحدث بيجين فى مشروعه عن الحكم الذاتى بدأ يجرد الحكم الذاتى من حق تقرير المصير . وكان يستخدم عبارة "Self Rule" بدلا من "Self Determination". وهنا تصدى له الدكتور عصمت عبد المجيد . قال له : أنت أدليت بحديث إلى التليفزيون الأمريكى وعندما سُئلتَ : ماذا تقصد بـ " Self Rule " ؟ قلت : إنها مشابهة تماما لعبارة "Self Determination" . قال بيجين : لم أقل هذا .

عصمت : نص الحديث أمامى ، وهذا ما قلته أنت بالحرف الواحد .

غضب بيجين : أنا أعرف ماذا قلته .

عصمت : النص هو الحكم بيننا .

ثم تحدث بيجين عن قرار ٢٤٢ ، ولاحظ الدكتور عصمت عبد المجيد أنه لا يتلو نص القرار بأمانة ، ولفت نظر بيجين إلى ذلك ، وقال : هذا هو نص القرار. إن ما قلته لم يرد فى القرار .

تأزم بيجن ، وتدخل القاضى براك عضو الوفد الإسرائيلى . قال : إن رئيس الوزراء يقصد تفسيره لقرار ٢٤٢ لا النص » ، فعندئذ زال استغرابى . إن النفس عندما يستولى عليها الالتواء والخبث على هذا النحو فإنها تصبح عاجزة عن التمييز، ويصبح الكذب المفضوح هو الهواء الذى تتنفسه وتموت إذا حُرِمَتْ منه.

القِبْلة ، أما صلاة الظهر فإني لا أفهم كيف تجاهل جِبْ أن الصلوات الخمس قد فُرِضْن كُلُّهن بما فيهنّ الظهر فى مكة ليلة الإسراء والمعراج ؟ ويبقى صوم عاشوراء . والواقع أن الوحى سرعان ما نزل بصوم رمضان فنسخ عاشوراء إلى الأبد . ومع ذلك فيهمنى أن أوضح أمرا على قدر كبير جدا من الأهمية ، وهو أن صوم يوم عاشوراء كان معروفًا فى مكة فى الجاهلية . كذلك لا يقل أهمية عن هذا أن الرسول ، حين وفد إلى المدينة ورأى اليهود يصومون هذا اليوم، أمر أتباعه أن يصوموه قائلا لليهود : « نحن أولى بموسى منكم » (٢٠٠)، وهو ما يعنى بمنتهى الوضوح أنه لم يتملقهم ولم يتابعهم ، بل واجههم منذ البداية برأيه فيهم وأنه يفرق بينهم وبين نبيهم موسى ، الذى هو مثله رسول من عند رب العالمين . وعلى أية حال فإن صيام يوم عاشوراء كان تطوعيا ، أى أنه ليس من أركان الإسلام من قريب أو بعيد .

وبرغم هدمنا لمزاعم جب السابقة فها نحن أولاء ماضون معه إلى زعم جديد مؤداه أن محمدا ، عندما كان اليهود ينتقدون أخطاءه فيما يرويه من قصص الأنبياء التى تختلف عما جاء فى كتبهم ، كان يرد عليهم بقوله : « أأنتم أعلم أم الله ؟ » (٢٠١).

---

(٢٠٠) انظر البخارى / ٢/ ٣٤١ ، وسيد سابق / فقه السنة / ١ / ٤٥١ .

(٢٠١) جب / ٤٤ .

ويتصل بذلك قول مرجليوث إن أسماء بعض الرسل فى القرآن مختلفة عنها فى العهد القديم اختلافا كبيرا (٢٠٢) . والواقع أن العهدين القديم والجديد لا يتمتعان ، حتى عند كثير جدا من الدارسين الغربيين ، بعشر معشار هذه الثقة التى يوحى بها كلام هذين المستشرقين(٢٠٣) . فالإحالة إليهما إذن من جانب المستشرقين على أنهما الأساس الذى ينبغى أن يُحَاكَم إليه القرآن هى مغالطة فادحة . وها هو ذا مرجليوث نفسه (٢٠٤) يشير إلى نظرية يعتنقها اللاهوتيون النصارى ليسوغوا بها التناقضات التى تعج بها كتبهم

---

(٢٠٢) مرجليوث / ٧٣ .

(٢٠٣) انظر مثلا مالك بن نبى / الظاهرة القرآنية / ٦٤ . أما مونتيه ، الذى يذكره المؤلف فى الهامش ويحيل على كتابه « تاريخ الكتاب المقدس » ، فهو مستشرق سويسرى ترجم القرآن إلى الفرنسية وكتب له مقدمة تعرض فيها لتاريخ القرآن ومصادره كما يتخيلها . وقد قام كاتب هذه السطور بدراسة هذه الترجمة دراسة مطولة بين فيها ضعف هذا المستشرق بل عجزه عن فهم النص القرآنى والسخافات التى تورط فيها ، كما قام بترجمة معظم المقدمة المشار إليها وعقب عليها تعقيبا مستفيضا فى كتابه « المستشرقون والقرآن » . وانظر فى نقد الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد مادة « Bible » فى دائرة المعارف البريطانية . ويمكن الاستعانة بكتاب موريس بوكاى «القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم» (البابان الأول والثانى) لمعرفة مدى امتلاء الكتاب المقدس بالأخطاء التاريخية والعلمية الفادحة على العكس من القرآن . وهذا ما دعا مؤلف ذلك الكتاب ، وهو طبيب فرنسى ، إلى الدخول فى الإسلام .

(٢٠٤) ص/ ٦٣ .

المقدسة ويسميها "Colouring by the medium" ، ومعناها أن الوحى إنما ينزل كفكرة ، ثم يقوم النبى الذى نزل عليه الوحى بصياغة هذه الفكرة بعقله وأسلوبه هو ، ومن ثم فإن الأخطاء التى توجد فى الكتاب المقدس ترجع إلى هذا الوسيط لا إلى السماء ، وهو ما يدل على أنه حتى لاهوتيوهم يتقهقرون من خط دفاع إلى آخر . هذا ، ويمكن القارئ أن يرجع إلى الكتاب المقدس ويقرأه بعين مفتوحة ، ولسوف يجد ما يصدم عقله فى كل مكان منه ، فمن تصوير لله تصويرا وثنيا كأنه أحد آلهة الإغريق إلى حكايات عن فجور أنبيائهم تشيب لهولها الولدان إلى تناقضات تاريخية وداخلية لا يمكن التوفيق بينها بحال (٢٠٥). وقبل أن أنتقل إلى النقطة الأخيرة فى ملاحظات المستشرقين عن علاقة القرآن بكتب اليهود والنصارى أطرح هذا السؤال : لقد كان بين أتباع محمد أعداد كبيرة من أهل الكتاب الذين دخلوا الإسلام ونصروه وآزروه ، وحاربوا أهل أديانهم السابقة ، وكانوا على دراية واسعة بكتبهم الدينية ، فلماذا لم يحاول محمد أن يستطلع ما عندهم قبل اختراع أى وحى يتعلق بتاريخ بنى إسرائيل والنصارى حتى لا ينكشف

---

(٢٠٥) خصص ابن جزم عددا كبيراً من الفصول من كتابه « الفِصَل فى الملل والأهواء والنحل » لدراسة الكتاب المقدس بعهديه دراسة علمية موضوعية غادرته كالمصفاة كثرة ثقوب .

خطؤه فيريح بذلك نفسه من التناقض بين القرآن وهذه الكتب ؟ إن الإجابة على هذا السؤال هى أنه كان يعلم يقينا أن قرآنه موحى به من عند الله وأن التوراة والإنجيل قد أصابهما التحريف .

وبذلك نبلغ النقطة الأخيرة ، وهى استغراب جب أنه فى الوقت الذى يرفض فيه القرآن بنوة عيسى لله رفضا حاسما وينفى بنفس القوة أن يكون قد صُلِب إذا به يتحدث عن النصارى أنفسهم أكثر من مرة بعبارات وديّة . وهو يعزو هذا إلى أن معرفة الرسول عليه الصلاة والسلام بالنصرانية لم تكن معرفة مباشرة (٢٠٦) . وعلى رغم أن جب لم يحدد المواضع التى يقول إن القرآن يتحدث فيها عن النصارى بعبارات ودية فإننا نستطيع أن نشير إلى الآية /٦٩ من سورة « المائدة » : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليومِ الآخِرِ وعَمِل صالحا فلا خوفٌ عليهم ولا هم يَحْزَنون » (وتشبهها إلى حد كبير الآية / ٦٢من سورة «البقرة») ، وكذلك الآية / ٨٢ من سورة « المائدة » أيضا : « لَتَجدنَّ أشدَّ الناس عداوةً للذين آمنوا اليهودَ والذين أشْرَكوا . ولَتَجدَنّ أقْرَبَهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا : إنَّا نصارى ... » . والحقيقة أنه لا تعارض هناك إطلاقا ، فالآية الأولى تشترط فى نجاة النصارى وغيرهم أن يؤمنوا

(٢٠٦) جب / ٤٥ ـ ٤٦ .

بالله واليوم الآخر ويعملوا صالحا ، وهو ما يستلزم أن يؤمنوا بكل الرسل من آدم إلى محمد [(٢٠٧)] . وتوضح ذلك الآيتان / ١٥٠ ـ ١٥١ من سورة « النساء » ، إذ تقولان : « إن الَّذين يكْفُرون بالله ورُسُله ، ويريدون أن يُفرِّقوا بين اللهِ ورُسُلِه ، ويقولون نؤْمنُ ببعض ونكْفُر ببعض ويريدون أن يتّخذوا بين ذلك سبيلا * أولئك هم الكافرون حقا ، وأعْتَدْنا للكافرين عذابا مُهينا » . ومثلهما الآية /٩٢ من سورة «الأنعام»، التى تشير إلى القرآن قائلة : « وهذا كتابٌ أنزلناه مبارك مصدِّقُ الذى بين يديه ، ولِتُنْذِرَ أُمَّ القرى ومَنْ حولها . والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به ، وهم على صلاتهم يُحافظون » . وتأتى الآية / ٢٩ من سورة « التوبة » لتوضح الأمر توضيحا ساطعاً لا لبس فيه ، إذ تقول : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخِرِ ولا يَدينونَ دِينَ الحقِّ من الذين أوتوا الكتاب حتى يُعْطُوا الجزْيَةَ عن يَدٍ وَهُمْ صاغرون » . وغير ذلك كثير ، مما يقطع بأن رأى القرآن كان

(٢٠٧) أى أن أىّ إنسان يفعل ذلك يضمن نجاته يوم القيامة . وهذه قضية جد هامة ، لأن معنى هذا الكلام أن الإسلام مفتوح لكل الناس والأجناس وجميع أصحاب الديانات السابقة ، غير مقصور على أحد منهم دون أحد ، على عكس اليهودية مثلاً ، التى تحصر الخلاص فى بنى إسرائيل وحدهم . ويؤكد صحة هذا التفسير أن هذه الآية (ومثلها الآية /٦٢ من سورة « البقرة ») قد وردت فى سياق الكلام عن اليهود وغرورهم وغبائهم وتصورهم أنهم ناجون مهما فعلوا ، فهم أبناء الله وأحباؤه ، والنار لن تمسهم (إذا مستهم) أكثر من أيام معدودات .

دائما أن اليهود والنصارى إذا بقُوا على ما هم عليه رغم اتضاح الحقيقة لهم فلن يمكنهم أن يفوزوا بالنجاة يوم الدين ، وإذن فلا بد أن يدخلوا فى الإسلام ويؤمنوا بنبيه والقرآن الذى أنزل عليه . هذا عن الآية الأولى، أما الآية الثانية فإنها وما بعدها من آيات تشير إلى واقعة بعينها ، إذ ورد على النبى عليه الصلاة والسلام وهو فى المدينة فريق من النصارى وفيهم قساوسة ورهبان مخلصون . وكانت هذه الطائفة من النصارى تتحلى برقة القلب والتواضع للحق ، فأسرعت إلى إعلان الإيمان بالإسلام والقرآن عندما تُليت عليهم آياته وفاضت أعينهم من الدمع[٢٠٨] . هذا ، وسوف نبين فى موضع تالٍ من هذا الكتاب أن الإسلام قد جاء لتصحيح ما أصاب اليهودية والنصرانية من تحريفٍ وتشويهٍ ولتخفيف القيود التى جعلها الله على بنى إسرائيل ، وأن الأمر لم يكن أخذا ولا اقتباساً كما يكذب الزاعمون .

وممن زعم المستشرقون أنه عليه السلام قد أخذ منهم : الحنفاء. وهم أفراد من العرب ظهروا قبيل البعثة النبوية لم يقنعهم ما عليه

---

(٢٠٨) وانظر أيضا منزيس (ص/ ٢٣٨) ، الذى يدّعى هو كذلك أن ثمة تناقضا فى رأى الإسلام فى اليهودية والنصرانية . ولما كان ردى على جب قد شمل أهل الكتاب جميعا يهودا ونصارى لم أر داعيا لمناقشة منزيس . هذا ، وقد سبق أن ناقشت هذه المسألة فى كتابى « المستشرقون والقرآن » (ص/ ٤٦ ـ ٤٨).

أقوامهم من عبادة أصنام وتظالم وغير ذلك من مظاهر التحلل الروحى والفساد الاجتماعى . وبدلا من أن يرى المستشرقون فى ذلك دليلا على أن الجو كان يستدعى ظهور نبى يصلح هذا الحال المائل فى جزيرة العرب وفى العالم معاً ، إذ كانت الأوضاع فى الإمبراطوريات العالمية فى ذلك الوقت مثلها فى شبه الجزيرة سوءاً بل أسوأ (٢٠٩) ، نراهم ، كعهدهم فيما يتعلق بالإسلام ونبيه ، يتهمونه عليه الصلاة والسلام بالأخذ من هؤلاء الحنفاء .

وفى مناقشتنا لهذا الادعاء أحب أن أضع تحت بصر القارئ هذه الحقائق التالية : أن أحدا من الحنفاء لم يدّعِ هذا . ولو حدث أن النبى قد تعلم من أىٍّ منهم لانبرى واحد منهم على الأقل (وليكن أمية بن أبى الصلت ، الذى لم يشأ أن يؤمن بالنبى عليه الصلاة والسلام ، لأنه كان يطمع أن يكون هو الرسول المختار) وقال: «لا تصدقوا محمدا ، فإنه دعىّ كذاب . لقد تعلم منا ، وأخذ ما علّمناه إياه ولفق منه دينا ». ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، فكيف يحق لأى مستشرق أن يتقدم بمثل هذا الاتهام بعد أكثر من

(٢٠٩) انظر فى ذلك مثلاً العقاد / مطلع النور (الفصلان / ٢ و ٣ ، وعنواناهما على التوالى : « الأحوال العالمية قبل الدعوة المحمدية » و « الجزيرة العربية قبل البعثة المحمدية ») . وانظر كذلك الفصل الأول من « حياة محمد » للدكتور محمد حسين هيكل ، وعنوانه « بلاد العرب قبل الإسلام » .

أربعة عشر قرنا وليس فى يديه أى دليل ؟ أهذه هى الموضوعية التى يتشدقون دائما بها بينما يرموننا نحن المسلمين بأننا ندافع عن ديننا بالحق والباطل، مع أن كثيرين منا نحن الذين نتناول هذه الموضوعات لم يخروّا على القرآن عُمْياً وصُمّاً وبُكْماً ، بل كانت لهم مع أنفسهم محاورات طويلة قلبوا فيها الفكر والمراجع وأعادوا النظر فى أشياء كثيرة ؟ ثانيا : لو أن محمدا كان قد تعلم من الحنفاء ، فمَنْ كان أولى إذن بادعاء النبوة ؟ واحدٌ من الأساتذة الأصلاء أم محمد تلميذ هؤلاء الأساتيذ الأجلاء ؟ ولا يقولن أحد إنهم كانوا مشغولين فقط بمصائرهم الفردية ، فقد كانوا دائما يعيبون على أقوامهم قبح ما يعتقدون ويصنعون ، وكان لبعضهم مواعظ فى الأسواق والمجامع(٢١٠) ، ولكن أحدا منهم قط لم يدّع النبوة ، فما السبب فى ذلك ما دام ادعاؤها سهلا إلى حد أن تلميذا من تلاميذهم مثل محمد قد زعم أنه نبى يوحى إليه من السماء ؟ لقد أسلم ورقة بعد أن استحكم فى النصرانية (٢١١) ، كما أسلم أيضا عبيد الله بن جحش بعد الالتباس الذى كان فيه ، ثم ظل مسلما إلى أن هاجر إلى الحبشة ، وهناك تنصّر ومات على النصرانية . والملاحظ من

---

(٢١٠) أبدى إدمون باور هذه الملاحظة نفسها عن أمية بن أبى الصلت بالذات . (جوزيف هبى/ ٧٧٧ ـ ٧٧٨) .

(٢١١) وهذه هى عبارة ابن اسحاق فى السيرة (ابن هشام / ١ / ٢٠٥) .

سيرته أنه كان لا يحترم غربة المسلمين فى تلك البلاد، إذ كان يغيظهم بقوله : « فَقَّحْنا وصأصأتم » (٢١٢) . وواضح أنه لم يصبر على بلاء الاختبار الذى محص الله به المسلمين فى النصف الأول من عمر الدعوة فانقلب فى أول فرصة ودخل فى دين الدولة المضيِّفة ، ممثلا بذلك الشذوذ على القاعدة التى يمثلها بقية المهاجرين جميعا . وأرجح أنه لو كان قد نُسِئَ له فى عمره ورجع مع سائر المهاجرين لعاد كَرَّة أخرى إلى الإسلام ، فإن نفسيته فيما يبدو من أخباره لم تكن نفسية متماسكة . وينبغى ألا يفوتنا أنه لو كان سمع أو شهد أن محمدا قد سرق أفكاره من أحد لما آمن به فى البداية أو لفضحه بذلك عند النجاشى ومطارنته ، وبخاصة فى ذلك اليوم المشهود ، يوم المناظرة التى أقيمت فى بلاط الإمبراطور الحبشى بين المسلمين المهاجرين وبين رسولَىْ قريش بحضور كبار رجال الدين هناك . وعلى أية حال فلا يمكننا أن نغفل أن زوجته ، وهى أم حبيبة بنت أبى سفيان أحد زعماء الكفر فى ذلك الحين ، لم تتابعه فى ارتداده ، بل ظلت متمسكة بدينها . ليس هذا فقط ، بل عقد عليها الرسول ﷺ وهى لا تزال فى الحبشة وأناب عنه النجاشى

---

(٢١٢) والصأصأة هى محاولة الكلب الوليد تفتيح عينيه لينظر . وفقّح : فتح عينيه . ولعل هذه الصورة المجازية التى استعملها تبيّن لنا كيف كان يؤذى مشاعر زملائه فى الغربة ببذاءته .

رضى الله عنه، وكـان قد أسلم ، فى عقـد نكاحه عليهـا بعد وفاة زوجها (٢١٣). وأم حبيبة هذه هى التى استنكفت أن يلمس جسد أبيـها فراش رسول الله حتى لا ينجّسه ، وصارحته بذلك ، وكان أبوها حينذاك قد أصبح هو الزعيم الأوحد لمعسكر الكفر والطغيان . فلعل هذا كله يعطيك فكرة عن قيمة ارتداد عبيد الله بن جحش فى بلاد النجاشى ، الذى صدّق هو نفسه بالدين الجديد . وكى تزداد ضآلة قيمة ارتداده وضوحا أحب أن أذكر لك أن كل إخوته قد أسلموا ، وهم عبد الله (وقد استُشهِد فى أحد) وعبد (وهو المُكنّى بأبى أحمد) ، وأم حبيب (زوجة عبد الرحمن بن عوف) وزينب (زوجة زيد بن حارثة ثم الرسول من بعده) . وفضلا عن ذلك فإن أحد هؤلاء الإخوة وهو عبد (أبو أحمد) كان ضريرا ، ولم يمنعه ذلك من مناصرة الإسلام والهجرة فيمن هاجر إلى يثرب. ومما له دلالة هنا أنه كان أيضا زوج إحدى بنات أبى سفيان زعيم الوثنية فى ذلك الوقت . فلو كان أخوه قد تنصر عن بصيرة لتابعه ، فهو لم يكن أخاه فقط بل عديله أيضا ، أو على الأقل كان ينبغى ، وهو الضرير الضعيف القادر بغيره ، أن ينحاز إلى معسكر الأقوياء (أى الكفار) حتى تقوى شوكة المسلمين فيدخل معهم فى

(٢١٣) المرجع السابق / ٤ / ٢١٥ .

دينهم (٢١٤) . ومن الحنفاء أيضا عثمان بن الحويرث ، وقد قدم على قيصر فتنصر وحسنت منزلته لديه (لاحظ أن من تنصر منهم قد تنصر في الغربة) . ويذكرون أن قيصر توّجه وولاه أمر مكة ولكن أهل مكة رفضوه . وقد مات بالشام مسموما على يد عمرو بن جفنة الملك الغساني (٢١٥) ، وهو ما يعطيك فكرة عن نواياه ودوافعه . ولا بأس أن نعد أمية بن أبي الصلت واحدا من هؤلاء الحنفاء . وهو شاعر جاهلي حكيم من أهل الطائف كان مطلعا على الكتب القديمة ، ولبس المسموح وامتنع عن الخمر والأوثان. وقد رحل إلى دمشق ثم إلى البحرين حيث ظل هناك حتى ظهرت دعوة الإسلام وبلغه خبر محمد عليه الصلاة والسلام ، فقدم إلى مكة واستمع منه صلى الله عليه سلم إلى آيات من القرآن. ولما سأله أهل مكة رأيه فيه قال : « إنه على حق » ، ولكنه مع ذلك أجّل الدخول في الإسلام حتى ينظر ، فيما قال ، في أمره . وبعد ذلك سافر إلى الشام ثانية ، وهاجر رسول الله إلى يثرب . ثم عاد أمية من الشام وفي نيته إعلان إسلامه ، لكن مقتل ابني خال له كافرين في بدر منعه من ذلك. وقد أقام أمية في الطائف إلى أن مات (٢١٦) . ومن الواضح أن هذا

---

(٢١٤) السابق / ١/ ٢٣٥ ، و ٢ / ٨٢ متنا وهامشا ، ١٠٤ ـ ١٠٥ ، و ٣ / ٤٢ .

(٢١٥) السابق / ١/ ٢٠٦ (المتن والهامش) .

(٢١٦) انظر « الأعلام » للزركلي / مادة « أمية بن أبي الصلت » .

التردد الطويل إلى أن هلك يؤكد ما قاله المؤرخون المسلمون عنه من أن الحسد والطمع فى النبوة لنفسه كانا هما السبب الحقيقى أو على الأقل الرئيسى فى توقفه عن إعلان إيمانه بنبوة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام(٢١٧). وطبعا لو أن أمية بلغه من أى طريق شيء مريب عن محمد لما سكت لسانه ، وهو الشاعر . كذلك لو أنه أحس أن محمدا نبى مزيف لادعى هو أيضا النبوة ، وقد كان له معين فى شهرته فى الجاهلية بالتعبد ومعرفة الكتب القديمة . أما زيد بن عمرو بن نُفَيْل فقد اتبع دين إبراهيم واعتزل الأوثان والميتة والدم والقرابين ، ولم يدخل فى يهودية ولانصرانية . ولكن مغزى قصته لا يتم إلا إذا علمنا أن ابنه سعيد بن زيد ، وابن عمه وابنة عمه ، وهما عمر بن الخطاب وأخته (التى هى زوجة سعيد بن زيد نفسه) ، قد دخلوا كلهم فى الإسلام . ونحن جميعا نعرف الإيذاء الذى أوقعه عمر بسعيد هذا وزوجته والذى انتهى خير نهاية ، إذ ترتب عليه إسلامه رضى الله عنه . فلو أن سعيدا هذا أحس أن محمدا قد تعلم من أبيه أو لو أن أباه صارحه بشيء من ذلك لما أسلم البتة ، وبالذات فى ذلك الوقت المبكر جدا من تاريخ الدعوة الإسلامية ، أو لو أن عمر صاحب العين اليقظة والعقل اللماح واللسان الجريء حاكت فى قلبه أية ذرة من ريبة حول محمد وأخذه

---

(٢١٧) انظر د. هيكل/ ١٧٥ .

المزعوم عن الحنفاء أو عن ابن عمه بخاصة لما دخل فى الإسلام أبدا ليتحدى الكفار جميعا جهرة وليكون إسلامه فتحا [٢١٨] . أما فى المدينة فهل يمكننا أن نعُدّ أبا عامر الراهب (أو الفاسق كما سماه الرسول عليه السلام) من بين هؤلاء الحنفاء ؟ إن قصته لتشبه قصة ابن الحويرث المكى ، إذ إنه لما هاجر النبى إلى المدينة فارقها هو غِلاً وحقدا وأخذ يؤلب الكفار عليه ﷺ ، ثم ذهب إلى قيصر يستعين به. وقد اشترك ضد المسلمين فى غزوة أحد ، وأوعز إلى منافقى المدينة أن يبنوا مسجدا فى محلتهم بعيدا عن عيون الرسول والمخلصين من أتباعه ليشق به وحدة الجماعة ويجتمع بهم فيه . ولكن كل ذلك لم يُغْنِه فتيلا ، وحقت عليه لعنة نفسه ، إذ قال لرسول الله عليه السلام أول مقدمه إلى المدينة : « الكاذب أماته الله طريدا غريبا وحيدا » ، يعرِّض برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمات هو بالشام غريبا طريدا وحيدا بعد فشله وإطلاقه آخر سهم فى جعبته، إذ خرج إلى الطائف يحرض أهلها ويقوى قلوبهم على حرب رسول الله ، ولكنهم أسلموا فلحق بالشام وهلك هناك. والذى يهمنى قوله هنا هو أن أحدا من أهل المدينة لم يتبعه ، وحين ناداهم

---

(٢١٨) انظر ابن هشام / ١ / ٢٠٦ ـ ٢١٥ ، ٢٩٤ ـ ٢٩٩ ، وبالذات ص/ ٢٩٧ حيث يورد ابن اسحاق رواية عن عمر تشير إلى أن الإسلام قد لمس قلبه قبل اليوم الذى نطق فيه بالشهادتين .

وهو يحارب فى صفوف المشركين يوم أحد لينبههم إلى وجوده فينحازوا معه قائلاً : « أنا أبو عامر » ردوا عليه بقولهم : « فلا أنعم الله بك عينا يا فاسق » . حتى ابنه كذّبه واتبع محمدا ، وحارب فى تلك المعركة نفسها جنديا فى صفوف المسلمين واستُشْهِد فيها . وهو حنظلة المسمى «غسيل الملائكة»، رضى الله عنه رضاً واسعاً (٢١٩).

كذلك هل يمكننا أن نلحق بالحنفاء أيضا أبا قيس صرمة بن أبى أنس ، الذى ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح وفارق الأوثان ، وهمّ بالنصرانية ولكنه أمسك عنها وأخذ يعبد الله على دين إبراهيم عليه السلام حتى هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة فأسلم رغم أنه كان شيخا كبيرا ، وطفق ينافح عن الإسلام بأشعاره الحسان (٢٢٠) . فمن هذا العرض نخرج بالنتيجة التالية : أن بعض هؤلاء الحنفاء قد أسلموا ، ومن لم يسلم منهم انحاز إلى أحد الأباطرة لمصلحة له ، ولم يتابعه حتى أقرب المقربين إليه بل دخلوا فى الإسلام واتبعوا محمدا . أما زيد بن عمرو بن نفيل فقد رأينا ابنه وأقرباءه يصدّقون بالنبى ودعوته ويُفَدّونهما بالنَّفْس والنَّفِيس. وقد عرفنا من أمر أمية بن أبى الصلت ما عرفنا ، فما دلالة هذا كله ؟ أترك ذلك للقارئ ليحكم هو بنفسه على مفتريات المستشرقين التى لم يفكر فى توجيهها إلى محمد

---

(٢١٩) المرجع السابق / ٢ / ١٦٦ - ١٦٧، و ٣ / ١٩ ، ٢٥ ، ٢٨ .

(٢٢٠) السابق / ٢ / ١١٢ - ١١٥ .

مجردَ تفكير أيٌّ واحد من معاصريه بالغةً ما بلغت عداوته له .

إن أحدا من هؤلاء الحنفاء لو شعر أن محمدا إنما هو دَعِيّ نبوة لانبيٌّ حقيقي لادّعى هو أيضا النبوة . ولا يَصِحَّنّ أن يقول قائل : ولكن لقد ظهر فعلا متنبئون مثل مسيلمة وطليحة ، أفليس هذا كافيا ؟ لا يصحّن أن يقول قائلٌ هذا لأن سِيَر هؤلاء المتنبئين كافية عند العقلاء لرفضهم وردّ ادعائهم : فالأسود العنسى مثلا كان بطّاشا جبارا . وقد أسلم لما أسلمت اليمن ثم ارتد أول واحد ، ولكنه قُتِل بعد تنبئه بأربعة أشهر فقط . وسبق أن ذكرنا الدور الذى قامت به زوجته فى عملية اغتياله. ولا أظن فى هذه المعلومات عن شخصيته وحياته وموقف زوجته منه ما يدعو عاقلا إلى تصديقه ، وبخاصة أنه أسلم ثم ارتد وتنبأ ، إذ ليس هذا فعل الصادقين بَلْه رسل الله (٢٢١) . وأما مسيلمة فقد أسلم أيضا ، لكنه لما رجع إلى اليمامة ارتد وتنبأ قائلا : « إنى أُشْرِكْتُ فى الأمر معه » (أى أنه شريك لمحمد فى النبوة) ، وهى كلمة تمحق ادعاءه محقا ، إذ هى اعتراف منه لمحمد بالنبوة ، ومحمد قد كذّبه تكذيبا قاطعا . وثمة ما هو أكثر من ذلك ، فقد أحلّ لمن تابعوه الخمر والزنا وحط عنهم

---

(٢٢١) انظر فى ترجمته « الأعلام » للزركلى / مادة « الأسود العنسى » ، وكذلك إرفنج / ١٨١ ـ ١٨٢ .

الصلاة (٢٢٢). وقد هلك في حروب الردة : قتله وَحْشِيٌّ (قاتل حمزة رضى الله عنه فى أُحُد) ، واشترك معه فى قتله رجل من الأنصار (٢٢٣) . وكان قد تزوج سَجَاحَ المتنبئة ، فأقامت معه قليلا . وكانت قد نزلت اليمامة بجيش كبير ، ولكنها لما أدركت صعوبة الإقدام على قتال المسلمين انصرفت راجعة إلى الجزيرة (بالعراق) ، ثم لما بلغها قتل مسيلمة أسلمت. وعند وفاتها صلى عليها والى البصرة من قِبَلِ معاوية بن أبى سفيان . وأظن أن فى هذا مَغْنًى لمن يريد أن يعرف حقيقة مسيلمة وحقيقة سجاح(٢٢٤). ويبقى طُلَيْحَة الأَسَدِىّ ، وقد أسلم قبل تنبئه كما أسلم زميلاه فى التنبؤ : مسيلمة والأسود ، لكنه لما رجع مع وفود قومه بنى أسد إلى بلادهم ارتدّ وادعى النبوة . وقد هزمه خالد فى عهد أبى بكر الصديق رضى الله عنهما فهرب إلى الشام ، ثم عاد إلى الإسلام فى عهد عمر وأبلى بعد ذلك فى الفتوح الإسلامية بلاء حسنا حتى استُشْهِد فى نهاوند (٢٢٥). وها أنت ذا ترى أن اثنين من هؤلاء المتنبئين لم يكملا الطريق وعادا إلى الإسلام ، أما الاثنان الآخران اللذان هلكا

---

(٢٢٢) ابن هشام / ٤ / ١٦٤ ـ ١٦٥ ، ١٨٣ .

(٢٢٣) المرجع السابق / ٣ / ٢٣ .

(٢٢٤) انظر « الأعلام » للزركلى / مادتا « سجاح » و « مسيلمة الكذب » .

(٢٢٥) انظر فى ترجمته « الأعلام » للزركلى / مادة « طليحة الأسدى » ، و«القاموس الإسلامى» لعطية الله / مادة « طليحة بن خويلد » .

فقد أسلما أولا ثم ارتدًا وتنبآ ، وليس هذا بفعل الأنبياء الحقيقيين .

وهناك مصدر آخر يُلَمِّح بعض المستشرقين إلى أن الرسول كان يمتح منه أحيانا ، وهو عمر بن الخطاب . فهذا مكسيم رودنسون يقول : « وقد افتخر عمر فى براءة بأن ثلاثا من نصائحه قد وافقت الوحى على نحو معجز » (٢٢٦) . وإن عبارتَىْ « فى براءة » و «على نحو معجز» تدلانك وحدهما على ما يريد هذا المستشرق أن يقول ، حتى لو لم تعرف أنه غير مسلم وأنه يُرجع الوحى إلى مصدر بشرى. وإنى فى الواقع لست أدرى لِمَ يعتقد رودنسون وأمثاله أن الوحى لا بد أن يخالف كل فكرة أو اقتراح بشرى ؟ إن البشر ليسوا على كل حال شياطين ، بل فيهم من روح الله كما يقول القرآن ، فإذا توافقت أفكار بعض الصحابة مع الوحى فما وجه الغرابة فى هذا؟ إن رودنسون نفسه قد حصر موافقات الوحى لعمر فى ثلاث ، فهل هذا كثير على رجل مسلم اشتهر بتقوى الله وصفاء البصيرة وعمق الفهم لدينه وجرأته فى التعبير عما يعتقد أنه الحق ؟ أم كان يجب على الله سبحانه أن يغيظ عمر فى كل مرة من هذه المرات الثلاث ويغير وحيه حتى لا يتوافق مع رأى عمر ؟ أم ماذا ؟ أما غمز رودنسون ولمزه لعمر حين أشار إلى « براءته » فهو دليل على

---

(٢٢٦) رودنسون / ٢١٩ .

عجزه عن فهم الرجال وسبر أغوار شخصياتهم ، فلم يكن عمر ذلك الرجل البرىء (أى الساذج ، كما يحاول أن يوحى لنا رودنسون) بل كان نافذ البصيرة ، نقادة ، حاد الملاحظة ، كبير العقل . لقد حكم الإمبراطورية الإسلامية عشر سنين وهى فى أوج صراعها مع دهاقنة العالم من الفرس والروم فحطمهم تحطيما . وأظن أن هذا هو السبب الذى أملى على هذا الشيوعى الأوروبى أن يلمز أمير المؤمنين هذه اللمزة السمجة. على أنه إذا كان الوحى قد وافق عمر ثلاث مرات ، فقد خالف الوحى عمر والدنيا كلها حين كان عمر كافرا ، وكان على عمر أن يغير عقائده وأسلوب حياته ويتوافق مع ذلك الوحى . أما بعد الإسلام فما أكثر المرات التى خالفه فيها النبى عليه الصلاة والسلام : فقد كان عمر مثلا يحلف بأبيه فنهاه النبى فانتهى (٢٢٧) . كما أنه عليه السلام قد نصر مرة رأى امرأة على رأى عمر (٢٢٨) . وحتى فى حجاب زوجاته عليه السلام فإن الوحى لم يوافقه على طول الخط . لقد نزل القرآن بالحجاب على زوجات رسول الله ﷺ صيانة لهن من نظرات الزائرين لبيت النبوة وتطلعات السفهاء ، وكان هذا أيضا رأى عمر رضى الله عنه وأرضاه . لكن عمر قابل ذات ليلة أم المؤمنين سودة بنت زمعة ، رضى الله عنها ،

---

(٢٢٧) الشوكانى / مجلد ١ / ج ١ / ص ٢٩٦ ، والبخارى / ٤ / ٥١ .

(٢٢٨) انظر البخارى / ٣ / ٥٤ .

فتعرف عليها وقال لها : « إنك والله يا سودة ما تَخْفَيْنَ علينا » ، فرجعت إلى النبي ﷺ فذكرت ذلك وهو في حجرة عائشة يتعشى ، وكان في يده عرق فأُنْزِل عليه ، ثم رُفع عنه وهو يقول : « قد أذن الله لكن أن تخرجن لحوائجكن » (٢٢٩). كما طلب من النبي في أكثر من مناسبة أن يقتل هذا الرجل أو ذاك لأنه ، في نظره ، منافق قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فكان عليه السلام يرفض اقتراحه ويرشده إلى ما هو أقوم (٢٣٠). بل لقد بلغ من هيبة عمر له أنه ، لما نسي عليه السلام فصلى إحدى الصلوات الرباعية ركعتين فقط ، لم يستطع أن يفاتحه في الأمر لا هو ولا أبو بكر (٢٣١). كما أنه وأبا بكر قد اختلفا عند النبي على أمر وارتفعت أصواتهما ، فنزل قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ، لا تَرْفَعوا أصواتَكُم فوقَ صوتِ النبي ، ولا تَجْهَرَوا له بالقَوْلِ كجَهْرِ بعضِكم لِبَعْضٍ أن تَحْبَطَ أعْمالُكم وأنتم لا تَشْعُرون » ، فكان عمر بعد ذلك إذا حدّث النبي بحديثٍ خفض

---

(٢٢٩) المرجع السابق/ ٣ / ٢٦٦ .

(٢٣٠) انظر المرجع السابق/ ٤ / ٧ ، ١٩٩ . ومن ذلك أنه كان يريد أن يضرب عنق حاطب بن أبي بلتعة لإرساله رسالة إلى أهل مكة يخبرهم باستعداد الرسول للمسير إليهم لفتح بلدهم ، فرد عليه السلام عليه قائلاً : أوليس من أهل بدر ؟ وما يدريك ؟ لعل الله اطلع عليهم فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد أوجبت لكم الجنة » ، فاغرورقت عيناه بالدموع قائلاً : الله ورسوله أعلم .

(٢٣١) انظر الشوكاني/ مجلد ٢ / ج ٣ / ص ١٠٦ .

صوته كأنه يُسرّ إليه بشيء (٢٣٢) . فهل يَسُوغُ القول تصريحا أو تلميحا بأن عمر كان مصدراً لبعض الوحى ؟ عمر الذى كان يقبّل الحجر الأسود وهو يقول : « إنما أنت حجر ، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ قبّلك ما قبّلتك » ؟ (٢٣٣) ولكن لم ؟ أكان عليه السلام يخافه ؟ أبدا ، فهو الذى كان يهاب النبى ، وهو الذى تابعه وتحدى الدنيا من أجله وأجل دينه . أكانت موافقات عمر للوحى فى أمور عويصة حيرت بال الرسول عليه الصلاة والسلام وأسهرته الليل حائرا يتقلب على فراشه ؟ ولا هذه أيضا ، فها هى ذى الأمور التى اتفق الوحى فيها معه رضى الله عنه : « قال عمر : وافقت الله فى ثلاث ... قلت : يارسول الله ، لو اتخذت مقام إبراهيم مُصلّى. وقلت : يارسول الله ، يدخل عليك البرّ والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب . فأنزل الله آية الحجاب ... وبلغنى معاتبة النبى ﷺ بعض نسائه فدخلت عليهن فقلت : إن انتهيتُنّ أو ليُبْدلَنّ الله رسوله خيرا منكن ... فأنزل الله « عسى ربُّهُ إن طلّقكن أن يُبْدلَهُ أزواجا خيّرا منكُنّ » (٢٣٤) . فالآن نستطيع أن ندرك أسلوب المستشرقين فى الطنطنة على لا شىء !

---

(٢٣٢) انظر البخارى / ٤ / ٢٦١ .

(٢٣٣) انظر « الموطأ » / ١ / ٣٣٤ .

(٢٣٤) انظر البخارى / ٣ / ٩٩ .

وفى نهـاية هذا الفـصل نتسـاءل : هب أن الرسـول ، وذلك مستحيل بعد كل ما قلناه ، كان كاذبًا ، فما الذى كان يريده من وراء هذا الكذب ؟ المال ؟ الشرف ؟ الرياسة والسلطان ؟ إن تفاصيل حياته كلها تكذب ذلك أشد تكذيب . ومع هذا فسوف نتناول هذه الدوافع بالمناقشة المفصلة الموثقة ، كعادتنا دائما ، فى الفصل الثانى، الذى سنخصصه للشبهة الثانية التى يحاول غير المسلمين تفسير ظاهرة الوحى بها ، وهى أن محمدا كان واهما مخدوعا. كأنهم لما تيقنوا فشل الشبهة الأولى وعرفوا أن اتهامه بالكذب والخداع هو اتهام متهافت عاد فريق منهم فقال إنه لم يكن خادعًا بل مخدوعًا .

الشبهة الثانية

أنه عليه السلام كان واهما مخدوعا

وننتقل الآن إلى الشبهة الثانية ، وهى أنه ﷺ كان واهما مخدوعا . ولعل المشركين كانوا يقصدون ذلك أو شيئا منه حينما اتهموه بالجنون (١) ، وحينما عرض عليه عتبة بن ربيعة ، فيما عرض ، أن يأتوا له بطبيب يعالجه مما أصابه إن كان الذى يأتيه رَئِيًّا من الجن (٢) ، فما كان منه عليه السلام إلا أن قرأ عليه عددا من الآيات من مفتتح سورة «فُصِّلت» فيها دعوة لقريش إلى الإيمان ، وتصوير لعنادهم ، وتهديد لهم بمثل مصائر الأمم الخالية التى كذّبت رسلها . ولنقف هنا قليلا ونتساءل : ترى لو أن الرسول كان فعلا مصابا ببعض الأمراض النفسية ، التى عبر عنها مفاوضه القرشى بـ « رئىّ الجن » ، أكان سيكون رده عليه بهذا الهدوء النبيل وبتلاوة هذه الآيات من الذكر الحكيم ؟ ألم يكن سيثور ويسمعه قارص القول إن لم يكن بعضا من الشتائم المقذعة إذ ضغط فى شخصيته على الجرح الناغر الذى يؤلمه ؟ ثم إن محمدا هذا هو محمد الذى كان محل ثقتهم وأمانتهم قبل المبعث ، فما عدا مما

---

(١) سجل القرآن هذا الاتهام فى أكثر من موضع : « وقالوا : يا أيها الذى نزل عليه الذكر ، إنك لمجنون » (الحجر / ٦) و « ويقولون : أإنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون؟ » (الصافات / ٣٦) و « يقولون : إنه لمجنون » (القلم / ٥٠)... إلخ.

(٢) انظر ابن هشام / ١ / ٢٦١ ـ ٢٦٢ .

بَدا ؟ ألئن جاء بدعوة التوحيد والعدل والمساواة وتحرير الفكر من أغلال الخرافات والتقاليد السخيفة المشوهة يُتَّهم بالجنون ؟ والله إن كان هذا هو الجنون ، وكانت الوثنية بكل قبحها هى العقل ، فمرحبا به من جنون !

أما كفار العصر الحديث فإنهم يتحدثون ، بدلا من ذلك ، عن الرغبات الدفينة ومكنونات اللاوعى (٣) التى جاء القرآن ، عن غير عمد أو وعى من محمد كما يقولون ، ليحقّقها ويخفف عنه عليه السلام أثقالها التى كانت تعانى منها نفسه أيما معاناة .

على أن أول شيء أتناوله فى مستهل مناقشتى لهذا الاتهام هو أن الوحى كثيرا ما نزل يعارض رغبات الرسول العميقة معارضة صريحة لا لبس فيها ولا تأويل ، وقوية لا تلطف فيها ولا تخفيف . ومن ذلك أنه عليه السلام كان يحب عمه أبا طالب ، الذى رعاه فى يتمه من بعد جده والذى حال بين قريش وبين التفكير فى اغتياله منذ البداية ، وكان يتمنى بكل كيانه أن يسلم هذا العم، فلماذا لم يتوهم نزول وحى يخبره عند موت عمه بأنه قد نطق بالشهادتين وهو يغرغر مثلا ؟ إن شيئا من ذلك لم يحدث ، بل لم

---

(٣) قال بذلك من المستشرقين رودنسون ولودى وغيرهما ، ممن سنتناول آراءهم بالتحليل والمناقشة بعد قليل .

يحدث ما هو دون هذا بكثير : لقد وعد عليه السلام عمّه بأن يستغفر له الله ، بيد أن الوحى قد حسم الأمر للتو فنزل قوله تعالى : ﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أُولِى قُرْبَى من بعد ما تبيّن لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾ (التوبة / ١١٣)، ولم يتركه الوحى حتى يستغفر ثم يبين له عدم جدوى الاستغفار بل بادر الأمنية فى مهدها (٤) . وقد أسلفت فى الفصل السابق أنه ﷺ كان يخشى أشد الخشية أن يواجه الناس بأن زينب بنت جحش تحلّ له زوجةً ، فنزل القرآن يعاتبه قائلاً : ﴿وتخشى الناسَ ، والله أحقُّ أن تخشاه ﴾ (٥) .كما سمعنا عائشة وهى تقول إن الرسول لو كان كاتما شيئا من الوحى لكتم هذا ، لما كانت تعلمه من أن مثل هذا الزواج سوف يصدم المجتمع صدمة عنيفة لتعوّد الناس على أن يَعُدّوا ابن التبنى كالابن الحقيقى تماما. وقد يقول قائل : ولكن الوحى هكذا قد نزل ليحقق أمنية الرسول ، إذ كان يهوى زينب . ولمثل هذا القائل أكرر ما قلته هناك من أن هذه الأمنية كانت تستطيع أن تتحقق بأكثر من طريقة ، كأن يتخذها الرسول (أستغفر الله) خدينة له مثلا . إلا أن الوحى أصر على أن يعالن محمد المجتمع بهذا الزواج ، وهو ما كان النبى يخشاه أشد

---

(٤) انظر البخارى / ٢ / ١٣٨ .

(٥) الأحزاب / ٣٧ .

الخشية . كذلك فإن قريشا قد مثَّلَتْ بجثة عمه حمزة الشهيد ، إذ بقرت هند زوجة أبي سفيان بطنه رضى الله عنه واستخرجت كبده ولاكتها ، وجدعت أنفه وأذنيه ولبستها حليًا تَشْفِي بذلك نفسها المغلولة . ولم يكتف أبو سفيان بذلك ، بل أخذ يضرب حمزة بزُجِّ الرمح في شدقه وهو جثة هامدة ويقول له : « ذُقْ عُقَق ! » ، فأقسم النبى ، وقد بلغ الغيظ منه والحزن والحسرة منتهاها ، لئن أظهره الله على قريش في موطن من المواطن لَيُمَثِّلَنَّ بثلاثين رجلا منهم ، وأقسم معه المسلمون لَيُمَثِّلُنَّ بهم مُثْلَةً لم يمثلها أحد من العرب ، فَبِمَ نزل الوحى ؟ أَنَزَلَ يبارك هذا القسم ويحض الرسول والمسلمين على تحقيق هذه الأمنية حتى تُشْفَى نفسيته عليه السلام من أحزانها ولوعاتها على عمه الحبيب وأخيه فى الرضاع ؟ أبدا ، بل نزل الوحي بهذه الآيات : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثلِ ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين * واصبر وما صبرُك إلاّ بالله ، ولا تَحْزَنْ عليهم ، ولا تَكُ فى ضيقٍ مما يَمْكُرون » (٦) ، فعفا رسول الله وصبر ونهى عن المثلة (٧) . ليس هذا فحسب ، بل إن النبى بعد أن دخل مكة فاتحا وأظفره الله بأبى سفيان وهند فاعلَيْ تلك الفعلة الأثيمة ، لم نسمع بنزول وحى عليه بقتلهما ، إن لم يكن من أجل

---

(٦) النحل / ١٢٦ ـ ١٢٧ .

(٧) انظر ابن هشام / ٣ / ٢١ ـ ٢٢ ، ٣٦ ـ ٣٨ .

حمزة فجزاء ما ألبا عليه هو وحارباه بكل ما ملكت أيديهما حتى انتهى أمرهما وأمر قريش كلها إلى الفشل الذريع . أما وحشىٌّ قاتل عمه فإنه عليه السلام قد قَبِل إسلامه حين أتاه بعد ذلك فى أخريات حياته ﷺ ، وإن لم يستطع أن يرتاح لمرآه. وأحيلك على ابن هشام (٨) لتقرأ ما دار بين وحشى وبين النبى حين قدم عليه ، وكيف قال له الرسول حين رآه : « أَوَحْشِى ؟ » . قال : «نعم يارسول الله » . قال : « اقعد فحدثنى كيف قتلت حمزة » . فحدّثه، فلما فرغ من حديثه قال : « ويحك ! غيِّبْ عنى وجهك فلا أَرَيَنَّك » . وعلى رغم ما هو ظاهر فى القصة من بقاء ذكرى حمزة ومقتله بعد كل هذه السنوات حية نابضة فى نفسه عليه السلام تؤلمه إيلاما شديداً ، فلا وحى بانتقام ولا خلافه . سبحان الله! أهذا كل تأثير مكبوتات اللاوعى ؟ كذلك أين كانت مكبوتات اللاوعى هذه يوم أن مر الرسول ومعه أصحابه بقبر أُمّه فعطف على القبر ووقف عنده بعض الوقت ثم عاد إلى أصحابه باكيا ، ولما استفسروا منه عن سر ذلك قال لهم إن الله قد أذن له بزيارة قبر أمه ولكنه لم يأذن له أن يستغفر لها . تُرَى لِمَ لَمْ يرسم الوحى الذى يدعى مستشرقونا المخلصون أنه انعكاس لرغبات محمد

(٨) ج ٣ / ص ٢٣ .

الدفينة صورة وردية لمصير آمنة بنت وهب فى الحياة الأخرى ، وهى أمه التى غادرته يتيما فى سن غضة تاركة له أجمل ذكريات الحنان؟ (٩) ولِمَ لَمْ ينزل وحى بعد فتح مكة يطلب من الرسول الانتقال بحكومته إليها ، وهى التى كانت أحب بلاد الله إلى الرسول كما اعترف هو نفسه بذلك يوم أن غادرها مهاجرا إلى يثرب؟ أو لِمَ لَمْ ينزل قرآن باستيلاء الرسول والمهاجرين على دورهم التى سُلِبَتْ منهم يوم أن أُخْرِجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله ؟ (١٠) أم ترى لِمَ لَمْ ينزل وحى يعكس رغبته عليه السلام فى أن يشاركه الكون كله أحزانه الثقيلة يوم موت ابنه إبراهيم ، الذى رُزِقَه فى أخريات حياته فملأ عليه البيت حبورا وسعادة ؟ لقد كسفت الشمس يومها فظن المسلمون أنها كسفت لموت ابنه عليه السلام ، فماذا تظنون كان جوابه عليهم ؟ لقد نبههم ، وهو فى غمرة أحزانه ، إلى أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تكسفان لموت أحد ولا لولادته (١١) . وربما جاز لنا أن نشير هنا إلى أنه

---

(٩) انظر الشوكانى / مجلد ٢ / ج ٤ / ص ١٠٩ . وقد سبق الاستشهاد بهذا الحديث للتدليل على توخيه عليه السلام للصدق حتى فيما لاحرج عليه قط فى كتمانه ، لأنه من شؤونه هو . انظر إرفنج ١٥٧ .

(١٠) انظر ابن هشام / ٢ / ٨٢ ـ ٨٣ ، ١٠٤ ـ ١٠٥ ، و ٣ / ٤٣ .

(١١) أورد إرفنج هذه الواقعة (ص / ١٧٦) ، وكل المستشرقين يعرفونها ويعرفون كل ما ذكرته هنا وما لم أذكره ، فلماذا يتنكبون عن سواء السبيل ؟

صلوات الله وسلامه عليه كان يشمئز من أكل الضبّ ، ومع ذلك فقد كان أصحابه يأكلونه أمامه فلا ينكر ذلك عليهم . أفرأيت إن كان الوحي انعكاساً لميله إلى أشياء ونفوره من أخرى ، ألم يكن المتوقع إذن أن يحرّم عليهم الضبّ ؟ (١٢)

ليس ذلك فقط ، بل كثير هو الوحي الذى نزل يخطّئ الرسول عليه السلام ، كما فى قصة ابن أم مكتوم (١٣) ، وكما فى حادث الصحابى الذى وجد زوجته مع رجل آخر فى الفراش ، فكان رأيُ الرسول أن عليه إحضار البينة أو يُحَدّ حدّ القذف ، فنزل الوحي بغير ذلك ، وكانت آيات الملاعنة (١٤) . ومثل ذلك رأيه عليه السلام فيمن ظاهر من زوجته ، إذ عَدّ النبيُّ ذلك طلاقا ، فنزل الوحي بغير ذلك (١٥) .

ويجرى هذا المجرى أن القرآن قد خاطب النبى فى مواضع عدة بلغة عنيفة ، كما فى قوله : « أمّا من استغنَى * فأنت له تَصَدّى * وما عليك ألا يزكّى * وأما من جاءك يَسْعَى * وهو يَخْشَى * فأنت

---

(١٢) انظر ، فى نفوره من لحم الضب ، الشوكانى مثلا / مجلد ٤ / ج ٨ / ص ١١٨ .

(١٣) انظر الآيات الأولى من سورة : « عبس » وسبب نزولها .

(١٤) انظر الآيات / ٦ ـ ٩ من سورة « النور » وسبب نزولها .

(١٥) انظر الآيات الأولى من سورة « قد سمع » وسبب نزولها .

عنه تَلَهَّى * كلا ، إنها تذكرة * فمن شاء ذكره » (عبس / ٥ ـ ١٢) ، وكما فى آيات سورة « الأنفال » التى نزلت تعاتبه عليه السلام لأخذه الفدية من أسرى بدر بدلا من قتلهم ، والتى انتهت بهذه الآية الشديدة : « لَوْلا كتابٌ من الله سبق لَمَسَّكُم فيما أخذتم عَذَابٌ عظيم » (١٦) . ولكى يدرك القارئ عنف هذا العتاب أرجو أن يقابل بينه وبين ما قاله الوحى فى حق أصحاب الإفك : « ولولا فَضْلُ اللّه عليكم ورحمتُه فى الدنيا والآخرة لَمَسَّكم فيما أَفَضْتُمْ فيه عَذَابٌ عظيم » (١٧) . ونفس هذا العتاب العنيف نجده فى آية سورة « التوبة » ، إذ صمم الرسول على الصلاة على ابن أُبَىّ رأس النفاق حين مات بينما عمر يمنعه ويجذبه من ردائه ، فنزل القرآن صادعا : « استَغفِرْ لهم أوْ لا تَسْتَغفِرْ لهم . إن تستغفر لهم سبعين مرةً فلن يغفر الله لهم »(١٨) . وليس بالقليل أن يخاطب الوحى النبى الذى يبلّغ هو نفسه هذا الوحى قائلاً : « إنك مهما تستغفر لهم فلن يُقْبَل لك استغفار » . ولا يعتقدَنّ أى إنسان أن الرسول إنما تظاهر بأنه يريد أن يصلى على ابن أُبَىّ تمثيلا منه وخداعا ، إذ السؤال هو : وعلى من كان يريد التمثيل ؟ إن ابن هذا الرجل نفسه قد عرض

---

(١٦) الأنفال / ٦٨ .

(١٧) النور / ١٤ .

(١٨) التوبة / ٨٠ .

على النبى قبل ذلك أن يقتله بيده ، ولكن رسول الله رفض . كما أن رأى الرسول فى المنافقين بعامة ، وفى أشخاص منهم بأعيانهم بوجه خاص ، كان واضحا لا مداراة فيه . ولكنى أحسب أن الرسول كان مع ذلك يعطف على الضعف البشرى عند ابن أُبَىّ ، إذ كاد هذا الرجل أن يُتَوَّج مَلِكا على المدينة لولا قدوم الرسول مهاجرا إليها فى ذلك الوقت . فيبدو لى أن الرسول ذا القلب الكبير كان يفهم دوافع السخط عند هذا الرجل ويغفر له مؤامراته عليه وإيذاءه له[19] . ومما نزل من وحى عنيف متعلق بالنبى عليه السلام ما جاء فى سورة « الحاقة » : « ولو تَقَوَّل علينا بَعْضَ الأقاويل * لأخَذْنا منه باليمين * ثم لقَطَعْنا منه الوَتِين » [20] ، وهو ما يقابل تعبيرنا العامى : « أقْطَع له رقبته » ، فهل هذه أيضا رغبة مدفونة فى طوايا نفسيته عليه السلام شقت طريقها إلى الوحى ؟ ويشبهها آيتا سورة «الإسراء» (٧٤ ـ ٧٥) : « ولولا أنْ ثَبَّتْنَاك لقد كِدْتَ تَرْكَنُ إليهم شيئا قليلا * إذن لأذقناك ضِعْفَ الحياة وضِعْفَ المِمات ثم لا تَجِدُ لك علينا نصيراً » .

إن نظرية اللاوعى عند فرويد تعجز عن تفسير ما سبق ، كما

---

(١٩) انظر ابن هشام / ٢ / ١٦٦ .

(٢٠) الآيات / ٤٤ ـ ٤٦ .

تعجز أيضا عن تفسير آيات الوحى التى تعلن بصريح العبارة علم الله برغبة النبى فى هذا الأمر أو ذاك ، وأنه لذلك قد حققه له. اقرأ : « قد نَرى تقلُّبَ وجهِكَ في السماءِ فَلَنولينكَ قبلة ترضاها ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجِدِ الحَرَامِ » (٢١) ، « تُرْجِي مَنْ تَشاء منهُنَّ وتُؤوى إليكَ مَنْ تشاء ، ومَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّن عَزَلْتَ فلا جُناحَ عليكَ . ذلك أدنى أن تَقَرَّ أعينُهُنَّ ولا يَحْزَنَّ ، ويَرْضَيْنَ بما آتيتَهُن » (٢٢) ، « وما كان لكم أن تؤذُوا رسول اللهِ ولا أَنْ تَنْكحوا أَزْواجَه مِنْ بَعْدِه أبدا . إنَّ ذلكم كان عِنْدَ اللهِ عظيماً » (٢٣) . إن هذا هو الوعى كلّ الوعى ، فكيف يقال عنه إنه لاوعى ؟ (٢٤) وامتدادا لتفسير

---

(٢١) البقرة / ١٤٤ .

(٢٢) الأحزاب / ٥١ .

(٢٣) الأحزاب / ٥٣ .

(٢٤) انظر فى اللاوعى أو اللاشعور، « دائرة المعارف البريطانية » / مواد "Freudism School" , "History of Psychology", "psychoanalysis"، وكذلك « معجم العلوم الاجتماعية » (تصدير ومراجعة د . إبراهيم مدكور) / مواد « اللاشعور » و « الأنا » و « الأنا الأعلى » و الـ « كبت » و الـ « هو » و «حيل الدفاع » . وانظر فى « قاموس علم الاجتماع » (د . محمد عاطف غيث) / مادة « اللاشعور » . وانظر أيضا مادة " Unconscious " فى " A Dictionary of Psychology " و"A Critical Dictionary of Psychoanalysis" ، وذلك كله إن سلمنا بصحة نظرية فرويد أصلا ، فإن هناك مدارس أخرى لا تتفق معه ولها نظرياتها ومناهجها الخاصة بها ، مثل المدرسة السلوكية والاتجاه الجشطالتى .

الوحى بنظرية اللاوعى يعُدّ رودنسون شكّ الرسول فى الوحى أول نزوله عليه دليلا على أن مصدر الوحى إنسانى (٢٥) ، مع أن العكس هو الصحيح ، إذ إن الشخص الذى يتصرف هذا التصرف أو ذاك بدافع من رغباته المدفونة فى لاوعيه لا يشتبه أدنى اشتباه فى مثل هذه الدوافع المكبوتة ، ولكن قد يستطيع مع مرور الأيام أن يدرك الحقيقة عن طريق التحليل النفسى الذى يساعده فيه الطبيب المعالج على استرجاع أحداث ماضيه المطمورة فى لاوعيه . وهذا طبعا بناء على طريقة التحليل النفسى الفرويدى ، التى قلت إنها ليست هى الاتجاه الوحيد فى ميدان علم النفس .

ومع ذلك فلنستمر مع المستشرقين إلى آخر المطاف . إن بوكيه مثلا يؤكد أن ما رآه النبى فى الغار لم يكن إلا وهما . وهو يعزو هذا الوهم إلى أحزانه الشديدة بسبب موت ولديه (٢٦) ، بينما يُرجع لودى ذلك إلى موت ابنه وكِبَر سن زوجته والعزلة التى كانت تلفّه فوق الجبل وخوفه من الجنّ . أى أن ذلك هو الذى جعل محمدا يتوهم رؤية الملاك ويحس به وهو يغطّه ثلاث مرات (٢٧) . ويسوق لودى هنا ملاحظات بلاشير من أن الوحى كان يأتيه عليه السلام

---

(٢٥) رودنسون / ٢١٩ .

(٢٦) بوكيه / ٢٦٦ .

(٢٧) لودى / ١١٠ .

ليلا عندما يبلغ منه الإرهاق مبلغه [٢٨] . أما رودنسون فإنه ، مع اعترافه بأن زواج محمد وخديجة كان زواجا سعيدا ، يرى أنه عليه السلام لم يكتف بهذه السعادة المتاحة ، بل كان يتطلع إلى المستحيل . ولكن لماذا ؟ إن السر عند هذا المستشرق يكمن فى يتمه وفقره وإحباطه ، فقد فشلت خديجة فى أن تعطيه ورثةً ذكورا ، الأمر الذى عرّضه لسخرية الناس ودفعه إلى البحث عن طريقة يُظهِر بها أهميته لهؤلاء الذين كانوا يتهكمون به ويحتقرونه ، فضلا عن أنه كان يريد الانتقام من الأغنياء[٢٩] . ولعل وجهة نظر كايتانى تأتى فى موضعها هنا ، إذ من رأيه أن الرسول عليه السلام لم يكن ينتمى إلى أسرة شريفة ، بدليل ما ورد فى القرآن عن فقره [٣٠] . وقريب من هذا ما قاله لودى من أن يتْم محمد والقسوة التى عومل بها فى صغره هما اللذان أوحيا له آيات مثل : « كلاَّ ، بل لا تُكْرِمون اليَتيم » (الفجر / ١٧) .

والحقيقة أن هذا ليس إلا خبط عشواء ، فمن ذا الذى أخبر هؤلاء المحلّلين النفسانيين أن محمدا كان شقيا بزواجه من خديجة ؟ إن رودنسون ، كما رأينا، يعترف بأن ذلك الزواج كان زواجا سعيدا.

---

(٢٨) المرجع السابق / ٤٧ .

(٢٩) رودنسون / ٥٠ ـ ٥٤ ، ٦٧ .

(٣٠) انظر هبى / ٨٠ .

ومثله في ذلك ألفريد جيوم (٣١) ومستشرقون آخرون . ونحن حين نقول هذا لا نحاول أن نضرب آراءهم بعضها ببعض ، ولكننا نريد أن نبين للقارئ كيف أن بعض هؤلاء المستشرقين يتجاهلون الحقائق التاريخية الناصعة ، فمن الثابت الذى لا يقبل شكا ولا مراءً أن خديجة ظلت فى قلب النبى إلى آخر عمره ، ولم تستطع عائشة الصغيرة بنت أعزّ أصدقائه أن تنسيه إياها بل ولا أن تفوز من قلبه بنفس الحب الذى كان يكنه لها رضى الله عن الاثنتين كلتيهما . وثمة حديث مشهور تحاول فيه عائشة على عادة الضرائر (وبخاصة إذا كانت الضرَّة صغيرةً مدللة كعائشة رضى الله عنها) أن تغض من قدر ضرتها المتوفاة وتنال من جمالها ، فيُقسم لها الرسول حاسما غير موارب بأن الله لم يبدله خيرا من خديجة ، ثم يأخذ فى تعديد فضائلها التى لا تستطيع واحدة من بنات حواء أن تنافسها فيها (٣٢). ومعروفة قصة القلادة التى أرسلتها زينب بنت الرسول لتَفْتَكَّ بها زوجَها العاص بن الربيع ، الذى وقع أسيرا فى أيدى المسلمين ، وكانت خديجة قد أهدت تلك القلادة لابنتها عند زواجها . لقد خفق قلب محمد بقوة عندما وقعت عينه على هذه القلادة لما أثارته فى نفسه الطاهرة الوفية من ذكريات الحب والحنان

---

(٣١) انظر جيوم / ٢٧ .

(٣٢) انظر مثلا مسلم / ٢ / ٣٦٩ ـ ٢٧١ .

اللذين أغدقتهما خديجة عليه إغداقا [٣٣] . إن أقل ما يمكن أن يوصف به كلام بعض المستشرقين عن محمد وخديجة أنه قلة ذوق وامتهانٌ لأقدس العواطف الإنسانية وأطهرها . وليس من المقبول أبدا أن يتدنى بعض الناس في أحقادهم على عظماء البشرية إلى هذا الدرك الأسفل من ليّ عنق التاريخ وتحريف وقائعه عن مواضعها . وَهَبْ أن محمدا كان ينفر من خديجة فلِمَ لَمْ يتزوج عليها ؟ وهَبْهُ كان يخشاها لمالها وشرفها في قومها ، أفكان عاجزا أن يُرْوِى غلة ظمئه إلى مفاتن الجنس عند بغايا مكة ؟ إنه لم يكن ليحتاج آنئذ إلى اختراع وَحْيٍ يُحِلّ له ذلك ، فإن شرعة الجاهلية كانت تبارك البغاء . إن بعض المستشرقين يزعمون أن كلامه ﷺ عن الحور العين في نصوص الوحي المكى راجع إلى هذا الحرمان ، وأنه بعد الهجرة وإروائه ظمأه بالزواج بأكثر من واحدة قد كفّ عن ذكرهن [٣٤]. والذين يقولون هذا يغفلون عن أن أوصاف الحور العين كما جاءت في القرآن والحديث لا تستثير الشهوات ، فهي أوصاف قليلة وعامة . كما أن القرآن يصفهن بأنهن قاصرات الطَّرْف وأنهن مقصورات في الخيام [٣٥] . أما تفسير نبوته بأنها كانت تنفيسا عن حقده على

---

(٣٣) انظر ابن هشام / ٢ / ٢١٣ ـ ٢١٥ .

(٣٤) انظر لودى / ١١٤ ، ١١٧ ـ ١١٨ .

(٣٥) الرحمن / ٥٦ ، ٧٤ .

أغنياء قومه فهو يتطلب منا أن نلوى عنق التاريخ مرة أخرى كى ننسى أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن طالب مال بل كان فيه من الزاهدين . وحتى لو افترضنا أنه كان يسعى وراء الثراء فهل يجب علينا أن نفترض أيضاً أن خديجة لم تكن من أثرياء قومها وأنها قد وضعت ثروتها وحياتها كلها بين يدى زوجها ليصبح بذلك من أغنياء مكة ؟ إن شهادة إرفنج هنا تكفى (٣٦) . أما ما يزعمه كايتانى من أن ما ورد فى القرآن عن فقره عليه السلام دليل على أنه لم يكن ينتمى إلى أسرة شريفة فهو، فضلا عن مجافاته حقائق التاريخ ، يجافى المنطق وواقع الحياة من حولنا ، إذ من قال إن الأسر العريقة لا بد أن تظل طول عمرها غنية جيلا بعد جيل ؟ ثم ما أكثر الأثرياء الذين يوسَمون بأنهم « مُحْدَثو نعمة » . إن ادعاء رودنسون بأنه كان يريد الانتقام من الأغنياء لهو ادّعاء باطل ، فهو عليه السلام حين دانت له الدنيا لم ينتزع من الأغنياء أموالهم ولم يحاول أن يذلّهم كما يفعل صغار النفوس الأذلاء الذين ابتُلوا بعُقَد النقص ويريدون أن يداروها وراء الدعوات المثالية ، ولكنه ساوى فى حبه وصداقته ودعوته التى نزلت عليه من السماء بين الغنى والفقير ما دام كلاهما مؤمنا يخاف ربه وينصر دينه ويضحى فى

(٣٦) إرفنج / ٢٩ .

سبيله (٣٧) . وكما لو كان إرفنج يرد على هذا الادعاء نراه يقول عن الرسول : « إن زواجه بخديجة قد جعله فى عداد الأثرياء ، كما أنه فى السنوات السابقة على نزول الوحى لم يُبدِ أية رغبة فى زيادة ثروته . ثم أى شرف كان يسعى وراءه ؟ لقد كان مقامه بين قومه رفيعا لرجاحة عقله وطهارة ذمته . إنه من قبيلة قريش الشهيرة ، التى كان ينتمى إلى أكرم فرع فيها ، كما أن سدانة الكعبة والزعامة فى مكة كانتا فى أيدى أسرته » (٣٨) . كذلك فإن النبى قد زوج بناته لرجال ذوى مكانة ملحوظة فى قومهم ، إذ تزوج زَيْنَبَ أبو العاص ابن الربيع، وكان شابا غنيا شريفا ، وتزوج رقيةَ وأمَّ كلثوم ابنا عمه أبى لهب ، الذى كان من أغنياء قومه وذوى المنزلة فيهم ، وإن كانا طلقاهما بعد البعثة فتزوجهما عثمان الغنى النبيل واحدة بعد الأخرى ، وهو مايدل على شرفه عليه السلام وعلو قدره بين قومه وأنه لم يكن يعانى من إحساس بالنقص تجاه الأغنياء أو الأقوياء(٣٩) . كذلك فإن الذين يَعْزُون نبوته إلى تأثير موت ذريته من الذكور (ولدا أو اثنين أو ثلاثة حسب اختلاف الروايات) يخطئون خطأ فاحشا ، فإن رسول الله ﷺ لم تبدر منه كلمة واحدة

---

(٣٧) انظر فى هذه النقطة إرفنج / ١٩٣ .

(٣٨) المرجع السابق / ١٩٥ .

(٣٩) انظر مرجليوث / ٤٥ .

تشى بضيقه من ذريته الإناث ، بل كان يحب بناته أشد الحب ، ويحب كذلك أولادهن وبناتهن ، لا فرق بين ولدٍ كالحسن والحسين ، وبنتٍ كأمامة بنت زينب . كما حمل الوحى حملة شعواء على من يئدون بناتهم وسفّه عقولهم وتوعدهم بعذاب يوم القيامة أليم . وأشد من هؤلاء المستشرقين خطأ أولئك الذين يجعلون تهكم قريش بموت عَقِبه من الذكور سابقا على الوحى وسببا من أسباب توهمه عليه السلام أنه رسول يُوحَى إليه ، فإن سورة «الكوثر» ليست أول ما نزل من الوحى بل سبقتها نصوص قرآنية متعددة ، ومعنى ذلك أن هذا التهكم لم يحدث إلا بعد النبوة. وهذا منطقى تماما لأنهم فى الجاهلية كانوا يحترمونه ويودُّونه ، ولم يثبت أنهم آذَوْه آنذاك بشىء . إنما ابتدأ الإيذاء بعد مجيئه عليه السلام بدين جديد يسفّه عقائدهم وآلهتهم ونظامهم الاجتماعى وأحلام أسلافهم. وكذلك غير صحيح أن الرسول قد عانى من القسوة بعد موت أبويه ، فقد كان له من حنان جده ثم عمه رغم فقره ما عوّضه عن شىء غير قليل مما فقده من عطف الأب والأم . والدليل على ذلك أننا لم نسمع من النبى عليه الصلاة والسلام ، على رغم صراحته فى الحديث عن ماضيه ورعيه الغنم وما إلى ذلك ، كلمة واحدة عن هذه القسوة المدّعاة ، بل لم نسمعه قط يذكر هذا الماضى بشىء من المرارة . والقرآن نفسه يَمُنّ عليه بأن الله قد آواه فى يتمه

(الضحى / ٦) . ولا يمكن لمن يفهم العربية أن يفسر هذا الإيواء والمنّ بأنه قد قاسى فى يتمه كثيرا . ويبقى من يعزو رؤيته جبريل فى الغار إلى تأثير العزلة والخوف من العفاريت . وهو تفسير مضحك لا رأس له ولا ذيل ، إذ لو كان الرسول يخاف من العزلة ويحسّ لها فى قلبه كل هذه الرهبة ، فما الذى كان يضطره إلى تَوَخّيها ليالىَ ذاتَ عددٍ كل عام ؟ ثم لو افترضنا أنه أخطأ فى البداية باللجوء إلى الغار والاعتزال فيه ، فما الذى حَدَا به إلى الرجوع إليه مرة بعد مرة بعد أن وقع المحذور وظهرت له العفاريت ؟ (٤٠) أم كيف نفسر استمرار ظهور الوحى له على مدى ثلاثة وعشرين عاما ، وهو فى معظم الأحيان بين أتباعه وفى عز النهار، فلا عزلة ولا خوف من عفاريت ولا إرهاق من سهر الليالى ؟

وبالمثل فإن تفسير الوحى بأنه عبارة عن طفو أفكاره التى استقاها من مصادر خارجية واختزنت فى هامش الشعور(Subconscious) هو تفسير غير مقبول ، لأنه لا يقول لنا ما العلاقة بين أفكار موجودة فى هامش الشعور وبين تخيل صاحب هذه الأفكار أنه يرى ملَكًا ويسمع

(٤٠) انظر البخارى / ٤ / ٢٠٨ ، حيث يقول إنه عليه السلام حين فتر عنه الوحى كان يأتى شواهق الجبال يهمّ بأن يلقى نفسه منها ، فكان جبريل يتراءى له بين السماء والأرض قائلا : أنت رسول الله ، وأنا جبريل .

وحيا . إننا جميعا نختزن أفكارا لا حصر لها فى هامش شعورنا ، ومع ذلك فإنها لا تتحول فى أبصارنا إلى ملائكة سماوية ولا فى آذاننا إلى أصوات علوية ، فضلا عن الأعراض التى تصاحب هذه العملية والتى سنتعرض لها فى الفصل التالى (٤١).

وهَبْ أن الرسول كان فعلا كما زعم هؤلاء المستشرقون ، فهل النتيجة التى تلزم عن ذلك هى أن يتوهم أن الوحى قد نزل عليه وأنه أصبح نبيا ؟ ألم يكن يوجد فى مكة وفى الجزيرة العربية مئات على الأقل ممن يشابهونه فى يتمه وفى فقده أولاده وكبر سن زوجته ... إلخ؟ فلِمَ لَمْ يتوهم هؤلاء أن الوحى يتنزل عليهم ؟ قد يقال : «ولكن مسيلمة وطُلَيْحة وسجاح والأسود العنسى قد ادَّعَوا النبوة » . لكن بغض النظر عن أن ظروف كل منهم مختلفة عن ظروف الرسول فإن الرد على ذلك سهل ، فقد ثبت كذب هؤلاء جميعا ، إذ إنهم إمّا قد أسلموا أوّلاً ثم ادعوا النبوة ، وإمّا قد رجعوا عن ادعائهم النبوة ودخلوا فى الإسلام ، وإما أسلموا أوّلا ثم عادوا إلى الإسلام بعد أن ارتدوا وتنبأوا . وفوق ذلك فإن أخلاقهم ومبادئهم

---

(٤١) انظر فى هذا التفسير " Shorter Encyclopaedia of Islam " / مادة" Muhammad " . وإذا كان كاتب هذه المادة يستخدم مصطلح "Subconscious" هنا بمعنى الـ " Unconscious " فقد سبق الرد على ذلك مفصلا .

التى دعوا إليها تشير أجلى إشارة إلى أنهم كانوا كَذَبَةً أَشِرين . ليس هذا فحسب ، بل إننا أيضا نفتقد فى حالتهم المقياس الخارجى المتوفر فى حالة محمد عليه الصلاة والسلام كما سيأتى ذكره فى هذا الفصل وكما سوف نناقشه بالتفصيل فى الفصل التالى .

وإذا كنا قد رأينا من خلال وقائع حياة الرسول قبل البعثة وسمات شخصيته ﷺ أن من المستحيل أن يكون السبب اللاشعورى لتوهمه (على حسب ادعاء أعدائه) نزول الوحى عليه وأنه أصبح نبيا هو رغبته فى احتياز الثروات أو السعى وراء السلطان لتأكيد ذاته بين قومه ، الذين كانوا يحتقرونه ويتهكمون به على زعم نفر من المستشرقين (٤٢) ، فإننا نحب أن ننظركذلك فى وقائع حياته وسمات شخصيته بعد أن اعتُرِف به نبيا وأصبح إلى جانب ذلك زعيما لدولة أخذ نفوذها يمتد حثيثا حتى شمل الجزيرة العربية كلها عشية وفاته صلوات الله وسلامه عليه ، لنرى إلى أى مدى

(٤٢) لن أتحدث عن اتهام المستشرقين للرسول بأن الشهوة الجنسية كانت أحد العوامل وراء توهمه النبوة ، لأنى سبق أن ناقشت المزاعم المتعلقة بها فى الفصل السابق ، وإن جاءت مناقشتى لها هناك فى إطار الشبهة التى تتهمه صلوات الله عليه بالكذب العمد فى ادعاء النبوة . ويستطيع القارئ أن يجرد تلك المناقشة من إطارها وينقلها إلى الإطار الذى نتحرك فى داخله الآن ، وهو إطار الشبهة الثانية ، شبهة التوهم والانخداع .

تصدّق هذه السمات وتلك الوقائع أو تكذّب ما يدعيه هؤلاء المستشرقون .

ولنبدأ أولا بموقفه من المال . ومعروف أن النبى عليه السلام كان يحصل على الخمس مما يحرزه المسلمون فى غزواتهم من غنائم. وبرغم ذلك فإنه عليه السلام لم يكن غنيا فى يوم من الأيام، وتفسير ذلك يسير جدّ يسير ، وقد شرحه صلوات الله عليه بقوله: إنه ليس له من مال المسلمين إلا الخمس، والخمس مردود عليهم(٤٣): ينفق منه على تجهيز الغزوات وعلى استضافة الوفود (٤٤) وعلى المحتاجين الذين لا يجدون شيئا (٤٥) وعلى إعتاق الأرقاء (بشرائهم وافتكاك رقابهم من قيود العبودية) (٤٦) وفى المساهمة فى نفقات الحج لمن ليس عنده مال (٤٧) ودفع الكفارة عمن لا يملك قيمتها (٤٨) . فإذا جاءه إنسان فلم يجد ما يعطيه استنظره

---

(٤٣) انظر ابن هشام / ٤ / ١٠١ ، والموطأ / ٢ / ١٤ .

(٤٤) انظر مثلا ابن هشام / ٤ / ١٣٧ .

(٤٥) انظر مثلا الشوكانى / مجلد ٤ / ج ٨ / ص ٧٣ .

(٤٦) انظر ابن هشام / ١ / ٢٠٣ .

(٤٧) الشوكانى / مجلد ٢ / ج ٤ / ص ١٧٠ .

(٤٨) انظر « الموطأ » / ١/ ٢٧٨ ، و٢ / ٧٨ ، حيث ورد أن النبى دفع مائة ناقة دية مسلم وُجِد قتيلا بين مساكن اليهود من غير أن تكون هناك بينة تقود إلى القاتل=

حتى يأتيه شيء فيعطيه منه (٤٩) . لقد كان عطاؤه كثيرا فى سبيل الله وفى خدمة الإسلام (٥٠) ، ومع ذلك كان يحدث أن يأتيه ضيف فلا يجد ما يضيفه به (٥١) ، بل لقد كان الجوع يبلغ منه مبلغًا يثير شفقة أصحابه عليه (٥٢) . وعلى رغم أنه لم يحرم نفسه من طيبات الطعام إذا تاحت له ، فإن عيشته بوجه عام كانت عيشة متقشفة ، كما كان فراشه خشنا (٥٣) . كذلك كان صداقه لزوجاته قليلا (٥٤) ، وكان لا يتحلى بالذهب أو يلبس الحرير أو الإستبرق (٥٥) .

فهذا هو مورده من المال ، وتلك هى جهات إنفاقه . أما الصدقة فإنه لم يمدّ يده قط إليها ، وأعلن بعبارة قاطعة أنه لا

= فوَدّاه هو عليه السلام من ماله ، الذى هو مال المسلمين ، أو مال «الخزانة العامة» بتعبير عصرنا الحديث .

(٤٩) رياض الصالحين / ١٧٥ .

(٥٠) انظر « رياض الصالحين » / ١٥٣ ـ ١٥٤ ، ١٧٢ ، ١٧٨ .

(٥١) المرجع السابق / ١٨١ .

(٥٢) السابق / ١٧١ .

(٥٣) انظر البخارى / ٣ / ٢٩٠ ـ ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ .

(٥٤) الشوكانى / مجلد ٣ / ج ٦ / ص ١٦٨ .

(٥٥) الموطأ / ٣ / ١١٨ ، ورياض الصالحين / ٢٣٤ ، والشوكانى / مجلد١ / ج ٢ / ص٨٠ ، ٨١ ، ومجلد ٢ / ج ٣ / ص ٢٨٣ .

يحل لبنى هاشم منها شيء (٥٦) . ورأى الحسن مرة وهو يمد يده يلتقط تمرة من تمر الصدقة فنهاه قائلا: كخ ! كخ! (٥٧) ليس ذلك فحسب ، بل إنه حرم على بنى هاشم جميعا العمل على الصدقات(٥٨) ، بل حرم ذلك على مولاه أبى رافع أيضا ، لأن مولى القوم ، كما قال صلوات الله عليه ، واحد منهم (٥٩) . وكان علىٌّ قليل المال حتى إنه اشتغل ذات مرة سقّاء عند بعض الناس فمَجِلت يدُه من شدّ الحبل والدلو ، وبرغم ذلك لم يحاول أن يستفيد من إصهاره للرسول ولا حاول الرسول أن يعطيه شيئا بصفة استثنائية(٦٠) . ومشهورةٌ تلك الرواية التى تحكى لنا قدوم فاطمة على أبيها حين علمت بوصول سبى إحدى الغزوات لعل أباها يعطيها خادماً يعينها على متاعب أشغال المنزل وكيف عادت صفرة اليدين، وإن جبَّر الوالدُ الأمينُ خاطرَ ابنته بتوجيهها إلى الحرص على مرضاة الله والإكثار من ذكره ، لأن هذا (كما بيّن لها) أفضل من أن يكون عندها خادم (٦١) . ومعنى هذا أنه لم يكن يريد المال

(٥٦) الشوكانى / مجلد ٢ / ج ٤ / ص ١٢٢ ، ومجلد ٣ / ج ٦ / ص ١٩ ، ٢٠ ، ورياض الصالحين / ١٨٦ ، ١٨٩ .

(٥٧) رياض الصالحين / ١٠٦ .

(٥٨) الشوكانى / مجلد ٢ / ج ٤ / ص ١٦٤ .

(٥٩) انظر الشوكانى / مجلد ٢ / ج ٤١ / ص ١٦٤ ، ١٧٤ ، ومجلد ٤ / ج ٨/ ص ٩٠ .

(٦٠) انظر الشوكانى / مجلد ٣ / ج ٥ / ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣ .

(٦١) البخارى / ٢ / ١٩٠ ، و ٣ / ٢٨٨ ، و ٤/ ١٠١ .

لنفسه ولا كان يجمعه لأولاده . وفوق ذلك فقد أعلن أن كل ما يتركه وراءه هو صدقة للمسلمين ، وذلك بعد استخراج نفقة نسائه ومؤنة عامله (٦٢). وكأنما كان الرسول عليه الصلاة والسلام يرد بذلك على من سيأتون بعد قرون متطاولة ويتهمونه بالرغبة فى حيازة الثروات تنفيسا عما تركه الفقر بنفسه من جراح وندوب (٦٣) .

فهذا عن المال وموقفه ﷺ منه بعد أن جرى المال أنهارا فى يديه ، أما بالنسبة لتصرفاته ومشاعره وهو فى قمة السلطة فإليك الحقائق التالية : لقد اشترك الرسول فى معظم الغزوات ، وكان باستطاعته ، بوصفه حاكم الدولة ، أن يبقى بالمدينة دائما بعيدا عن الخطر ، مكتفيا بممارسة مهنة السياسة ، تاركا المهام العسكرية

---

(٦٢) البخارى / ٢ / ١٨٨ ، وانظر « رياض الصالحين »/ ٣٥٥ ، والشوكانى / مجلد ٣ / ج ٦ / ص ٧٦ .

(٦٣) لست من رأى إخواننا الشيعة فى مسألة ميراث فاطمة مما تركه الرسول من مال، وإن لم يكن هذا هو المكان الملائم لمناقشة هذه المسألة . ومع ذلك فيكفى أن أشير إلى أنه لو كان ﷺ يورث كغيره من الناس فما الذى منعه أن يوسّع على فاطمة وزوجها وأولادها وهو حىٌّ من نفس المال الذى سيتركه فى النهاية لهم ؟ كذلك فإنى لا أستطيع أن أتصور أن أبا بكر يمكن أن يغمط فاطمة حقًا لها ، ولكنه حرصه على تنفيذ أوامر الشريعة . وفى الأحاديث الخاصة بالخلاف بين فاطمة وبينه رضى الله عنه حول هذه النقطة انظر البخارى / ٢ / ٣٠١ .

للجيش وقواده . ولكنه لم يكن طالب سلطان يسعى وراء الاستمتاع بالبقاء فى دست الحكم أطول فترة ممكنة ، بل كان يبذل كل جهده للتمكين لدين الله ونشر مبادئ الحق والعدل والمساواة . ونحن نعرف مثلا ما حدث له فى غزوة أُحُد بعد أن ظل يرمى بقوسه حتى انكسرت سِيَتُها ، وكيف شارك بنفسه فى حفر الخندق ، مما أجج عزائم المسلمين فانطلقوا يعملون فى الحفر بهمة وتَفَانٍ جاعلين اشتراك الرسول معهم موضوع رَجَزهم ، وكيف كان فى مقدمة السائرين إلى تبوك ، وكانت أشد الغزوات حَرًا وإرهاقا وأطولها مسافة .

ولم يتكبر عليه السلام يوما على أحد بالغا ما بلغت منزلته الاجتماعية من علو أو انحطاط ، فلم يُؤْثَر عنه أن أساء إلى مشاعر أحد من المسلمين . إنما كان لهم نِعْمَ الأخُ والأب والصديق . والمرة الوحيدة التى ذُكر فيها ، فيما أعلم ، أنه سبّ أحدا كانت يوم حذّر الصحابةَ أن يذوق أحدٌ منهم ماء من عين مَدْيَن ، فخالف اثنان من الجنود هذا التحذير (٦٤). بل كان لا يستنكف من أن ينزل أحيانا إلى قبر فيسوّيه ثم يتناول الميت ويدفنه بيده الكريمة (٦٥) . وفى مرة

---

(٦٤) انظر « الموطأ » / ١/ ١٦٠ . وانظر ، فى تواضعه رغم ما حققه من انتصارات وبلغه من نجاح ساحق ، إرفنج / ١٩٩ .

(٦٥) انظر مثلا الشوكانى / مجلد ٢ / ج ٤ / ص ٨٨ .

أخرى ماتت خادمة المسجد فلم يشأ أصحابه عليه السلام أن يخبروه ظنًا منهم أن شأن مثل هذه الخادمة لا يعنيه ودفنوها ، فلما علم بعد ذلك أنكر عليهم وذهب فصلى عليها (٦٦) . وكان يَسِمُ بيده الشريفة إبل الصَّدقة (٦٧) ، وكثيرا ما تحدث عن رعيه الغنم فى صباه غير واجدٍ فى الحديث عن ذلك أية منقصة ، وهذا شأن النفوس الكبيرة التى طهرها الله من عقدة النقص والدونية. وكان عليه السلام ينصت جيدا لكل من يكلمه فى أمر مهما يكن شأنه(٦٨) . وقد حدث أن استوقفته امرأة بلهاء ، فوقف معها حتى قالت كل ما عندها دون أن يزعجها أو يطردها (٦٩) . كما كان ﷺ يكره أن يُضْرَب الناس ليوسّعوا له الطريق كما يفعل العسكر حول الملوك (٧٠) . ومن تواضعه أنه ، وهو النبى ، صلى أكثر من مرة وراء بعض أصحابه ولم يجد فى ذلك أية غضاضة (٧١). ولم يكن عليه السلام من الجبارين ، بل إنه لم يضرب مرة خادما . وما زال أَنَسٌ ، رضى الله عنه ، حتى بعد وفاته بزمان طويل يذكر رقته المتناهية معه ، وكيف أنه لم يقل له يوما لشىء فعله لِمَ فَعَلَه ، ولا

(٦٦) انظر الشوكانى / مجلد ٢ / ج ٤ / ص ٥١ .

(٦٧) المرجع السابق / مجلد ٢ / ج ٤ / ص ١٥٧ .

(٦٨) انظر إرفنج / ١٩٣ .

(٦٩) انظر أمثلة أخرى لتواضعه فى « رياض الصالحين » / ١٩٢ فصاعداً .

(٧٠) الشوكانى / مجلد ٣١ / ج ٥ / ص ٤٨ .

(٧١) انظر مثلا ابن هشام / ٤ / ٢٢٢ .

لشيء تركه لِمَ تَرَكَه. وقد تحمل صلوات الله عليه سخافات عبد الله ابن أبي إلى أن مات ذلك المنافق الخبيث . عد ما منه على الضعف البشرى فيه ، إذ علم من الأنصار أنهم كانوا يجهّزون له التاج ليُمَلِّكوه عليهم لولا أنهم قابلوا النبى فى مكة واتفقوا معه على أن ينتقل إلى بلادهم . بل إنه عليه السلام كان يأخذ المنافقين على ظاهرهم رغم معرفته بنواياهم ورغم ما كان يبلغه عنهم من كلام فى حقه وحق المهاجرين (٧٢) . وضايقه الأعراب أكثر من مرة تعجُّلا منهم أن يقسّم غنائم الحرب فى الحال ، وشدوه مرة من ردائه فلم يعاقبهم بل طمأنهم على أنه لن يحتجن من حقوقهم شيئا لنفسه(٧٣) ، على حين لم يشأ أن يمر تصرّفٌ أخفّ من هذا ارتُكِبَ فى حق خالد بن الوليد بلا عقاب (٧٤) .

ولو كان ﷺ من طبعه الاستبداد والغطرسة لما شاور أحداً من أتباعه فى شيء من شؤون السلم أو الحرب ، ولما قَبِل من أحد منهم أن يبدى رأيا يخالف رأيه (٧٥) . وكذلك لو كان عليه السلام

(٧٢) انظر مثلا ابن هشام / ٣ / ١٨٤ ، ١٨٥ و ٤ / ١٣٠ ، ١٤٤ ، والموطأ / ١/ ١٨٥ .

(٧٣) انظر ابن هشام / ٤/ ١٠١. وانظر حادثة مشابهة عند الشوكانى/ مجلد ١ / ج ١/ ص ٢٨٩ .

(٧٤) الشوكانى / مجلد ٤ / ج ٧ / ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ .

(٧٥) كما حدث فى تحديد الموقع الذى يصلح لأن يعسكر فيه المسلمون فى غزوة بدر مثلا (ابن هشام / ٢ / ١٩٢) .

طالبَ سُلْطَة لورثها لأحد من أهل بيته (٧٦) . أكثر من هذا أنه نهى أن يُطْرِيه المسلمون كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ، فهو ليس إلا عبد الله ورسوله (٧٧). ومن هذا ، وهو قليل من كثير ، يثبت أن الرسول لم يسع وراء السلطة أو المال . لا ، ولم يغيره المال ولا السلطة فى شىء حين بلغ منهما منتهاهما .

والآن بعد أن نسفنا نسْفاً التفسير الذى يعزو ظاهرة الوحى المحمدى إلى « اللاوعى » يجب أن نؤكد أن الرغبات المكبوتة فى «اللاوعى » (إن صحت نظرية فرويد) لا يترتب عليها أن يرى الإنسان ملاكا يحمل إليه رسالة سماوية ، إذ إن الطريق الطبيعى لخروج هذه الرغبات هو انبثاقها ، على غير إرادة من صاحبها وعن غير وعى منه ، وتسربها إلى أفكاره وتصرفاته . أما توهم رؤية ما لا

---

(٧٦) أما بالنسبة لما يقوله الشيعة فى سبب نزول قوله تعالى : « يا أيها الرسول ، بَلِّغْ ما أُنزِل إليك من ربك ... » (المائدة / ٦٧) فإن أمرا خطيرا كهذا لا بد له من نص واضح قاطع الدلالة ، فضلا عن أن توريث السلطة لعلى أو غيره يخالف مبدأ الشورى ، التى جعلها القرآن من صفات المؤمنين والتى أمر الرسولَ نفسه بالحكم بها . ثم إن عصمة الأئمة ، وهى من المفاهيم الشيعية المرتبطة بمبدإ وراثة السلطة، أمر يصادم المنطق وتجارب الحياة وطاقات البشر . بل إن الأنبياء أنفسهم لم تُكْتَب لهم العصمة إلا فى نطاق تبليغ الوحى عن ربهم ، وإن لم يَعْنِ هذا أنهم يتساوَوْن مع غيرهم فى قدراتهم الروحية والأخلاقية ، فهم قمم لا تُطَاوَل .

(٧٧) انظر البخارى / ٢ / ٢٥٦ .

وجود له فهو حالة مرضية نعيذ محمدا عليه الصلاة والسلام منها ، فقد شهد له الأعداء قبل الأتباع بالاتزان العقلى والنفسى . بل إن رودنسون نفسه يعترف له بالهدوء والاتزان والثقة واستحواذه على إعجاب من حوله ، ويرد على من يتهمونه بالأمراض النفسية والعصبية (٧٨) . وهذا صحيح ، وإلا فكيف يا ترى نجح هذا النجاح الساحق فى دعوته وبناء دولته ؟ وكيف صنع على عينيه هؤلاء الرجال الأفذاذ الذين جندلوا أبطال فارس والروم ومزقوا دولتهم تمزيق الأسود الضوارى لفرائسها ؟ ومع ذلك فإن رودنسون هذا يعود فيعقد مقارنة بين ظاهرة الوحى عند نبينا الكريم ، عليه وعلى كل إخوانه الأنبياء أفضل الصلوات والتسليمات ، وبين تريزا دافيلا ، وهى معدودة عند النصارى الأوروبيين ، والأسبان بالذات ، قديسة من القديسات (٧٩) . والحقيقة أنى لا أدرى كيف سوغ رودنسون لنفسه هذه المقارنة الباطلة ، إذ إن حياة هذه القديسة تشهد بما كان يضطرم فى نفسها من اضطرابات وتقلبات : فهى تنحدر من أسرة نبيلة ورُبِّيَتْ تربية دينية صارمة ، وبلغ بها الحب الإلهى فى إحدى فوراته أن تركت منزل أبويها مع أحد إخوتها سعيا وراء الاستشهاد على

---

(٧٨) رودنسون / ٤٩ ـ ٥٣ .

(٧٩) المرجع السابق / ٧٠ . وقد عاشت تريزا دافيلا هذه من ١٥١٥م إلى ١٥٨٢م فى أسبانية .

أيدى المغاربة المسلمين ، إلا أن عمهما (أو خالهما ؟) قابلهما في الطريق فأعادهما إلى البيت . ولكن بعد موت الأم انغمست هذه الساعية إلى الاستشهاد في هذه السن الغضة في حياة الاستهتار تَعُبّ من متع الدنيا لتعود فتحس بمشاعرها الدينية تستيقظ عندما وضعها أبوها تحت رعاية الآباء الأوغسطينيين في التاسعة عشرة من عمرها (١٥٣٤م) . ومع ذلك فقد تكررت كثيرا عودتها إلى ملذات الحياة الزائلة برغم دخولها إحدى الطرق الدينية ، إلى أن قرأت اعترافات القديس أوغسطين (١٥٥٩م)، فثبتت قدميها على طريق الرهبنة وانطلقت تبنى أديرة للراهبات وتقوم بإصلاحات داخل الطريقة الكرملية التى كانت دخلتها من قبل [٨٠] . فها أنت ذا ترى اندفاعاتها المتطرفة والمتقلبة نحو الدين مرة ثم نحو العبث والاستهتار ولذائذ الحياة الدنيا مرة ، وهكذا دواليك . كذلك ينبغى أن نتنبه لأثر الكبت الجنسى الذى خضعت له عندما ترهبت ، فإن الجنس هو إحدى الغرائز الهامة فى حياتنا ، وهذه الغريزة لا بد لها من إشباع : فى العلن أو فى السر ، وإلا تعرضت حياة الشخص السوى للزوابع النفسية التى يمكن أن تقلب كيانه رأسا على عقب.

(٨٠) انظر مادة "Thérèse (Ste)" فى "Dictionnaire de Biographie, d'Histoire ... " ، وكذلك مادة "St. Teresa of Avilla " فى " Miniature Lives of the Saints ".

أما إذا كان العنصر الجنسى فى تركيب الشخص خامدا فإن هذا يدل على شذوذ تكوينه العضوى الذى لا بد أن يلقى بظله على تركيبته النفسية . وليس بخاف علينا أن كثيرا جدا جدا من الرهبان لم يستطيعوا أن يخضعوا لهذا الحرمان القاسى الذى لم يأمر به دين سماوى فكانت لهم انحرافات منتنة بلغت حدَّ اتخاذ نفر من البابوات أخواتهم عشيقات لهم . فإذا أضيف إلى ذلك ضَعْفُ صحة هذه المرأة ، وحياة التقشف العنيف الذى كانت تمارسه ، والعداوة التى واجهتها من رجال الدين أنفسهم ، وأنها لم تكن من كبر العقل بحيث تستقل بالتفكير فى أمور الدين ، بل كانت تخضع للطاعة المطلقة للقساوسة الذين يتلقون اعترافاتها ويقدمون لها النصائح (٨١) ، أمكننا أن ندرك سر تطرفها فى التدين وكذلك أوهامها العجيبة مثل تخيلها أن صليب مسبحتها الذى كان قد اختُطِفَ منها ثم أُعيد إليها مصنوع من الجواهر الثمينة التى لم يكن يستطيع أن يراها مع ذلك أحد غيرها ! (٨٢) إن هذه الظروف التى أشرت إليها آنفا ، واعتياد هذه المرأة ضرب نفسها بالسوط ، ولبسها

---

(٨١) انظر مادة "St.Teresa of Avilla" فى "Miniature Lives Of the Saints " ، وكذلك مادة "Teresa " فى " Chamber's Biographical Dictionary ".

(٨٢) انظر « دائرة المعارف البريطانية » / مادة ". Teresa St".

رداء من الشعر يؤلم جلد من يلبسه أشد الإيلام ، وغير ذلك من الأمور التى جعلت أحد القساوسة الذين يتلقون اعترافاتها يقول لزميل له : « لقد خدعتنى حين قلت لى إنها امرأة . إنها رجل ملتح» (٨٣) ، كل ذلك يفسر لنا من تصرفاتها وشخصيتها الكثير. ومن أوهامها المضحكة أنها كانت تعزو الألم الحاد الذى كانت تشعر به أحيانا كثيرة فى جنبها إلى أن ملَكاً من الملائكة قد أتاها وطعنها فى قلبها برمح سِنُّه من نار (٨٤) . وهذا الوهم وحده كفيل بتدمير ثقتنا بهذه المرأة ، فإن الملائكة بناء على المفهوم الدينى هى مخلوقات خيّرة ، فكيف يُقْدِم أحدها على هذه الفعلة الشنعاء بإحدى القديسات؟ إن الملائكة لا تفعل ذلك إلا بالأشرار. هذا عن الكائنات الغيبية التى كانت تتوهم أنها تراها ، أما الأشياء المادية فلا يحق لأحد أن يدعى أنه يراها على نحو غير الذى يراها عليه كل الناس الأسوياء ، ومن هنا فإننا نرفض حكاية الصليب الذى كانت تتوهم أنه مصنوع من الأحجار الثمينة والذى لم يكن يراه أحد غيرها ، اللهم إلا إذا كانت تكذب ، وهذا ممكن جدا ، فإن حياتها الماضية لا تشجع على الاطمئنان إلى أقوالها . وعلى هذا فإننا لا نرى وجها للمقارنة بين نبينا الكريم عليه صلوات الله وسلامه وبين سانت تريزا

---

(٨٣) المرجع السابق / نفس المادة .

(٨٤) السابق / نفس المادة .

داڤيلا ، إذ إن هناك ثلاث مَصَافٍ لا بد أن تمر بها حياة وشخصية أى إنسان يدّعى أنه يوحى إليه أو يرى مخلوقات من عالم الغيب : أولاها التحقق من صدقه ، والثانية التحقق من أنه لا يجوز عليه الوهم ، وثالثها أن تكون هناك أعراض مصاحبة للوحى لا يمكن تفسيرها على أساس أنها مرض أو تصنع ، وهو ما سوف نعرض له بعد قليل. وليس فى حياة هذه القديسة أى ضمان من هذه الضمانات الثلاثة . ومن وجهة التفكير العقلى المجرد فإنى أرى أن إيمانها بألوهية السيد المسيح ، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، كافٍ وحده لرفض كل ادعاءاتها سواء كانت فعلا تعتقد فيها أو تتقولها كذبا وبهتانا ، إذ لا يمكن أبدا أن نقبل ألوهية واحد مثلنا من البشر مهما كان شأنه . إن الله سبحانه هو المطلق الذى لا يحدّه مكان ولا زمان ، ويعلو فوق الضرورات والقوانين ، ولا يمكن أن يتجسد أو يتّحد بأى شىء أو أى شخص . ومن يَقُلْ بغير ذلك لا تُقْبَل عندنا مزاعمه عن تلقى الوحى أو ظهور الرؤى له ، وبخاصة إذا كانت حياته وشخصيته بهذا التقلب والاضطراب ، وكان عقله بهذا الضعف والتهافت ، وكان سلوكه متطرفا على هذا النحو الخطر . فإذا وجدنا أن كلامه متناقض لا يمكن التوفيق بين بعضه وبعض كانت تلك ثالثة الأثافى . خذ مثلا قولها: « إن النفس تكون أبعد ما تكون عن توقع ظهور رؤيا ، وفجأة

تظهر صورة الرب في تمامها ، مخضعةً كل الحواس ومالئةً إياها بالخوف والتوجس ، اللذين تترجمهما فى التو واللحظة إلى سلام بهيج » (٨٥) ، وقابله بإجابتها على سؤال متلقّى اعترافاتها لها: «مادمت لا تَرَيْنَ شيئا فكيف تعرفين أنه الرب ؟ » ، إذ قالت إنها لا تعرف كيف ، وإنها لم تَر وجها . وكذلك لا يمكنها إضافة أى شىء آخر إلى ما قالته قبلا من أنها عرفت أن ربنا هو الذى تحدث إليها وأن ذلك لم يكن وهما... أما بالنسبة للكلمات التى قالها فإنها لم تكن تسمعها حين كانت تريد ذلك ، بل فى الأوقات التى لم تكن تفكر فيها وحين يكون ذلك ضروريا . « إن الإنسان لا يرى شيئا لا فى داخل نفسه ولا خارجها ، ولكن برغم أنه لا يرى شيئا فإن النفس تفهم ما هو ذلك الشىء وأين هو أوضح مما لو رآه ... إن النفس لا تسمع أية كلمة لا من داخلها ولا من خارجها ، ولكنها تفهم بوضوح كافٍ من هو وأين هو ، وأحيانا أيضا ماذا يريد أن يقول . أما كيف وبأية وسيلة تفهم النفس ذلك فإنها لا تعرف ، ولكن هكذا الأمر... » (٨٦) .

إن التناقض واضح فى هذا الكلام الذى لم يروه عنها أحد فيقال إنه غير صحيح ، بل هى التى كتبته بيدها (٨٧) . إنها تقول

---

(٨٦) المرجع السابق / ٧٤ .

(٨٧) فى كتابها "Castillo Interior" .

مرة إنها رأت وجه ربها (تقصد المسيح . أستغفر الله !) ، ومرة إنها لم تر شيئا ، ومرة إنها سمعت كلاما ، ومرة إنها لم تسمع شيئاً . لهـذا كله نرى ألا معنى للمقارنة بين هذه المرأة وبين النبى عليه أفضل الصلاة والسلام .

وفى نهاية هذا الفصل نلخص ما جاء فيه حتى تتضح للقارئ خطوطه العامة فنقول : إن الوحي المحمدى لا يمكن أن يكون تعبيراً عن رغبات اللاوعى عند الرسول عليه السلام ، فلا ماضيه قبل البعثة ولا حياته بعدها ينسجم مع هذا الافتراض ، بل هما على العكس يصادمانه أعنف المصادمة . فإذا أضفنا أن الوحى كانت تصاحبه بعض العوارض الخارجية التى كان يراها الصحابة وقت حدوثها عرفنا أن نظرية « اللاوعى » لا تصلح لتفسير هذه الظاهرة . ولهذا السبب نرى نفراً من المستشرقين يجهد جهده للبحث عن السر وراء هذه العوارض ويتهمه ﷺ بأنه كان مريضا بمرض عصبى كالصرع أو غيره . وهذا الاتهام هو محور الشبهة الثالثة ، فبعد أن ثبت أنه لا يمكن أن يكون كاذبا مخادعا ، وبعد أن ثبت أيضا أنه لا يمكن أن يكون واهما مخدوعاً ، نجد من يرى أن هذا الوحى ليس إلا أعراض مرض من تلك الأمراض العصبية كالصرع أو الهلوسة ، وهو ما سنتناوله بالبحث والتحليل فى الفصل القادم .

الشبهة الثالثة

أنه عليه السلام كان مريضا بمرض عصبى

ها نحن أولاء قد وصلنا إلى آخر سهم فى جَعْبة غير المسلمين فى محاولاتهم تفسير الوحى ، وهو ادعاؤهم بأنه ﷺ كان مصابا بمرض عصبى . وقبل عرض هذا الادعاء بتفصيلاته ثم مناقشته علينا أولاً أن نذكر الأعراض التى كانت تصاحب نزول الوحى عليه ﷺ والتى بناء عليها اتُّهِم من قِبَل من لا يؤمنون به بأنه مصاب بالصرع أو غيره من الأمراض العصبية .

وهذه الأعراض المصاحبة للوحى المحمدى كما جاءت فى كتب السيرة والحديث هى أنه :

١ ـ كان يسمع مثل صلصلة الجرس ، وكان ذلك أشقّ صور الوحى. وعندما كان يَفْصِم الوحىُ عنه كان يتذكر كل ما سمعه (١).

٢ ـ وأحيانا كان الملاك يتبدى له فى هيئة رجل فيتحدث إليه (٢) .

٣ـ وأحيانا أخرى كان يراه على هيئة فتى يبلّغه ما يريد الله سبحانه أن يوحيه إليه (٣) .

---

(١) انظر البخارى / ١ / ٦ ، ومسلم / ٢ / ٣٣٠ ، والموطأ / ١ / ٢٠٧ .

(٢) انظر البخارى / ١ / ٦ ، ومسلم / ٢ / ٣٣٠ ، والموطأ / ١ / ٢٠٧ .

(٣) انظر مثلا البخارى / ٢ / ٢٨٥ .

٤ ـ ومن هذه الأعراض سماع صحابته مِثْلَ دَوِىّ النحل حول وجهه(٤) .

٥ ـ وقد يعرق حتى في الأيام الشديدة البرد ويتلألأ العرق على جبينه مثل حبات الجُمَان ، ويحمرّ وجهه(٥) ، وقد يربدّ (أى يتغير) (٦).

٦ ـ وكان يغطّ غطيطا عاليا (٧) ، ويأخذه سُبَات (٨) .

٧ ـ وفى مرة تصادف أن كانت فخذ زيد بن ثابت تحت فخذه ، فلما نزل على الرسول الوحىُ شعر زيد بثقل فخذ الرسول حتى كادت فخذه هو تُرَضّ . وعندما انقشع الوحي طلب الرسول من زيد أن يكتب ما نزل عليه (٩) .

٨ ـ عندما نزلت سورة « المائدة » كان عليه السلام راكبا ناقته ، وللتوّ لم يعد بمقدور الناقة أن تتحمله وكاد عضدها أن ينكسر ، فنزل عليه الصلاة والسلام عنها (١٠) .

---

(٤) انظر تفسير ابن كثير للآيات الأولى من سورة « المؤمنون ».

(٥) البخارى / ١ / ١٦٧ ، و ٢ / ١٤٤ ، و/ ٣ / ٤٠ ، والموطأ / ١ / ٢٠٧ .

(٦) صحيح مسلم / ٢ / ٤٨ ، ٣٣٠ مع الهامش .

(٧) انظر البخارى / ١ / ٢٦٧ .

(٨) انظر مادة " Wahy " فى "Shorter Encyclopaedia of Islam".

(٩) انظر البخارى / ١ / ٧٧ ، و ٢ / ١٤٣ .

(١٠) انظر ابن كثير فى تمهيده لتفسير سورة « المائدة » .

فهذه هى صور الوحى وأعراضه (١١) . وقبل أن نقابل بينها وبين أعراض الأمراض العصبية التى اتُّهِم الرسول بأنه كان مصابا بها أحبُّ أن أنفى إمكانية أن تكون هذه الأخبار قد لفّقها الصحابة أو أحد من التابعين ، إذ إن من الصعب أن يلفق أحد من هؤلاء أو أولئك أخبارا مثل هذه ينتظمها سلك واحد ، وهو أن الوحى كان يصاحبه ثقل وأن الرسول كان يعانى أثناء نزول الوحى عليه أيّما معاناة : فمن صلصلة الجرس المجلجلة إلى دوى النحل حول وجهه إلى غطيطه ﷺ ، إلى ظهر الناقة الذى كاد أن ينتقض ، إلى فخذ زيد بن ثابت التى شعر كأنها سترُضّ . فهذه الأعراض تشير فى اتجاه واحد هو أن الوحى كان شيئا ثقيلا لا على الرسول وحده بل على من تسوقه الصدفة إلى أن يكون جزء من جسمه تحته عليه الصلاة والسلام(١٢) . على أن هذا ليس هو السبب الوحيد الذى يجعلنى

(١١) يمكن للقارئ أن يجد هذه العوارض فى كل من "Dictionary of Islam" لهيوز (مادة "Muhammad")و "Shorter Encyclopaedia of Islam" (مادة " Wahy "). وقد اهتم بهذه النقطة كل من المرحومين الدكتور محمد عبد الله دراز (النبأ العظيم / ٦٣ ـ ٦٤) والمفكر الجزائرى مالك بن نبى (الظاهرة القرآنية / ١٢٦ ـ ١٣١) ، ولكنهما لم يتوسعا فيها هذا التوسع ، إذ لم يزد ما كتبه كل منهما عن أسطر معدودات . ومع ذلك فلهما فضل السبق، رحمهما الله رحمة واسعة وجزاهما خير الجزاء .

(١٢) ويجرى فى هذا الاتجاه أيضا قول الرسول لواحد من صحابته أبدى ملاحظة على كثرة انتشار الشعرات البيض فى رأسه : شيّبتنى « هُود » وأخواتها .

أصدّق هذه الروايات ، بل هناك سبب آخر جدّ مهم هو أن هذه الأعراض تخلو تماما من كل ما يمكن أن تُشْتَمّ منه رائحةُ المدح والتمجيد ، وإلا فأى مدح فى أنه كان يغطّ كغطيط النائم أو كغطيط البعير ، أو أن وجهه كان يحتقن ، أو أن جسمه كان يثقل ثقلا شديدا إلى درجة الخطورة على ناقته وعلى فخذ جليسه ؟ لو أن المراد هو المدح لقيل مثلا إن الصحابة كانوا يرون الملائكة وهى تنزل عليه فى بهائها السماوى ، وإنه كان يتلقى الوحى فى يسر كما لو كان يتنفس مثلا ، وإن وجهه كان يشرق حينئذ بنور وهاج . كذلك لا يمكن أن يكون الرسول قد افتعل هذه العوارض ، إذ كيف يستطيع التحكم فى إفراز العرق الغزير فى اليوم الشديد البرد ؟ بل كيف توصل إلى جعل وجهه يحتقن ؟ إن هذا العارض الأخير يحتاج منه أن يوقف تنفسه تماما ، وهو ما يتعارض مع غطيطه الشديد ، وعندئذ ستنتفخ أوداجه فيكشف أصحابهُ هذه اللعبةَ ، إذ إنهم لم يكونوا سذّجا بل كانوا كفاءات عقلية ونفسية باهرة . ثم إنه لم يكن ليستطيع أن يجعل فخذ زيد بن ثابت تكاد أن تُرَض من ثقل فخذه عليه السلام إلا إذا اعتمد بيده على الأرض بكل قواه. وهذا لو حدث لَلُوحِظَ على الفور وانكشفت الحيلة ، ولكان رد فعل زيد المباشر هو دفع النبى بعيدا وتخليص فخذه من تحته . وقريب من ذلك يقال عن نخيخ الناقة من ثقل جسده عليه السلام حين

نزول الوحى عليه وهو فوقها .كذلك فإن دوى النحل الذى كان يُسْمَع حول وجهه الطاهر عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن يكون شيئا كان يُحْدِثه رسول الله بفمه وهو مُغْلَقُه وإلا لتنبه الحاضرون إليه، إذ كانت العرب تعرف زمزمة فارس ، وهى شىء قريب من هذا (١٣) . ثم إن شهيقه وزفيره كانا سيتسببان فى تقطيع هذا الصوت ، وهو ما لم يحدث ، إذ لم يُشر أحدٌ إلى ذلك . وبعد ، فإن هذا الثقل وهذه الأصوات تدل على أن ثمة شيئا لم يكن فى جسد الرسول ثم كان ، أى أنه كان هناك وجود آخر غير مرئى بالإضافة إلى الرسول نفسه.، فاحفظ ذلك . وفضلا عن هذا فإننا نتساءل: ما غرضه من افتعال كل ذلك ؟ إن باب التصنع والتمثيل واسع ، فما الذى يضطره إذن إلى الدخول فى هذه المضايق ؟ بل كيف نوفق بين افتراض افتعاله هذه الأعراض وبين تأليف الوحى الفورى ، أى الوحى الذى كان ينزل فور توجيه أحد الصحابة سؤالا له عليه السلام ؟ كيف يا ترى يقوم فى نفس الوقت بالزمزمة بفمه مثلا وبالتفكير فى جواب مثل هذا السؤال وصياغته هذه الصياغة الأدبية الرائعة التى عليها القرآن ؟ إننى أعرف أن أحدا من غير المسلمين لم يشك فى هذه الروايات (١٤) ، ولكننى أردت بما سبق أن أرسى

---

(١٣) الشوكانى / مجلد ٤ / ج ٧ / ص ١٧٦ ـ ١٧٧ .

(١٤) بل بالعكس نرى كاتب مادة " Muhammad " فى « دائرة المعارف =

أساساً صُلْباً أقيم عليه فكرتى حتى تجىء متينة متماسكة تثبت لعواصف التشكيك والمماحكات الجدلية .

وبهذا نصل إلى ادعاءات من اتهموه بأنه كان مصابا ببعض الأمراض العصبية . ونبدأ بالصرع . والواقع أنه عليه السلام لم يُتَّهَمْ من أحد من معاصريه العرب بهذا المرض . ومع ذلك فإن هذا الاتهام قديم ، ومن أوائل من اتهمه به الكاتب البيزنطى ثيوفانيس (١٥) ، ثم شاع هذا الادعاء بين الأوروبيين حتى العصر الحديث (١٦) . وفى الواقع يستطيع أى إنسان يعرف سيرة النبى عليه السلام وشخصيته أن يجزم صادقا بأنه لا يمكن أن يكون مصاباً بالصرع ، إذ لو كانت عوارض الوحى هى أعراض الصرع لكان رد الفعل التلقائى عند أصحابه أن يسارعوا فينقذوه ويمنعوه من أن يؤذى نفسه أثناء النوبة ، ولكن الذى كان يحدث هو أنهم كانوا يَدَعُونه لا يقربونه حتى ينجلى عنه الوحى فيفيق حينئذ من نفسه دون أن يكون هناك علامة فزع على وجهه أو زوغان بصر أو معاناة ، أو أىّ شىء مما يشاهَدُ

= الإسلامية المختصرة » يستبعد تماما أن تكون هذه الروايات قد لفقها المسلمون ، ويذكر أن هذه الأعراض العجيبة قد كانت لمن شاهدها من المسلمين دليلا قويا على أن الوحى مصدره السماء (ص / ٢٩٣ على الشمال) .

(١٥) انظر مادة " Muhammad " فى « دائرة المعارف الإسلامية المختصرة » . وانظر أيضا بعض إشارات إلى ذلك عند جيوم (ص / ٢٥) .

(١٦) انظر منزيس / ٢٢٧ ، وكذلك جب / ٢٣ ود . هيكل / ٢٧ .

على المصروع ساعة إفاقته من غاشيته . إن الغريب ، لو كان الرسول عليه السلام مصابا بالصرع ، أن الوحى كان يفاجئه وهو قائم أو جالس أو متوكئ على عسيب أو راكب على ناقته فلا يسقط على الأرض شأن المصروعين . ثم ما الذى كان يدفعه إلى الصعود إلى غار حراء وقضاء الليالى ذوات العدد وحده هناك وهو يعرف أنه معرض لنوبات الصرع فى أى وقت ويمكن أن يسقط من حالق فتُدَقّ عنقه ؟ بل ما الذى جعل خديجة الزوجة المحبة المتفانية تتركه يذهب إلى هناك معرّضا نفسه لهذا الخطر القاتل ؟ إن ألفريد جيوم ينفى بقوة هذا الإتهام على أساس ما كان يتمتع به الرسول من رجاحة العقل والاتزان العقلى والنفسى واتساع أفقه السياسى وصلابته فى دعوته . ومن الطريف أنه ، فى الوقت الذى يؤكد هذا المستشرق فيه أن دراسة الظواهر النفسية للتجربة الدينية تنسف هذا الاتهام نسفا (١٧) ، نجد أن كاتب مادة " Muhammad " فى «دائرة المعارف الإسلامية المختصرة » يؤكد أن الأطباء النفسيين المحدَثين يعترفون بصحة تشخيص الأعراض المصاحبة للوحى على أنها أعراض الصرع ، وإن سارع إلى القول عقيب ذلك بـ « أننا يجب أن ندعهم يقررون بأنفسهم طبيعة حالته بدقة » (١٨) ، متظاهراً

---

(١٧) جيوم / ٢٥ .

(١٨) ص / ٣٩٣ على اليمين .

بذلك بالموضوعية وعدم دس أنفه فيما لا يحسنه ، مع أنه لو كان صادقا فى ادعاء الموضوعية لما زعم أن الأطباء النفسيين المحدثين قد أكدوا صحة التشخيص المشار إليه ، أو لذكر لنا بصراحة أسماء هؤلاء الأطباء ، وعلى أى أساس أكدوا ذلك ، وهل عُرِضَتْ عليهم أعراض الوحى عرضا أمينا . أما قوله إننا ينبغى أن ندع هؤلاء الأطباء يقررون بأنفسهم طبيعة حالته عليه السلام بدقة فليس له من معنى عندى إلا أنهم لم يقولوا شيئا ، لأنهم لا يمكن أن يكونوا قد قرروا صحة ذلك التشخيص ، فى الوقت الذى يقول فيه هو إن علينا أن ندعهم يفعلون ذلك . على أن المسألة ليست بهذه الصعوبة المزعومة فإن المعاجم الطبية ودوائر المعارف مبذولة لمن يستطيع أن يقرأ ويفهم .

جاء فى « New Medical Dictionary » لمحرريّه F. M. Mar-gerison وA . D . Banker فى مادة « Epilepsy » : « الصرع مرض يصيب الجهاز العصبى ، ويميزه فقدان الوعى وكذلك التقلصات فى كثير من الأحيان ... وهو يبدأ عادة فى الطفولة ... والمصابون به هم أشخاص انفعاليون غير متزنين ، ومهيأون للتقوقع بعيدا عن الدنيا والعيش فى الأوهام . وعادة ما تنشأ نوبة الصرع عن الضغط الانفعالى أو التهييج اللاإرادى .

أما عن أعراض الصرع ففى الحالات العنيفة ... تحدث النوبة فجأة ويسقط المصروع كاللوح ، وغالبا ما يؤذى نفسه أثناء ذلك

إيذاءً شديدا ، وتنبسط العضلات وتنقبض بشدة . أما الوجه فيكون أولا شاحبا ثم ينقلب إلى الازرقاق مع انسداد مجرى التنفس . وبعد بضع ثوان تأخذ العضلات فى الارتعاش والتشنج ، وتدور حدقتا العين، وينقبض الفك ويرتخى ، وقد يعض المصروع لسانه بقوة . كذلك ربما تبول أو تبرّز على نفسه . وتدريجيا يروح المريض فى غيبوبة فترتخى العضلات حينئذ وينام لعدة ساعات قبل أن يستيقظ فى نهاية النوبة وعقله يعانى بعض التشويش . وفى بعض الحالات لا تنتهى النوبة بعد بضع دقائق بل تستمر مع ازدياد النبض وارتفاع درجة الحرارة ....وقد يحدث أن يفيق المريض ظاهرا فيمارس أموره دون أن يكون واعيا فِعْلاً بما يفعل . ومن غير المستبعد أن يرتكب مثل هذا الشخص جريمة قتل فى هذه الحالة ... أما فى نوبات الصرع الخفيفة فقد يغيب الوعى لبضع ثوان دون أن تصاحبه أية تقلصات . وقد يُعْرَف عن مثل هذا المريض أنه عرضة لشحوب الوجه المفاجئ وفقدان خيط الحديث . وقد يظهر عليه أنه رجع إلى حالته الطبيعية بعد بضع ثوان ، ومع ذلك فقد يرتكب هذا الشخص عملا إجراميا فى هذه الثوانى القليلة ، ولكنه رغم ذلك لا يُعَدّ مسؤولا عنه. وهناك الصرع الچاكسونى ... وقد تأتى نوبته على هيئة تنميل فى أصابع إحدى اليدين أو إحدى القدمين ثم ينتشر التنميل فى سائر العضو . وغالبا ما يحتفظ المصاب بهذا الصرع

بوعيه طوال مدة النوبة .

وبالنسبة للعلاج ، فإن الأطفال المصابين بالصرع ينبغي أن يُعْنَى بتربيتهم مع أهمية تجنيبهم عوامل القلق والخوف بأقصى ما يستطاع ... ومن الضرورى أن يبتعدوا عن الأشغال التى قد يؤدى فقدان وعيهم أثناءها إلى أن يؤذوا أنفسهم أو الآخرين . ويجب أن تُخلَع الأسنان الصناعية عند النوم . وأثناء النوبة لابد أن يُمْنَع المصروع من إيذاء نفسه بأن يُدَسّ شيء بين أسنانه حتى لا يعض لسانه ... » (١٩) .

ولا أظن إلا أن القارئ سوف يكتشف الآن بنفسه دون أية مشقة زيف الربط بين عوارض الوحى المحمدى وبين أعراض الصرع ونوباته ، فلا الرسول كان شخصا انفعاليا غير متزن ، ولا هو كان يتقوقع فى داخل أوهامه بعيدا عن الدنيا والناس من حوله ، بل كان يشارك بكل طاقته وانتباهه واهتمامه فى نشاطات الحياة راعيا ، وتاجرا ، وزوجا ، ومحاربا ، وداعيا إلى ربه ، وحاكما ، وقائدا عسكريا ... إلخ . كذلك فإنه عليه السلام لم يكن ، حين ينتابه الوحى ، يسقط كاللوح ، ولا حدث قط أن آذى نفسه أثناء ذلك ،

(١٩) انظر أيضا « دائرة المعارف البريطانية » / مادتى "Epilepsy", "Epileptic Fit".

كأن يعض لسانه مثلا . كذلك لم يكن فكُّه ولا عضلاته تنقبض وترتخي على نحو تشنجي (ولا داعي طبعا للحديث عن التبول والتبرز) . ثم إنه لم يُعانِ قط من تشوش عقله ، ولم يرتكب مرة عملا خطيرا لا أثناء الوحي ولا بعد انقشاعه . وأيضا لم يحدث البتة أن فَقَدَ خيّطَ الحديث وهو يتكلم مع أحد من أصحابه عند نزول الوحي عليه ، أو شعر بتنميل فى أصابع يديه أو قدميه قط ، أو ارتفعت درجة حرارته حينذاك أو تسارع نبضه ، بل على العكس كان عليه السلام يحس ببرد فى ثناياه (٢٠) . أما وجهه الكريم فقد كان يحتقن حمرة (وقد يربدّ) ، ولكنه لم يزرقّ أبدا ، ولا انسد مجرى تنفسه . وطبعا لم يحدث قط أن صرخ عليه الصلاة والسلام عند مجيء الوحي . وهذا من الناحية السلبية ، أما من الناحية الإيجابية فإن أعراض الوحي التى سبقت الإشارة إليها ، كصلصلة الجرس ودويّ النحل حول وجهه الشريف وثقل جسمه الشديد فجأة، لا تجد فى الصرع ونوباته أى تفسير . وإذا كان الرسول ، حين مجيء الوحي ، يروح فى سبات فإن هذا شيء ، وفقدان الوعي شيء آخر . ذلك أننا لا نقول عن المُغْمَى (٢١) إنه فى غيبوبة أو فاقدٌ

(٢٠) « الإتقان » للسيوطي / ١ / ٦٠ .

(٢١) استخدمت هنا كلمتى « سُبات » و « إغفاء » تبعا لما قال بعض الصحابة عن هذا العارض عند النبى عليه السلام ، وإن كان المرحوم د . دراز قد بين أنه شيء مغاير للنوم تماما ، فإنه كان يعتريه ﷺ واقفا وقاعدا وسائرا ، وكان يعروه =

وعيه ، بل نقول ببساطة إنه راح فى سبات مثلا . وفضلا عن ذلك كان الرسول ، عندما يفيق من الوحى ، يسأل عن صاحب المشكلة التى استدعت نزول الوحى ويجيبه فى التوّ بما نزل عليه بلغة أدبية هى أرقى ما شهد الأدب العربى . وليس هذا أبدا شأن المصروعين . بل إنه فى المرة التى نزل فيها الوحى بتبرئة أم المؤمنين عائشة ، رضى الله عنها ، نجده قد أفاق وهو يضحك من البِشْر (٢٢) ، ولا يمكن أن تكون هذه حالة المفيق من الصرع .

ومن الأمراض العصبية التى اُتُهِم بها الرسول محمد عليه السلام الهستريا (الهَرَع) ، وهو مرض عقلى يصيب المعتلّى الأعصاب والمضطربى التكوين . وسببه ، كما يقول المتخصصون ، هو كبت الشخص لرغباته الجنسية في اللاشعور حيث لا تهدأ هذه الرغبات بل تتمرد حتى تجد لها متنفسا عن طريق آخر . ولهذا المرض أعراض عضوية وأخرى عقلية : فالأولى مثل تشنج العضلات وشلل الأطراف ، والعمى ، والصمم ، والقىء ، والرجفة ، وضياع الصوت أو الكلام ، وعجز اليد عن الإحساس بالأشياء التى تلامسها. أما الأعراض العقلية فتتبدّى فى حدوث فجوات فى الذاكرة ، والمشى

= فجأة ، ويزول عنه فجأة ، وكانت تصاحبه الأصوات التى سبقت الإشارة إليها . وهى ملاحظة سديدة منه رحمه الله (انظر « النبأ العظيم »/ ٦٤) .

(٢٢) البخارى / ١ .

أثناء النوم . وربما هجم المصاب أثناء تجواله على الآخرين ، فإذا أفاق من النوبة لم يتذكر شيئا من ذلك . ومن هذه الأعراض أيضا الغيبوبة ، وتوهم رؤية أشياء أو سماع أصوات ليس لها وجود ، وكذلك ازدواج الشخصية . وربما أدت الهستريا إلى الجنون إذا كانت حادة . وقد يحدث خلط بين الهستريا (الهَرَع) والصرع(٢٣) . ولعل هذا هو السبب فى أن منزيس اتهم الرسول بالمرضين كليهما (٢٤) . ونظرة إلى طبيعة هذا المرض وأعراضه تغنينا عن الرد عايه .

أما بوكيه ، وهو رجل دين بريطانى كثيرا ما يحرف الروايات ولا يعزوها إلى مصادرها ولا حتى إلى المراجع الإنجليزية التى ينقل عنها ، فهو يفسر الوحى بأنه نوع من النوبات العصبية (هكذا من غير تحديد) . وقد بحثت فى " New Medical Dictionary " تحت عنوان " Nervous Disorder " (الاضطراب العصبى) ، وهاك ما ورد فيه :

« الاضطراب العصبى معناه الحالة التى يشكو فيها المريض من

---

(٢٣) انظر مادة " Hysteria " فى كل من « دائرة المعارف البريطانية » و "New Medical Dictionary" .

(٢٤) منزيس / ٢٢٧ .

أعراض لا توجد أعراض عضوية تفسرها ، ولكن تنشأ من حالة العقل المضطربة . ويصاحبها فى الغالب ضعف فى الصحة ، لكن ليس إلى الحد الذى يتسبب عنه ألم أو شلل أو عجز يسعى المريض للحصول على نصيحة طبية بشأنه . وتُستَعْمَل المصطلحات الثلاثة الآتية : "Neurosis و Psychoneurosis و Neurasthenia" بمعنى واحد على رغم أن الـ Neurasthenia (الإنهاك العصبى) ، وتعنى ضعف الأعصاب وإنهاكها ، تقتصر فى أغلب الأحيان على الدلالة على الإرهاق الذهنى والعضوى الشديد القسوة ، مع الاكتئاب واللامبالاة والصداع والآلام غير الواضحة التى تجىء فى أعقاب أنواع العدوى الحادة مثل الأنفلونزا . ويشبه الوهن العصبى (Nervous Debility) الإنهاك العصبى ، وإن لم يكن بهذه القسوة. ويكون المريض « مرهقا » ضعيف الصحة من سوء الغذاء ، وقد يصاحب ذلك قلق غالبا ، وتنشأ حلقة مفرغة يؤثر خلالها الجسم والعقل كلاهما فى الآخر . وتكون العضلات فى حالة سيئة ، ولا تستجيب الدورة الدموية كما ينبغى للتغيرات التى تطرأ على الجسم أو على درجة الحرارة ، كما يتعرض الجهاز الهضمى بسهولة للاضطراب . والذى يحدث هو أن المريض يركّز على الأعراض العضوية فيزيد من قلقه. وكل المطلوب عادة هو تغيير الجوّ مع العناية بالصحة العامة عن طريق الأدوية المقوية والتغذية الجيدة .

وكرد فعل للاضطراب الانفعالى الشديد يمكن أن تحدث الأعراض العضوية التالية : فقد يتوقف القلب من لحظة إلى أخرى أو تتزايد دقاته ، ويجف الريق ، ويحدث تشنج فى الحلق وعضلات القناة الهضمية لدرجة القيء فى بعض الأحيان . وكثيرا ما يكون هناك ألم فى الرأس وصعوبة فى التنفس وإحساس بالاختناق . وقد يسيل العرق ويحدث تنميل ورعشة فى الأطراف ، ويعقب الحالة الانفعالية إحساس بالإرهاق والاكتئاب .

وفى هذا المرض يعانى المريض من بعض الانفعال الذى لا يكون واعياً به لأنه مدفون فى عقله الباطن ، وكل ما يحس به هو أعراضه العضوية . وهو يتصور أنه مريض لدرجة خطيرة أو أنه على شفا الجنون ، ومع تزايد قلقه هذا تزداد الأعراض العضوية وضوحاً » .

وفى مادة "Neurasthenia" يذكر نفس المعجم أن هذا المرض يأتى فى أعقاب التوتر العضوى الشديد والضعف الناشئ عن النزيف الدموى أو تسمم المخ بسبب سُمّيّات الحُمّى أو التسمم البطيء من جراء تعفن الدم المزمن . ووجهة النظر الحديثة هى أن التوتر الذهنى أيضا وراء هذا المرض ... إلخ . ويرى القارئ كيف أن هذه الأسباب لا تتوفر منها فى حالة الرسول عليه السلام ولا سبب واحد ، علاوة على أن النوراستنيا لا تستمر ، كما يفهم من هذا الكلام ، ثلاثا وعشرين سنة هى مدة الوحى .

وتحت نفس العنوان أيضا " Neurasthenia " تذكر « دائرة المعارف البريطانية » ثمانية أعراض لهذا المرض هى : الشعور العام بالتعب الذى تصحبه حالة مختلطة من الإثارة والاكتئاب والصداع الذى قد يصاحبه الدوخان والصمم وغيام الوعى المؤقت ، وكذلك النوم القَلِق الذى لا يجلب نشاطا بل تعكره الأحلام ، وأيضا ضعف الذاكرة وبخاصة تجاه الأحداث القريبة ، وغيام الرؤية ، وصنوف الضوضاء أو طنين الأذن ، والاضطرابات المتنوعة التى تصيب الإحساس ، مثل انعدام الشعور بالألم (وهذه الاضطرابات تؤثر فى ظهر اليدين على وجه خاص ، وفى الصدر عند النساء) ، بالإضافة إلى اضطرابات مختلفة سمبتاوية الأصل ، وبخاصة البرودة فى مواضع بعينها وبالذات فى الأطراف ، والارتفاع المرضى فى درجة الحرارة ، وتورد الخدود ، والعرق ، إلى جانب مظاهر مختلفة للاكتئاب المصحوب باضطرابات في وظائف الأعضاء.

وتنقسم النوراستنيا ، حسبما جاء فى هذه المادة ، إلى أربعة أنواع : المخية والمَعِديّة والشوكية والجنسية . وهناك احتمال قوى أن ينشأ عن النوع الأول منها عدد من المخاوف المرضية (فوبيا) ، كالرعب من الزحام أو من الوحدة أو من الأماكن المغلقة أو من الاختلاط بالناس أو من الأشياء التى تسقط أو من السفر بالسكة الحديدية . كما أن ثمة احتمالات أن يظل المريض أسير سلسلة من الأفكار المترابطة يجترها باستمرار ولا يستطيع الخلاص منها ،

وبخاصة بالليل إذ يشتد إلحاحها عليه . وأحياناً ما تتسلط عليه الرغبة في العدْ. ومثل هؤلاء المرضى يعانون من الانفعالية المسرفة والمسارعة إلى الابتهاج والحزن الشديدين . وقد يكونون ساخرين متشككين أو متشائمين أو يعكفون على استبطان ذاتهم، ويتمركزون حول نفوسهم، ولا يستطيعون الكلام إلا عن أنفسهم أو عن أمور تهمهم هم فقط. ومع ذلك ففى كثير من الحالات تكون قدرتهم الذهنية عظيمة، إلى جانب غياب الأفكار المختلّة التى تلاحظ عند السوداويين .

وإذا قابلنا بين هذا الوصف الطبى وبين عوارض الوحى فسنلاحظ أن ثمة اتفاقا محدودا فى بعض مظاهر عَرَض واحد من هذه الأعراض الكثيرة ، وهى العرق وتورد الخد (وفى بعض الروايات أن وجهه كان يتربّد) ، والإحساس بالبرودة فى بعض أعضاء الجسم ، وإن ذكرت «دائرة المعارف البريطانية» أن ذلك يغلب أن يكون فى الأطراف ، بينما كان الرسول يحس ببرد فى ثناياه أحيانا [٢٥] . وأما طنين الأذن فهو غير الصلصلة التى لم يكن عليه السلام يحس بها دائما بل فى نوبات الوحى الشديدة الوطأة فقط . بيد أن هذا ، كما قلت من قبل، لا يعدو أن يكون اتفاقا محدودا فى بعض مظاهر واحدٍ فقط من هذه الأعراض الكثيرة ، وهو لا يعنى شيئا بالمرة . وينبغى ألا ننسى ذلك الصوت الذى يشبه دوىّ النحل والذى كان بعض الصحابة

---

(٢٥) «الإتقان» للسيوطى / ١ / ٦٠ .

يسمعونه حول وجهه الكريم ﷺ ، فهو ليس شعوراً ذاتيا يتوهمه الرسول بل هو صوت موضوعى تحسه آذان الآخرين ويميزونه بكل وضوح . وقد تقدم أن من غير الممكن أن يكون الرسول هو الذى كان يُحْدِث ذلك الصوت . وأزيد هنا أنه ليس هناك معنى لمثل هذا الافتراض ، إذ ما الذى كان يقصده الرسول عليه السلام بذلك ؟ ثم ما القول فى الظاهرة الأخرى التى أحسها زيد بن ثابت حين ثقلت فخذ الرسول على فخذه حتى شعر أنها ستنكسر والتى أوشكت الناقة أن تبرك تحت وطأتها لولا أن ترجّل الرسول عليه السلام عنها ؟ ثم ذلك العارض الذى كان يعروه (وسُمىّ مرة سُبَاتا ومرة إغفاء ومرة سَكِينة) والذى كان الرسول يشاهِد فيه إنسانا يبلّغه كلاما بليغا يتضمن أفكارا واضحة محدّدة ، ردا على سؤال وجه إليه من فوره أو مشكلة نجمت فاستدعت نزول ما نسميه نحن المسلمين وحيا ، هذا العارض أين مكانه هنا ؟ إن من الممكن طبعا أن يدّعى الكافر برسالة محمد عليه الصلاة والسلام أنه كان يزوّر الوحى مسبقا ، فإذا فاجأته هذه الحالة أبرز ما كان قد أعده من قبل من كلام . وقد قيل هذا بالفعل كما سبق بيانه ، ولكن فات زاعِمَ هذا الزعم أن معظم الوحى كان ينزل ردا على سؤال مباغت أو حلا لمشكلة نجمت فجأة من غير أن يكون ثمة وقت لتفكير أو تجهيز كلام .

فهذا عن عوارض الوحى ، ولكن ماذا عن الأعراض الأخرى

لهذه الاضطرابات العصبية ؟ ماذا عن الاضطراب العقلى ، والقلق ، وضعف الصحة ، وسوء حالة العضلات ، والانحراف الذى يصيب الجهاز الهضمى ، والصداع ، والاكتئاب ، والارتفاع المرضىّ فى درجة الحرارة ، والدوخان ، والصمم ، والنوم القلق الذى تعكر صفوه الأحلام المفزعة (٢٦) ، والاضطراب الذى يصيب وظائف الأعضاء ، وانعدام الشعور بالألم ، وتعرض القلب أحيانا للتوقف ، والإحساس بالاختناق ، وضعف الذاكرة وبخاصة بالنسبة للأحداث القريبة ، وغيام الرؤية ، وجفاف الريق والتنميل ، ورعشة الأطراف ؟ إن تلك هى أعراض الاضطراب فى الجهاز العصبى ، ومنه النوراستنيا . ومن الواضح أنه لا شىء منها ينطبق على حالة الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقد كان متزنا تمام الاتزان من الوجهة النفسية ، وكانت صحته طوال حياته جيدة تماماً . ولم أقرأ فيما أذكر أنه شكا مرضا قبل مرضه الأخير الذى تُوُفِّىَ فيه على رغم ما خاضه من الحروب وتعرض له من ألوان الإيذاء . كذلك كانت ذاكرته مضرب المثل فى

---

(٢٦) حدث وأنا أكتب هذه السطور فى ليلة الرابع والعشرين من سبتمبر ١٩٨٥ أن استمعت فى المذياع إلى الأستاذ على عيسى (فى برنامجه « سَجَا الليل » بإذاعة القاهرة) يذكر الحديث الذى يشكو فيه خالد بن الوليد إلى رسول الله ﷺ من الأرق ، وكيف علّمه الرسول دعاء يقوله فيذهب عنه أرقه . والشاهد هنا أن الرسول لم يكن يعانى من أرق أو اضطراب فى نومه ، بل كان الصحابة يلجأون إليه إذا أرقوا ، فينصحهم من واقع حياته وتجربته الهانئة مع النوم .

القـوة ، وبصـره حـديدا . وكـان عليـه السـلام ينام عـادة مبكرا ، ويستيقظ في جوف الليل يصلى لربه ويتأمل فى الملكوت ، ويغمره الاطمئنان الروحى ، هذا الاطمئنان الذى لازمه طول حياته ونضح على لسانه عند صعود روحه إلى ربه ، إذ قال وهو يشير إلى السماء فى ثقة وسكينة : « بل الرفيق الأعلى ! » . كذلك لم نسمع أنه قاء يوما . أما بالنسبة للمخاوف المرضية (Phobias) فدونك حياة الرسول ، وهى مفصلة تفصيلا لم تُفَصَّله أية حياة أخرى (إذ قد دخلت كتب السيرة والحديث وراءه حتى فى غرفة النوم أحيانا) ، وأتحداك أن تضع إصبعك على أية فوبيا فى شخصيته ، أو أن تعثر على أية فكرة كانت تتسلط عليه باستمرار فلا يستطيع أن يعيش حياته على نحو طبيعى أو يتعامل مع الآخرين تعاملا صحيا ، أو أن تلحظ عليه أى خروج عن حد الاعتدال فى أى من عواطفه أو انفعالاته . ثم إنه لم يكن ساخرا متشككا فى الطبيعة البشرية ولا كان متمركزا حول نفسه واهتماماته الشخصية ، بل كان عقله ونفسه وعواطفه رحبة عميقة وسعت الكون كله والبشرية كلها لا أتباعه فقط . وأخيرا لو كان مريضا بهذا المرض العصبى أو ذاك لكان رد فعله الطبيعى هو البحث عن علاج عند أحد الكهان أو السحرة أو الحكماء (الأطباء) الذين كانت تعج بهم الجزيرة العربية ، بدل أن يظل يعانى هذه المتاعب طول حياته . ولقد رأينا قَبْلُ مِنْ صِدْقِه

ما يجعلنا نستبعد تماما أنه كان يدّعى رؤية جبريل كذبا ، هذه الرؤية التى لا يمكن أن يفسرها لنا أى من هذه الأعراض . فها أنت ذا ترى أننا لا بد أن ننبذ أيضا اتهامه عليه السلام بأنه كان معتل الأعصاب ، إذ إن اعتلال الأعصاب لا يُورِث يقينا كاليقين الذى كان عليه الرسول طوال ثلاث وعشرين سنة هى مدة الوحى والذى لم ينل منه أى إيذاء أو مؤامرات أو حروب أو مجادلات مع أصحاب العقائد المختلفة ، وفيهم الأحبار والقساوسة الذين قتلوا الكتب المقدسة بحثا ودرسا ، هذا اليقين الذى ضؤُلَ معه مقام كسرى وهرقل والمقوقس والنجاشى وزعماء العرب فى اليمن وفى الشمال فأرسل النبى الكتب إليهم يدعوهم إلى الإسلام ، هذا اليقين الذى عَنَتْ له رؤوس العرب من قادة عسكريين كخالد وعمرو ، ومن تجار أصحاب ثروات كأبى بكر وأبى سفيان ، ومن رؤساء قبائل أو حكّام على بلادهم كعَدِىّ بن حاتم الطائى وباذان . ثم هل يمكن أن يكون معتلّ الأعصاب أو مصابا بالنوراستنيا من يحتفظ بتلك الصداقات النادرة فى تاريخ العلاقات الإنسانية ؟ وإذا افترضنا أنهم كانوا يخافونه وهو معهم ، ولا أدرى لِمَ كان ينبغى أن يخافوه وقد كان أعزل وحيدا فاتبعوه وساروا وراءه فقوى هو بهم ، فكيف بَقُوا طول حياتهم يحبونه ويعظمونه ؟ أكان علىّ وأبو بكر وعمر وعثمان وخالد وابن عوف وطلحة والزبير والعباس وأبو هريرة وأبو ذر وأُبَىّ

وزيد بن حارثة وزيد بن ثابت وعائشة وزينب وصفية وريحانة (اليهوديتا الأصل) ومارية (القبطية) وحفصة وعشرات غيرهم من أصدقائه وأحبائه المقربين الذين كانوا يشاهدونه فى كل حالاته ولا يخفى عليهم من أسراره خافية ، أكان هؤلاء جميعا عُمْيا لم يتبينوا أنه مريض ؟ أكانوا من الغفلة بحيث جازت عليهم حِيَلُه ومزاعمه ، أستغفر الله ، وفيهم أصحاب العيون الثاقبة والألسنة الجريئة والعقول التى تقلب الأمر تقليبا قبل أن تعتنقه وتدافع عنه ؟ إن المصابين باعتلال الأعصاب لا يتنبأون فتصدق نبوءاتهم ، ولا يتصدَّوْن للخرافات يهدمونها هدما ، ولا يصححون الانحرافات التى وقع فيها أصحاب الأديان السابقة فيردونهم إلى جادة الصواب ويقولون لهم إن الله واحد لا اثنان ولا ثلاثة ، وإنه رب العالمين لا رب هذه الأمة أو تلك ، وإنه صاحب السلطان المطلق والقدرة اللامتناهية الذى لا يمسه لُغُوب ، وإن البشر جميعا سواسية أمام عدله الذى لا يحده حد ، وإن الحياة ليست عبثا لا طائل تحته بل هى ممتدة إلى ما بعد الموت حيث الحساب الدقيق والرحمة للضعف البشرى والانتقام من الجبارين على أساس من المسؤولية الفردية التى تشمل نيّة الشخص وجهده وطاقته . أمن الممكن أن يكون هذا كله ، وغيره كثير ، نتاج أعصاب معتلة وعقل مضطرب ونفس مكتئبة ؟

ولا يبقى الآن إلا اتهامه بالهلوسة [٢٧] . وبرغم أن كاتب مادة " Hallucinations " فى « دائرة المعارف البريطانية » يخبرنا بأنه لا يوجد لها تعريف دقيق تماما فإننا سنأخذ بما ورد فى "New Medical Dictionary" ، الذى يقول إنها تنشأ عن اضطراب عقلى يعتقد بسببه المريض أنه يرى أو يسمع أو يذوق أو يشم أو يلمس أشياء ليس لها وجود . ولو أخذنا بما تقوله «دائرة المعارف البريطانية» من أن الأسوياء قد يكونون عرضة للهلوسة فلا بد أن نعرف أن ذلك مقتصر عادة على رؤية بعض معارفهم وهم فى كرب الموت مثلا رغم البعد المكانى الذى يفصل بينهم . كذلك تذكر « دائرة المعارف البريطانية » أن الأسوياء غالبا ما يتحققون فى الحال أنها هلوسة ، بخلاف المختل العقل ، فإنه عندما يتكرر الهلواس يعجز عن التحقق من عدم وجوده . ويمضى كاتب المادة فيقول إن الهلواس يمكن أن يكون مثلا بصريا وسمعيا أو بصريا ولمسيا أو أكثر من ذلك فى نفس الوقت ، ولكنه يعقب بقوله إن هذا نادر إلا فى حالة الشخص الواقع تحت تأثير التنويم المغناطيسى مثلا . ومما ورد فى هذه المادة أيضا أن بعض الهلاويس يمكن استدعاؤها بالتحديق إلى سطح صقيل ، وإن

---

(٢٧) لاحظ أنه قد اتُّهِم قبل ذلك بالصرع . وانظر أيضا إرفنج / ٢٠٠ ، ولاحظ تخبطه فى الحكم على شخصية الرسول بما يدل على عدم اقتناعه بما يقول .

لم يَعِ الشخصُ الذى يفعل ذلك أن له دخلا فيه . كذلك فإن حالات الوجد الصوفى والتركيز الانفعالى الحاد على موضوع مثالى قد تؤدى، فيما يبدو ، إلى أن يرى الشخصُ فى بعض الأحيان هذا الموضوع المثالى بوضوح (٢٨) .

الهلوسة إذن مرض عقلى ، ولسنا فى حاجة إلى أن نعيد القول بأن الرسول ﷺ كان مثالا للاتزان النفسى والعقلى ، فلا اضطرابات ذهنية ولا مواجيد صوفية أو ما أشبه . ولو افترضنا أنه ، برغم ذلك ، قد تعرض مرة للهلوسة فلا شك أنه كان سيتنبه فى الحال لعدم صحة ما يراه أو يسمعه . ويزيد هذا تأكيدا أنه عليه السلام أول ما نزل عليه الوحى لم يسارع بالتصديق بل ظن أنه ربما كان واهماً وخاف على نفسه خوفا شديدا ، واستمر ذلك فترة طويلة حتى تكرر ظهور جبريل له ونزول الوحى عليه ، وعند ذلك اطمأن . كذلك فليس ثمة خبر واحد فى حياة الرسول يشير ولو من بعيد إلى أنه ﷺ كان يستدعى الوحى استدعاء ، بل العكس هو الصحيح ، فقد رأيناه عليه السلام فى أكثر من مرة يُسْأل فيفتى باجتهاده ، ثم يفاجأ بَعْدُ بنزول الوحى بخلاف ما قال . وعموما فإن الوحى لم يكن ينزل إلا إذا كان هناك سبب يستدعى نزوله، وهو ما يسمى فى « علوم

(٢٨) وانظر فى هذا الموضوع أيضا « الموجز فى التحليل النفسى » لسجموند فرويد/ ترجمة سامى محمود على وعبد السلام القفاش / ١١٦ .

القـرآن » بـ « أسـبـاب النزول » ، مما يقطع بأن الرسـول لـم يكن يحـاول التـدخل فى هذه العلمـية ولو على غيـر وعى منه . إن هذه الحقيقة الأخيرة كفيلة باستبعاد أن يكون الوحى بعد بدايته الأولى ، وبالذات فى المرحلة المدنية ، نوعا من الهلوسة ، فإن القرآن لم يكن ينزل والرسول مركّز انتباهه تركيزا انفعاليا حادا على أى موضوع مثالى . كذلك فإن الوحى لم يتخذ يوما صورة هذا الموضوع محل التركيز ، بل كان ينّزِل آياتٍ قرآنية تعالج المشاكل المثارة التى كانت تفاجئ الرسول نفسه فى معظم الأحيان ، وتردّ على ما يُطْرَح بشأنها من استفسارات ... إلخ . ثم إن الوحى لم يتخذ صورة واحدة بل صورا مختلفة كما سبق بيانه . أما من ناحية المضمون فإنه كان ينزل كل مرة بشيء جديد .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن هذه الهلوسة المزعومة لا تقدم لنا أى تفسير للظاهرة التى لاحظها من تصادف أن كان جزء من جسد الرسول فوقه ، كزيد بن ثابت ، الذى أحس بأن فخذه ستُرَضّ حينما نزل وَحْىٌ أثناء وجود فخذ الرسول فوق فخذه ، فلما انقشع الوحى زال شعوره بالثقل الباهظ الذى كان فى فخذ الرسول وزال معه إحساسه بالألم العنيف ، وكالناقة التى كادت أن تُدَقّ عنقها عندما نزل الوحى عليه ﷺ لولا أن ترجل من فوقها . كذلك فإن هذا الادعاء لا يفسر لنا سر ذلك الصوت الذى يشبه دوى النحل ،

والذى كان الصحابة يسمعونه بوضوح حول وجهه الكريم ﷺ . إن هذا الصوت لم يكن إحساسا متوهّما ، بل كان صوتا موضوعيا له وجود خارج ذات الرسول عليه السلام ، ولولا ذلك ما التقطته آذان الصحابة . ومن ناحية أخرى فإن « دائرة المعارف البريطانية » تُرْجع الهلوسة إلى ذكريات قديمة منسية ، فكيف يمكن تفسير رؤية الرسول لجبريل (فى المرة الأولى على الأقل) مع أن من المستحيل إرجاع ذلك إلى ذكرى قديمة ، أو تفسيرُ الوحى الذى كان ينزل ردّا على مشاكل نشأت لتوها ولم يحدث أن وُجِدت من قبل فى المجتمع العربى أو المحيط الذى كان يتحرك فيه الرسول ، كما هو الحال مثلا فى قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، أو مسجد الضرار ، أو صلاة الخوف ، وأشباه ذلك ، وهى كثيرة جدا ؟ بل كيف نُفَسِّر النبوءات التى وردت فى القرآن وتحققت كلها ، من أول توعد أبى لهب وزوجته بالنار مما يدل على أنهما سيموتان كافرين (وهو ما حدث بالفعل) ، مرورا بنبوءة انتصار الروم على الفرس فى بضع سنين عقب هزيمتهم الثقيلة على أيدى هؤلاء الأعداء ، إلى وعد القرآن للمؤمنين لَيَدْخُلُنَّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين وأن الله مستخلفهم وممكّنٌ لهم دينهم وغير ذلك ؟ إن الهلوسة لا يمكن أن تفسر لنا شيئا من هذا . كذلك كيف يمكن أن تفسر لنا الهلوسة ما فى القرآن من إشارات علمية يستحيل تعليلها فى نطاق

معارف الرسول وعصره بل وما بعد عصره بقرون (كما سيأتى بيان ذلك فى الباب الثانى من هذا الكتاب) ؟ ثم إن العلماء الذين درسوا هذه الظاهرة يختلفون حول تفسيرها هى نفسها من الناحية العضوية . ترى هل يمكن أن تبنى الهلوسة دينا كالإسلام قوامه تنزيه الخالق وتصويره بما يناسب جلاله وقدسيته ، ونفى عبثية الحياة وإرساء المسؤولية الفردية مع أخذ ظروف كل شخص ونصيبه من الضعف البشرى فى الاعتبار ؟

وبعد ، فإن هذه الادعاءات لا تؤدى إلى طائل ، فضلا عن سخفها وفسادها . وإن اضطراب غير المؤمنين بالرسالة المحمدية فى توجيه الاتهامات إلى صاحبها ليوحى بأنهم قد أصمّوا آذانهم وعقولهم وقلوبهم عن سماع الحقيقة ، فهم يقْبلون على الإسلام منذ البداية ليهاجموه ويفندوه . إن أصواتهم لتذكّرنا بأصداء خافتة لأصوات مشابهة كانت تتردد فى مكة على ألسنة المشركين وفى المدينة على ألسنة اليهود ، متهمةً محمدا مرة بأنه مسحور ، وأخرى بأنه ساحر ، وثالثة بأنه شاعر ، ورابعة بأنه مجنون ، وخامسة بأنه كذاب ، غير مستقرة على اتهام واحد ولا قادرة على إثبات شىء مما يقولون . ومع هذا كله فقد انتهى أمرهم بالرجوع عن هذه الاتهامات والدخول فى الدين الذى جاء به هذا الساحر الشاعر المجنون ، مكذّبين بذلك أنفسهم بأنفسهم . وإنى أعتقد أنه سوف يأتى اليوم الذى يحدث فيه لكفّار العصر الحديث ما حدث لرصفائهم القدامى.

الباب الثانى

القــــــــرآن

مقارنة بين القرآن
والأديان الأخرى

الذى يميز الإسلام عن غيره من الأديان هو الوحدانية المطلقة بكل معانيها . وهناك سورة كاملة فى القرآن ، وإن كانت قصيرة ، نزلت لتقرير هذا المعنى تقريرا حاسما جازما لا لَبْسَ فيه ولا تردد ولا مواربة : « قُل : هو اللّهُ أحَدٌ * اللهُ الصَّمَد * لم يَلِدْ ولم يُولَدْ ولم يكُنْ له كُفُوًا أحَد »(١) . وهذه الوحدانية المطلقة تخالف العقائد التى كانت موجودة أيام ظهور الإسلام ، مما يدل على أن النبى عليه السلام لم يقتبس أفكاره عن الله من أحد : فالجاهليون كانوا يرفضون تماما هذه الوحدانية ويستغربون بشدة أن يدعو محمد إلى إله واحد بدلا من آلهة متعددة : « أجَعَلَ الآلهةَ إلهًا واحدًا ؟ إن هذا لَشَيْءٌ عُجَاب * ... * ما سَمِعْنا بهذا فى الملة الآخرة . إن هذا إلا اختلاق »(٢) . ويتضح من هذه الآية الأخيرة أن مفهوم الوحدانية كان جديداً عليهم ، فها هم أولاء يحتجون لتعدد الآلهة بأنهم لم يسمعوا بالوحدانية . وسواء أكان المقصود بـ « الملة الآخرة » هنا عقيدة النصارى فى الآلهة أم عقائد الجاهليين الوثنيين فإنه يتبين من هذا النص أن « الشرك بالله » كان هو العقيدة المقررة التى درجوا عليها منذ زمن طويل : « قالوا : إنَّا وجَدْنا آباءَنا على أُمَّةٍ وإنَّا على آثارِهم مُهتَدون » ، حتى إن الوحدانية ، على بساطتها ومنطقيتها ،

---

(١) سورة الإخلاص .

(٢) ص / ٥ ــ ٧ .

قد صدمتهم صدمة عنيفة واستفزتهم إلى محاربة الرسول عليه السلام ودعوته بكل طاقاتهم ، ولم يكفّوا عن هذه المحاربة الا عندما عجزوا تماما عن المضىّ فيها ، وهو ما استغرق نحو عشرين سنة منذ بداية الدعوة حتى فتح مكة .

وقد يدلك على مبلغ العناء الرهيب الذى قاساه الرسول فى دعوة قومه إلى الله الواحد كثرةُ الآيات التى تناقشهم فى مفاهيمهم الشِّرْكية ، ففى سورة « النجم » مثلا ، وهى من السُّوَر المبكرة ، نجده سبحانه وتعالى يعيب عليهم سخف منطقهم الذى يسول لهم أن ينسبوا إليه ثلاثة من أصنامهم هى اللات والعزى ومناة على أنها بناته . يقول جل شأنه : « أفرأيتم اللاتَ والعُزّى * ومَناة الثالثةَ الأخرى ؟ * ألكُمُ الذّكَرُ وله الأُنْثَى * تلك إذن قِسْمةٌ ضِيزَى * إنْ هىَ إلا أسماءٌ سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزلَ اللهُ بها من سُلطان. إنْ يتّبعون إلا الظَنّ وما تهوَى الأنفسُ . ولقد جاءهم من ربهم الهُدَى* أم للإنسان ما تَمَنّى ؟ * فللّه الآخرة والأولى * وكَمْ مِنْ ملَكٍ فى السماوات لا تُغْنِى شفاعتُهم شيئا إلاّ من بَعْد أن يأْذَنَ اللهُ لمن يشاءُ ويَرْضَى * إن الذين لا يؤمنون بالآخرة لَيُسَمُّون الملائكة تسمية الأنثى » [٣] .

---

(٣) النجم / ١٩ ـ ٢٧ .

ولم يكونوا يَدَعُون أية شبهة دون أن يعضوا عليها بالنواجذ فى جدالهم العقيم الذى لم يكن ينفع معه منطق مستقيم . انظر إليهم وقد جاء ذكر عيسى بن مريم عليه السلام أمامهم فإذا هم يصيحون: « أآلهتنا خير أم هو ؟ » (٤) . ويرد القرآن على هذا المنطق السخيف مبيناً بواعثهم فى هذا الصياح : « ما ضَرَبوه لك إلا جَدَلاً، بل هم قَوْم خَصِمون » (٥) . ومثل هذا المنطق الملتوى لا تفلح معه عادةً أية حجة . وعبثا يبين لهم الرسول بناء على أمر الله أنه « إنْ كان للرحمن وَلَدٌ فأنا أوَّلُ العابدين » (٦) ، أما عيسى فما « هو إلا عبدٌ أنعمنا عليه وجعلناه مَثَلاً لبنى إسرائيل »(٧) . ولكن كل هذا لم يكن بالنسبة إلى عامة جمهورهم إلا صيحات فى واد ، فها هو ذا القرآن فى موضع آخر من السورة ذاتها يعود إلى مناقشة هذا المنطق التافه مرة أخرى : « وجعلوا له من عِبَاده جُزْءاً . إن الإنسان لَكَفُور مُبِين * أم اتَّخَذ مما يخلُق بنات وأصفـاكم بالبنين ؟ * وإذا بُشِّر أحدُهم بما ضَرَبَ للرحمن مثلا ظل وجهه مُسْوَدًا وهو كظيم * أوَ مَنْ يُنَشَّأ فى الحِلْيَة وهو فى الخصام غير مُبين ؟ * وجعلوا الملائكة

---

(٤) الزخرف / ٥٨ .

(٥) الزخرف / ٥٨ .

(٦) الزخرف / ٨١ .

(٧) الزخرف / ٥٩ .

الذين هم عِبادُ الرحمن إناثا . أَشَهِدوا خَلْقَهم ؟ ستُكتَبُ شهادتُهم ويُسألون » (٨) . ووجه التفاهة فى هذا التفكير أنهم يجعلون ذرية الله إناثا فى الوقت الذى يضيقون هم فيه أشد الضيق وتسودّ وجوههم خزيا وعارا إذا وُلِدَتْ للواحد منهم أنثى . ولو جروا فى سخفهم على منطق مستقيم لرحبوا إذن بإنجاب الإناث بل لافتخروا بهن واستكثروا منهن . ويزداد المرء عجبا حين يرى هؤلاء الذين يكرهون الإناث (وبعضهم كان يدسّهن فى التراب وهن أحياء) يعبدونهن معتقدين أنهن يقربنهم إلى الله زلفى : « ما نَعْبدهم (أى الأصنام ، التى يَعُدّون بعضها إناثا) إلا ليقربونا إلى اللّهِ زُلْفَى»(٩). ومهما يشرح القرآن لهم أن كل ما فى الكون مخلوق لله وعبد له سبحانه وتعالى ويستطيع الله لو أراد أن يصطفى من مخلوقاته ما يشاء فإنهم لا يقتنعون ، فقد سدوا آذانهم سدا : « لو أراد اللهُ أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء » (١٠) . إنهم يكرهون الوحدانية وينفرون منها أشد النفور : « وإذا ذُكر الله وحده اشمأَزّتْ قلوبُ الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذُكِر الذين مِنْ دونه إذا هم يستبشرون» (١١) . ولو أنهم كانوا صادقين فى ادعائهم أنهم لا

---

(٨) الزخرف / ١٥ ـ ١٩ .

(٩) الزُمَر / ٦ .

(١٠) الزُمَر / ٤ .

(١١) الزُمَر / ٤٥ .

يعبدون الأصنام إلا لأنها تقربهم إلى الله زُلْفَى لاستبشروا بذكر الله الذى هو مُتَّجَهُ قلوبهم الحقيقى . من هنا نفهم لماذا يلح القرآن على مفهوم الوحدانية ، وندرك كذلك مدى الجهد الفادح الذى كان رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام يبذله ، فها هو ذا سبحانه وتعالى يقول فى سورة « الفرقان » : « له مُلْكُ السماوات والأرض ، ولم يتخذْ ولدا ، ولم يكن له شريكٌ فى المُلْكِ، وخلق كلَّ شيء فقدَّره تقديرا » (١٢) ، كما يقول فى سورة «المؤمنون» : « ما اتَّخَذَ الله مِنْ وَلَدٍ ، وما كان معه مِنْ إلهٍ . إذن لَذَهَبَ كلُّ إلهٍ بما خَلَقَ ولَعلاَ بَعْضُهم على بَعضٍ . سبحان اللّهِ عما يَصِفون»(١٣) . وعلى ما فى هذه الحجة من بساطة مشرقة تقتحم العقول السليمة اقتحاما نجدهم قد أغلقوا قلوبهم على ما فيها من ظلمات ، حتى إن القرآن ليبدئ من جديد ويعيد فى هذه القضية كأنه لم يقل من قبل شيئا وكأنهم لم يسمعوا ولم يفكروا : « لو كان فيهما آلهةٌ إلا الله لفسدتا » (١٤) ، وهى نفس الحجة السابقة، وإن صيغت فى عبارة مختلفة شيئا ما . وها هم أولاء أيضا يعودون إلى ترديد نفس مفاهيمهم المهلهلة : « وقالوا : اتخذ الرحمنُ وَلَداً . سبحانه ! بل

---

(١٢) الفرقان / ٢ .

(١٣) المؤمنون / ٩١ .

(١٤) الأنبياء / ٢٢ .

عبادٌ مُكْرَمون * لا يَسْبِقونه بالقَوْلِ وهم بأمره يعملون* يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى . وهم من خشيته مشفقون * ومن يقُل منهم : إنى إله من دونه ، فذلك نجزيه جهنم. كذلك نجزى الظالمين » (١٥) ، مما دعا القرآن إلى أن يكرر إنذاره لهم حتى يعطى من نفسه العذر قبل أن يعاجلهم بعقوبة الدنيا أو يرديهم فى قرارة الجحيم : « ويُنْذِرَ الذين قالوا : اتخذ اللهُ ولدا * ما لهم به من علمٍ ولا لآبائهم . كَبُرَتْ كلمةً تخرج من أفواههم . إن يقولون إلا كَذِبا » (١٦) ، وإلى أن يعيد تساؤله السابق المفحم : «أفأَصْفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا ؟ إنكم لتقولون قَوْلاً عظيما » (١٧). كما يأمره عليه السلام أن يقول : « الحمدُ لله الذى لم يتَّخذْ وَلَدا ولم يكن له شَرِيكٌ فى المُلْك ولم يكن له وَلِىٌّ من الذُّلّ » (١٨) وأن يكبّره سبحانه تكبيرا . ولم يكتف المشركون بذلك بل أشركوا به سبحانه الجن : « وجعلوا لله شُركاءَ الجنَّ . وخَلَقهم وخَرَقُوا له بنينَ وبناتٍ بغيّر علْم » (١٩). ويحاول القرآن مرة أخرى أن يجعلهم يفكرون فى تهافت ما يستمسكون به من عقائد

(١٥) الأنبياء / ٢٦ ـ ٢٩ .

(١٦) الكهف / ٤ ـ ٥ .

(١٧) الإسراء / ٤٠ .

(١٨) الإسراء / ١١١ .

(١٩) الأنعام / ١٠٠ .

باطلة فيقول لهم إنه « سبحانه هو الغَنِىّ » (٢٠) ، ويسألهم : « بديعُ السماواتِ والأرضِ ، أنّى يكونُ له ولدٌ ولم تكن له صاحبةٌ ؟»(٢١) . كما أن فيه آية تتعرض لعبادة الشمس والقمر ، وهى: « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر . لا تسجُدوا للشمسِ ولا للقمر ، واسجدو للهِ الذى خلَقهنّ إن كنتم إياه تعبدون » (٢٢) .

فهذه هى عقيدة الجاهلية فى الألوهية ، فمن أين استمد النبى عليه السلام مفاهيمه الصحيحة عن الله رب العالمين ، القاهر فوق عباده ، الذى يعلم السرّ وأخفى ، الرحمن الرحيم ، الشديد البطش ، العزيز الجبار ، السريع الحساب ، الذى لا يكلف نفسا إلا وسعها ، ذى العرش ؟ إن المستشرقين يقولون إنه قد استقاها من الحنفاء . ومع أننا قد فندنا هذا الزعم من قبل فإننا نضيف هنا أن فكرة الحنفاء عن الله سبحانه لم تكن إلا صدًى خافتا مما أبقاه كرّ الغداة ومرّ العشى على مدى الأحقاب المتطاولة من ديانة إبراهيم عليه السلام ، صدى ليس فيه هذا التفصيل ولا الوضوح ولا الحضور فى العقل والقلب . ولقد كان بعضهم يعظ فى الأسواق فلم يُجَابَهْ بهذه الحرب الضروس التى كُتِب على محمد عليه السلام أن يخوضها .

---

(٢٠) يونس / ٦٨ .

(٢١) الأنعام / ١٠١ .

(٢٢) فُصّلَتْ / ٣٧ .

والسبب هو أن ما كانوا يدعون إليه لم يكن بهذا الحسم والوضوح ومصادمة العقائد القديمة مثلما كان الدين الذى نزل عليه ﷺ . وهذا فى الألوهية فقط ، وناهيك عن دعوة العدل والمساواة ، وعقيدة الحياة الأخرى والجنة والنار والحساب الدقيق لكل ذرة عملها الإنسان من خير أو شر ، والعبادات المختلفة بسماتها الفارقة لها عما فى الأديان الأخرى ، والحلال والحرام ، والقيم الأخلاقية النبيلة ، وقواعد الذوق المهذب فى التعامل بين الناس ، والحقوق ، والحدود ... إلخ .

ومن بين الآيات المتعلقة بعقيدة التوحيد آيتان تلفتان النظر بوجه خاص هما : « وقال الله : لا تتخذوا إلهين اثنين . إنما هو إلهٌ واحدٌ ، فإياى فارْهبُون » (٢٣) ، و « الحمدُ لله الذى خلق السموات والأرضَ وجعل الظُّلُماتِ والنورَ ، ثم الذين كفروا بربهم يَعْدِلون » (٢٤) . وكما هو واضح فهاتان الآيتان تهاجمان عقيدة الثنوية (الزرادشتيه والمانوية) ، وهما تدلان على أن القرآن ، كما لم يستق أفكاره فى العقيدة الإلهية من مصدر عربى ، فهو لم يستقها من ديانة فارس ، التى كانت تقول بإلهين اثنين هما النور والظلمة .

(٢٣) النحل / ٥١ .

(٢٤) الأنعام / ١ .

فإذا انتقلنا إلى اليهودية والنصرانية فسوف نجد أن القرآن قد رد تحريفات أهل الكتاب : فأما اليهود فإن المقيمين منهم بيثرب كانوا يزعمون أن عُزَيْرًا ابن الله ، مثلما يقول النصارى إن المسيح هو ابن الله . وقد رد القرآن عليهم ، وبيّن أن هذا الاعتقاد هو اعتقاد شِرْكِيّ قديم : « وقالت اليهودُ : عُزَيْرٌ ابنُ الله ، وقالت النصارى : المسيحُ ابنُ الله . ذلك قولهم بأفواههِم ، يُضَاهِئون قول الذين كفروا من قبلُ . قاتَلَهم اللهُ أنّى يُؤْفَكون » (٢٥) . والعجيب أن بعض المستشرقين يعدون اتهام القرآن لليهود بأنهم يقولون « عُزَيْرٌ ابن الله » سرًّا غامضا يتعصّى على الحلّ لأنه ليس فى أسفار العهد القديم ما يشير إلى هذا (٢٦) ، غافلين بذلك عن نقطتين هامتين : الأولى أن محمدا عليه الصلاة والسلام لا يكذب أبدا ، وقد فرغنا من هذه القضية . ثم إنه لا يوجد أى داع يحمله على اتهام اليهود بهذه التهمة باطلا . والثانية أنه لو كان محمد عليه السلام قد تقوّل عليهم ذلك تقوُّلاً لردوا عليه ولسجل القرآن حينئذ هذا الردّ أو لأتت به السنة المطهرة ، وهو ما لم يحصل، فدل ذلك على أن هذا الاتهام صحيح(٢٧) . وليس هذا هو كل ما أراد اليهود أن

---

(٢٥) التوبة / ٣٠ .

(٢٦) انظر جيوم / ٥٢ .

(٢٧) انظر مثلا تفسير البيضاوى للآية / ٣٠ من سورة « التوبة » .

يشوهوا به عبثا جلال الألوهية ، فإن فى العهد القديم نصوصا أشنع من هذا ، ومنها على سبيل المثال ما جاء فى الأصحاح الثانى من سفر التكوين / ١ـ ٣ : « فأكملت السماوات والأرض وكل جندها. وفرغ الله فى اليوم السابع من عمله الذى عمل . فاستراح فى اليوم السابع من جميع عمله الذى عمل . وبارك الله اليوم السابع وقدّسه . لأنه فيه استراح من جميع عمله الذى عمل الله خالقا » . وقد ردّ القرآن على هذا التخريف قائلا : « ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، وما مَسَّنا مِنْ لُغُوب» [٢٨] . واقرأ كذلك هذه الآيات: « وسمعا (أى آدم وحواء) صوت الرب الإله ماشيا فى الجنة عند هبوب ريح النهار . فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله فى وسط شجر الجنة فنادى الرب الإله آدم وقال له : أين أنت ؟ فقال : سمعت صوتك فى الجنة فخشيت

---

(٢٨) ق / ٣٨ . ويلاحظ أن الأيام التى ذكرت التوراة أن الله قد خلق فيها السماوات والأرض هى أيام عادية كأيامنا هذه . أما القرآن فإنه قد صرح بأن « يوما عند ربك كألف سنة مما تعدُّون » (الحج / ٤٧) ، كما تحدث عن اليوم الذى تعرج فيه الملائكة والروح إليه سبحانه قائلا إن مقداره خمسون ألف سنة (المعارج/ ٤) . وهذا هو فرق ما بين الخرافة والعقل ، فإن الشمس والقمر لم يكونا قد خُلِقا حين ابتدأ الله خلق السموات والأرض ، ولم يكن هناك إذن ليل ولا نهار، فكيف يكون اليوم حينئذ كيومنا ؟ ثم لماذا يتخذ الله يومنا نحن مقياساً ونحن لم نكن قد وُجِدنا بعد ، والأيام تختلف طولا باختلاف الكواكب وما تدور حوله من شموس ؟

لأنى عريان فاختبأت »(٢٩) . وهى ، كما ترى ، تصور الله كأنه واحد من البشر : فهو يمشى فى الجنة نهارا ، وآدم وامرأته يسمعان صوته (ولعله كان يتنحنح ، أستغفر الله سبحانه ، على عادة الشيوخ الكبار عندما يمشون) فيختبئان منه ، فلا يعرف الله (سبحانه وتعالى عن هذه السخافات والرذالات) أين هما ، فيُضْطَرَ إلى سؤالهما . فأين هذا مما وصف به القرآنُ المولى جل شأنه من العلم المطلق ، والإبصار والسمع اللذين يحيطان حتى بأخفى خلجات الضمائر ؟ وفى سفر التكوين أيضا وصف لمصارعة تمّت بين يعقوب عليه السلام (الذى يَنْسُب إليه العهد القديم ، كَذِبًا ، من صنوف الإفك والاحتيال والخداع الكثير) وبين الله سبحانه لم يقدر فيها القاهر فوق عباده على عبده يعقوب فرجاه أن يطلقه بعد أن ضربه على حق فخذه ، فلم يطلقه إلا بعد أن حصل على بركته (٣٠) .

ومن سفاهة اليهود ، هؤلاء الذين يزعم المستشرقون أن محمدا

---

(٢٩) تكوين / ٣ / ٨-١٠ .

(٣٠) انظر القصة فى سفر «التكوين» / ٣٢ / ٢٥ ـ ٣١ ، و٣٥ / ٩ / ١٠ . وانظر كذلك "A New Commentary on Holy Scripture Including the Apocrypha, edited by Charles Gore, Henry Leighten Goudge and Alfred Guillaume " فى التعليق على الآيات / ٢٢ ـ ٣٢ من الأصحاح / ٣٢ من سفر « التكوين » / ٥٨ ـ ٥٩.

قد سرق جزءا كبيرا من دينه وعقيدته منهم ، قولُهم عن رب العزة صاحب الكرم والجود إن يده مغلولة : « وقالت اليهود : يدُ الله مغلولة! غُلّت أيديهم ، ولُعنوا بما قالوا ! بل يداه مبسوطتان يُنْفِقُ كيف يشاء . ولَيزيدَنّ كثيراً منهم ما أُنْزل إليك من ربك طُغيانا وكفرا » (٣١) ، وقولُهم عنه سبحانه أيضا : « إن الله فقيرٌ ونحن أغنياء » (٣٢) . فهل قائلو مثل هذه الكُفْريّات ممن يمكن أن يتّهم محمد عليه السلام بأنه قد سرق منهم أفكارهم في الألوهية أو غيرها ؟ أفلو كان ذلك الاتهام صحيحا أكان الغيظ يأكل قلوبهم ويدفعهم إلى هذا الحد من التجديف وقلة الأدب مع خالقهم ، أم كان الأحرى أن يتهموه مواجهة ، أو حتى في الخفاء ، بهذه السرقة؟ فلِمَ لَمْ يفعلوا إذن ؟

على أن هذا ليس كل شيء ، فإنهم يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه : « وقالت اليهود والنصارى : نحن أبناء الله وأحباؤه . قل : فَلِمَ يعذبكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشر ممن خلق » (٣٣) ، ويدّعون أنهم إذا دخلوا النار فلن يمكثوا فيها إلا أياما معدودة : « وقالوا : لن تَمَسَّنا النارُ إلا أياما معدودة . قل أتّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عهدا فلن

(٣١) المائدة / ٦٤ .

(٣٢) آل عمران / ١٨١ .

(٣٣) المائدة / ١٨ .

يُخْلِفَ اللهُ عهدَه أم تقولون على الله ما لا تعلمون ؟ * بلى ، من كسب سيئةً وأحاطت به خطيئتُه فأولئك أصحابُ النارِ هم فيها خالدون »(٣٤) ، « ذلك بأنهم قالوا : لن تَمَسَّنا النارُ إلا أياما معدودات ، وغرَّهم فى دينهم ما كانوا يَفْتَرون » (٣٥) ، وهو مفهوم سقيم عن الحساب الإلهى ، إذ يسوى بين الله وبين قضاة البشر الذين يجوز عليهم الحيف وممالأة أحد الخصمين بالباطل على الآخر ومحاباة المجرم . وأين هذا من مفهوم الإسلام عن العدل الإلهى المطلق ؟ : « فمن يعمل مثقالَ ذرةٍ خيراً يَرَه * ومن يعمل مثقال ذرةٍ شرًا يَرَه » (٣٦) . صحيح أن القرآن يتحدث عن عفو الله ورحمته ، ولكن هذا العفو وهذه الرحمة ليسا مقصورين على أقوام دون آخرين، بل بابهما مفتوح لكل إنسان يريد أن يتوب .

فإذا انتقلنا إلى النصرانية ، التى اتُّهم سيد البشر أيضا بأنه قد اقتبس منها بعض عقائد دينه ، فسوف نجد أن العقيدة الإسلامية تخالف عقيدة النصارى من أساسها . فبينما يقول النصارى إن الله ثالث ثلاثة ، وإن عيسى هو ابن الله ، وإن الأقنوم الثالث هو الروح القُدُس (وإن كان بعضهم يضع مريم بدل الروح القُدُس) ، وإن

(٣٤) البقرة / ٨٠ .
(٣٥) آل عمران / ١٤ .
(٣٦) الزلزلة / ٧ ـ ٨ .

عيسى عليه الصلاة والسلام قد صلبه اليهود ، وإن صلبه كان كفارة للخطيئة الأصلية ، خطيئه آدم التى أُخْرِج بسببها من الجنة ، نرى القرآن ينفى هذا كله ولا يعترف به ، ويرى فى عصيان آدم رأيا آخر تماما .

فالله فى الإسلام هو واحدٌ أحَد ، ويستحيل بمقتضى كونه إلها أن يكون اثنين أو ثلاثة أو أكثر ، وكل من فى السماوات والأرض إنما هو عبد الله خلقته يداه الكريمتان ، سواء فى ذلك عيسى عليه السلام أو روح القُدُس أو أى مخلوق آخر صغر شأنه أو كبر : « قل : هو اللهُ أحدٌ * الله الصَّمَد * لم يَلِدْ ولم يُولَدْ ولم يكن له كُفُوًا أحَد» (٣٧) ، « وقال الله : لا تتَّخذوا إلهين اثنين . إنما هو إله واحد ، فإياى فارْهَبون » (٣٨) ، « وقالوا : اتَّخَذَ الرحمنُ ولداً * لقد جئتم شيئا إدًّا * تكاد السماوات يتفطَّرْن منه ، وتنشقُّ الأرض ، وتخرُّ الجبالُ هدًّا * أن دَعَوْا للرَّحمن ولَدا * وما ينبغى للرحمن أن يتَّخذَ ولَدا * إنْ كلُّ من فى السماوات والأرض إلا آتِى الرَّحْمنِ عبْدا » (٣٩) ، « إن هو (أى سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أزكى الصلاة وأفضل السلام) إلا عبْدٌ أنعمنا عليه وجعلناه مثَلاً لبنى

(٣٧) سورة « الصَّمَد » .

(٣٨) النحل / ٥١ .

(٣٩) مريم / ٨٨ ـ ٩٥ .

إسرائيل » [٤٠] . ومن هنا يكفِّر القرآن من يقول إن الله ثالث ثلاثة. وهو يرتكز فى نفى هذا التثليث ، كما ارتكز فى نفى التثنية ، على بدهية عقلية هى أن الله يستحيل أن يكون إلا واحدا : « لقد كفر الذين قالوا : إن اللَّهَ ثالثُ ثلاثةٍ . وما مِنْ إِلَهٍ إلا إلهٌ واحد» [٤١] ، ويدعو من يقول بالتثليث إلى نبذ هذه العقيدة الوثنية : « لا تقولوا : ثلاثة . انتَهُوا خيرا لكم . إنما الله إله واحد . سبحانه أن يكون له ولد . له ما فى السموات وما فى الأرض ، وكفى بالله وكيلا » ، ثم يمضى قائلا : « لن يستنكفَ المسيحُ أن يكونَ عبداً للهِ ولا الملائكةُ المقرَّبون » [٤٢] . وهو فى هذه الآية الأخيرة يشير إشارة سريعة إلى اعتقاد النصارى فى روح القُدُس بوصفه ثالث الثلاثة فى الثالوث الذى يؤمنون بأن إلههم يتكون منه . إن عيسى عليه السلام وكذلك روح القدس ليسا إلا عبدين من عباد الله ، ومثلهما مريم عليها السلام : « وإذ قال اللهُ : ياعيسى ابنَ مريم ، أأنت قلتَ للناس : اتخذونى وأُمّىَ إلهين مِنْ دُونِ الله ؟ قال : سبحانك ! ما يكونُ لى أن أقول ما ليس لى بحَقّ . إن كنتُ قلتُه فقد علِمتَه . تعلم ما فى نفسى ولا أَعْلَمُ ما فى نَفْسِك . إنك أنت

(٤٠) الزخرف / ٥٩ .

(٤١) المائدة / ٧٣ .

(٤٢) النساء / ١٧٢ .

علاَّمُ الغُيوب * ما قلتُ لهم إلا ما أمرتَنى به : أن اعْبُدُوا اللَّهَ ربِّى وربكم ، وكنتُ عليهم شهيداً مادمتُ فيهم . فلما توفيتنَى كنتَ أنتَ الرقيب عليهم . وأنت على كل شيء شهيد » (٤٣) .

إن عيسى عليه السلام ليس إلا رسولا ، وأمه صدِّيقة . وما أجمل وأعمق وأوجز وأوعى قوله تعالى عنهما فى الآية الكريمة التالية : « ما المسيحُ بنُ مريمَ إلا رسولٌ قد خلت من قبْلِهِ الرسلُ ، وأمه صدِّيقة . كانا يأكلان الطعامَ . انظر كيف نُبيِّنُ لهمَ الآيات ، ثم انظر أنَّى يُؤْفَكُون »! (٤٤) والمعنى : ألا تفهمون ؟ لقد كانا يأكلان الطعام (بكل ما لهذه العبارة من أبعاد) ، أى أنهما كانا يحتاجان إلى الطعام ويحتاجان بعد هضم هذا الطعام إلى تصريفه . وفى هذا الكفاية .

وإذا كان النصارى يستندون إلى الميلاد الإعجازى لعيسى عليه السلام كحجة على أنه ابن الله ، فإن القرآن يردّ بأن عيسى إن كان قد وُلِد من غير أب فإن آدم قد خلق من غير أب ولا أم : « إنّ مَثَلَ عيسى عند الله كَمَثَلِ آدمَ . خلقه من ترابٍ ، ثم قال له : كُنْ ، فيكون » (٤٥) . فانظر كيف يزن القرآن الأمور بميزان الذهب . إنه

---

(٤٣) المائدة / ١١٦ ـ ١١٧ .

(٤٤) المائدة / ٧٥ .

(٤٥) آل عمران / ٥٩ .

لا ينكر ولادة عيسى المعجزة ، ولكنه لا يرتب عليها له أية ألوهية أو بنوة لله لأنه لا صلة قط بين الأمرين . وقد كان فى استطاعة محمد عليه السلام ، لو كان هو مؤلف القرآن ، أن يريح نفسه من هذه المتاهة وينفى مع ألوهية المسيح ولادته الإعجازية ، ولكنه لم يفعل . ثم لم يكتف بهذا بل نفى عن مريم عليها السلام ما افتراه اليهود عليها ، وعدّ ما يقولونه عن عِرْضها الشريف كفرا وبهتانا عظيما ، وجعله من بين الأسباب التى استوجبت أن يحرم الله عليهم بعض ما كان أحل لهم من طيبات [(٤٦)] .

والقرآن لا يعترف لعيسى عليه السلام بولادته المعجزة فحسب بل يعترف له أيضا بأنه تكلم فى المهد وأنه (بعد أن أصبح نبيا) كان يخلق الطير وينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، ويبرئ الأكمة والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله ، وينبئ قومه بما يأكلون ويدخرون فى بيوتهم . ولكنه لا يرتب على هذا أن يكون عليه السلام شيئا آخر غير أنه رسول من عند الله رب العالمين ، وإلا فليس عيسى هو الرسول الوحيد الذى أيده الله بالمعجزات . ومن أعجب العجب ، لو كان من يكفرون بمحمد ورسالته يتدبرون ، أن رسولنا عليه السلام لم ينكر مرة وقوع المعجزات على أيدى سابقيه من الأنبياء

---

(٤٦) انظر الآيات / ١٥٥ ـ ١٦٠ من سورة « النساء » .

برغم تكرار تحدى المشركين واليهود له أن يأتيهم بمعجزة وردّه عليهم أنه ليس إلا بشرا رسولاً . لقد كان بمقدوره أن ينفى وقوع المعجزات من أى رسول قبله ، وعلى من يجادله أن يثبت العكس[٤٧] ، وهو مستحيل . ولكنه عليه السلام لم يفعل ، فما دلالة ذلك ؟

وكما نفى القرآن أن يكون عيسى إلها أو ابناً للإله نفى أيضا أن يكون عليه السلام قد صُلِب أو قُتل بأية طريقة أخرى ، وأكد أنه قد شُبِّه لهم : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم . وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه. ما لهم به من علم إلا اتّباع الظنّ. وما قتلوه يقينا * بل رفعه الله إليه ، وكان الله عزيزا حكيما » [٤٨].

والقرآن حين يؤكد أنه عليه السلام لم يُقْتَل ولم يُصْلَب فليس

---

(٤٧) انظر مثلا مادة " Miracles " فى معجم الفيلسوف الفرنسى الشهير ڤولتيـر : "Philosophical Dictionary" ، ومادتى " Miracle " و "Hume" فى " A Dictionary of Philosophy" لـ A. Flew تر كيف أن كثيرا من الفلاسفة والمفكرين الأوروبيين ، رغم أنهم من بيئة نصرانية تؤمن بالمعجزات إيماناً مطلقا ، لا يؤمنون بوقوع شيء منها . ومنهم ڤولتير وكذلك ديڤيد هيوم ، الذى أفاض القولَ فى شرح رأيه فى هذه القضية د . زكى نجيب محمود فى كتابه عنه ، وهو ما يبين لك كيف أنه كان من السهل على سيدنا رسول الله ، لو كان مخادعا ، أن ينفى وقوع أية خوارق على يد أى إنسان .

(٤٨) النساء / ١٥٧ ـ ١٥٨ .

ذلك لأن محمدا عليه السلام ، كما زعم بعض المستشرقين ، قد استبشع هذه النهاية ورأى أنها لا تليق أن تقع لرسول من رسل الله ، فقد سجل القرآن على اليهود أنهم « كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق » (٤٩) . فلو كان ما زعمه هؤلاء المستشرقون صحيحا فلمَ لَمْ ينْفِ وقوع القتل على أيّ من الأنبياء ؟ إذن فالمسيح لم يُقْتَل ولم يُصْلَب ولم يَفْدِ بصلبه البشر ، لأن القرآن لا يعترف أصلا بوراثة الخطيئة ، إذ « ليس للإنسان إلا ما سعى » (٥٠) . وفضلا عن ذلك فإن القرآن يقرر فى أكثر من موضع أن الله سبحانه وتعالى قد تاب على آدم بعد أن إستغفره عليه السلام . ثم إن العقوبة قد وقعت بخروجه هو وأمنا حواء من الجنة : « وقلنا : يا آدم ، اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها حيث شئتما ، ولا تَقْرَبا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين * فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه . وقلنا : اهبطوا بعضكم لبعض عَدُوّ ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين * فتلقّى آدم من ربه كلماتٍ فتاب عليه . إنه هو التواب الرحيم » ، و « قالا (أى آدم وحواء بعد أن أكلا من الشجرة المحرمة) : ربنا ، ظَلَمْنا أنفسنا . وإن لم تغفر لنا وترحمنا نكُنْ من الخاسرين » (٥١) . فمن هذا كله ترى ألا معنى لعقيدة

---

(٤٩) انظر الآية / ٦١ من سورة « البقرة » ، والآية / ١١٢ من سورة «آل عمران».

(٥٠) النجم / ٥٠ .

(٥١) البقرة / ٣٢ ـ ٣٧ ، والأعراف / ٢٢ .

الخطيئة الأصلية وتكفير المسيح (الذى هو ابن الله على ما تقول به هذه العقيدة) عن البشر خطيئتهم بموته على الصليب . والطريف أنه ، برغم ما يعتقده النصارى فى المسيح وأنه الإله أو ابن الإله وأنه جاء ليفدى البشر من خطيئة أبيهم آدم بالموت على الصليب ، نرى الإنجيل يقول فى صلب المسيح المزعوم : « وكان المجتازون يجدّفون عليه (أى على المسيح وهو على الصليب) وهم يهزون رؤوسهم قائلين : يا ناقض الهيكل وبانيه فى ثلاثة أيام ، خلِّصْ نفسك إن كنت ابن الله فانزل عن الصليب . وكذلك رؤساء الكهنة أيضا وهم يستهزئون مع الكتبة والشيوخ قالوا : خلَّصَ آخرين، وأما نفسه فما يقدر أن يخلصها . إن كان هو ملك إسرائيل فلينزل الآن عن الصليب فنؤمن به . قد اتكل على الله فلينقذه الآن إن أراده . لأنه قال: أنا ابن الله . وبذلك كان اللصان اللذان صُلبا معه يُعَيِّرانه »[٥٢]. ولو كان عيسى عليه السلام قد جاء ليموت على الصليب ويفدى البشر لكان جوابه على هذا الاستهزاء أن الله لن ينقذه مما هو فيه وإلا لضاع معنى مجيئه إلى العالم . أما رده عليه السلام على حسب رواية الإنجيل فهو آخر شىء يمكن أن يرد على الخاطر . ولنستمر فى القراءة : « وفى الساعة السادسة كانت ظلمة على الأرض إلى الساعة التاسعة . ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع

(٥٢) إنجيل متى / ٢٧ / ٣٩ ـ ٤٤ .

بصوت عظيم قائلا : إيلى إيلى ، لما شبقتنى ؟ أى إلهى إلهى ، لماذا تركتنى ؟ » (٥٣) ، وهو ما يفيد قطعا أنه لم يكن يتوقع أن يتركه الله يموت هذه الميتة البشعة . أما إنجيلا يوحنا ولوقا فإن روايتيهما تختلفان عن هذه الرواية ، وهو ما يدلك على عدم التزام تلك الكتب بالوقائع التاريخية . ومعروف أن هذه الأناجيل قد كُتِبَتْ بعد المسيح عليه السلام بعشرات السنين ، ولم يُتنخَّل ما ورد فيها كما تنخل جامعو السنة النبوية أحاديث الرسول عليه السلام ، التى هى مع ذلك لا تبلغ مرتبة القرآن أبدا من حيث الدقة والوثاقة .

فإذا جئنا إلى ما يقوله الكتاب المقدس عن الأنبياء وجدنا عجبا . انظر مثلا ما يقوله عن نوح عليه السلام : « وابتدأ نوح يكون فلاحا ، وغرس كرما وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه . فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجا . فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء ، وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء فلم يبصرا عورة أبيهما . فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير فقال : ملعونٌ كنعان . عبدَ العبيد يكون لإخوته . وقال : مباركٌ الربُّ إلهُ سام ، وليكن كنعان عبْداً لهم . ليفتح الله ليافث فيسكن فى مساكن

(٥٣) نفس الأصحاح / ٤٥ ـ ٤٦ ، وانظر كذلك مرقس / ١٥ / ٢٩ ـ ٣٧ .

سام، وليكن كنعان عبدا لهم » (٥٤) . إن من الصعب أن يفهم الواحد منّا سبب لعن نوح لابنه كنعان ، الذى وقع نظره عليه وهو عريان دون قصد ، إذ إن نوحا هو الذى سكر وتعرى (وهو ما لا يصدق العقل وقوعه من نبى) ، فهو المسؤول إذن عن ذلك لا كنعان. وانظر كذلك ما يقوله الكتاب المقدس عن لوط عليه السلام: « وصعد لوط من صوغر ، وسكن فى الجبل وابنتاه معه ، لأنه خاف أن يسكن صوغر فسكن فى المغارة هو وابنتاه. وقالت البِكْر للصغيرة: أبونا قد شاخ ، وليس فى الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض . هلمّ نسقى أبانا خمرا ونضطجع معه فنحيى من أبينا نسلا. فسقتا أباهما خمرا فى تلك الليلة ، ودخلت البِكْر واضطجعت مع أبيها ، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها . وحدث فى الغد أن البِكْر قالت للصغيرة: إنى قد اضطجعت البارحة مع أبى. نسقيه خمراً الليلة أيضا ، وقامت الصغيرة واضطجعت معه ، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها . فحبلت ابنتا لوط من أبيهما » (٥٥). إن الإنسان ليسد أنفه وهو يقرأ هذه النتانات . أما يعقوب عليه السلام فيصوره الكتاب المقدس غشاشا كذابا محتالا ، ويتفنن فى وصفه وقد لبس جلود جَدْيَى المعزى ليوهم أباه الضرير (سيدنا إسحاق عليه

(٥٤) تكوين / ٩ / ٢٠ ـ ٢٧ .

(٥٥) تكوين / ١٩ / ٣٠ ـ ٣٦ .

السلام) أنه عيسو لا يعقوب ليحصل على البركة التى وعد بها أبوه أخاه عيسو . والعجيب أن الحيلة تنجح ويحصل يعقوب زورا وبهتانا على البركة ، ولا ينفع فى هذا اكتشاف الأب للحيلة الدنيئة ، وكأن البركة ليست من الله أوكأنه سبحانه لا يعرف الحقيقة (٥٦) . أما داود عليه السلام فيقول عنه الكتاب المقدس إنه وقع نظره ، وهو يمشى فوق سطح قصره ، على امرأة أحد قواده وهى تستحم فى فناء بيتها المجاور للقصر ، وكانت رائعة الجمال ، فأرسل إليها «وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها وهى مطهرة من طمثها». ولم يكتف داود بهذا بل دبر مؤامرة تخلص بها من زوجها (٥٧). وعندما شاخ داود وأراد عبيده أن يدفئوه فى شيخوخته ، التى لم ينفع معها تدثيره بالثياب ، قالوا له : ليفتّشوا لسيدنا الملك على فتاة عذراء، فلتقف أمام الملك ولتكن له حاضنة ، ولتضطجع فى حضنك فيدفأ سيدنا الملك » (٥٨). وقد اتَّهَم يهودُ المدينة سيدَنا سليمان بالسحر (٥٩) . ثم هناك « نشيد الأنشاد » المنسوب له عليه السلام بما فيه من عهر وحرقات جنسية . أما القرآن فقد طهر الأنبياء جميعا عليهم السلام من كل دنس ورجس ، وصوّرهم كما كانوا فى الحقيقة مثُلاً عليا

---

(٥٦) انظر « تكوين » / ٢٧ كله .

(٥٧) انظر « صموئيل الثانى » / ١١ كله .

(٥٨) الملوك الأول / ١ / ١ ـ ٤ .

(٥٩) البقرة / ١٠٣ .

ومنارات للخُلُق الكريم المطهر . فهل يصح أن يقال بعد هذا كله إن القرآن قد سُرِق من كتب اليهود والنصارى ؟

فها نحن أولاء نرى أن القرآن لم يستلهم عقيدته من عرب الجاهلية أو من الحنفاء أو من ثنوية فارس أو من أفكار اليهود عن الله أو من ثالوث النصارى ، وإن لم يمنع ذلك أن تكون هناك بعض النقاط المتفقة مع بعض ما عند أهل الكتاب مما لم يصبه التحريف . وتفسير الإسلام لهذا الاتفاق هو أن التوراة والإنجيل والقرآن جميعاً من عند الله ، غير أن الكتابين الأولين قد أصابتهما يد التحريف فجاء القرآن ليصحح مادخلهما من تحريفات ، أما ما ظل على حاله من غير تحريف فإن الإسلام لا يخالفه لأنه من عند رب العالمين .

فهذا عن العقيدة . فإذا جئنا إلى التشريع وجدنا أن القرآن قد أبقى ما هو خير ونبَذ ما لم يعد صالحا للبشرية بعد أن بلغت الطور الذى وصلت إليه فى أيام الإسلام ، أو ما انتهى الغرض منه ، أو ما استتبعته الخرافات الوثنية من عادات وتقاليد .

فالعرب فى الجاهلية كانوا يقدمون القرابين إلى أوثانهم ، وكانت هذه القرابين تشمل أبناءهم . وقد حرموا بعض الحيوانات والزروع إلا على ناس مخصوصين ، كما حرموا ركوب حيوانات أخرى ، ومنعوا ذكر اسم الله على نوع ثالث منها ، فجاء الإسلام

ونسف كل هذا : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، فقالوا : هذا لله ، بزعمهم ، وهذا لشركائنا . فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم . ساء ما يحكمون ! * وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم . ولو شاء الله ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون * وقالوا : هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء ، بزعمهم ، وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراءً عليه . سيجزيهم بما كانوا يفترون * وقالوا : ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتةً فهم فيه شركاء . سيجزيهم وصفهم ، إنه حكيم عليم * قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراءً على الله . قد ضلوا وما كانوا مهتدين » (٦٠)، «ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ، وأكثرهم لا يعقلون » (٦١) ، « إن يدعون من دونه إلا إناثا ، وإن يدعون إلا شيطانا مريداً * لعنه الله ، وقال : لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا * ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله . ومن يتخذ

(٦٠) الأنعام / ١٣٦ ـ ١٤٠ .

(٦١) المائدة / ١٠٣ .

الشيطانَ وليّا من دونِ الله فقد خَسِر خُسْرانا مُبِينا » (٦٢) .

وفى مجال العبادة (ولنحصر أنفسنا فى الحج وحده كمثال فقط) فإن الإسلام قد طهّر الكعبة من الأوثان ومتعلقاتها ، وحرم أن يطوف أى مشرك أو عريان بالبيت بعد العام الذى نزلت فيه سورة «براءة» ، وأوجب على المسلمين أن يُفِيضوا جميعا من مكان واحد حتى يقضي على العنجهية التى كانت تسول لبعض القبائل أن يتفردوا بمكان مخصوص يُفيضون منه وحدهم : « يا أيها الذين آمنوا ، إنما المشركون نَجَسٌ ، فلا يَقْرَبوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » (٦٣)، « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس » (٦٤) . كما أبطل التقليد السخيف الذى كان يتبعه بعض أهل المدينة عند عودتهم من حجهم ، فقد كانوا لا يدخلون دارا ولا فسطاطا من بابه ، ولكن من نقب أو فرجة من الخلف ، ظانين أن هذا من البِرّ : « وليس البِرُّ بأن تأتوا البيوت من ظُهورها ، ولكنّ البِرّ من اتقى . وأتوا البيوتَ مِنْ أبوابها » (٦٥) . كذلك وضع الإسلام نهاية للنَّسِيء، الذى كان عرب الجاهلية يلجأون إليه إذا كانوا فى حرب وأتى عليهم شهر من الأشهر الحرم ، إذ كانوا يستمرون فى الحرب

---

(٦٢) النساء / ١١٧ ـ ١١٩ .

(٦٣) التوبة / ٢٨ .

(٦٤) البقرة / ١٩٩ .

(٦٥) البقرة / ١٨٩ .

ويعوضون هذا الشهر بشهر آخر ليس من الأشهر الحرم ، مفسدين بذلك حكمة هذه الأشهر : « إنما النَّسِيءُ زيادة فى الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا ، يُحِلُّونه عاما ويُحَرِّمونه عاما لِيُواطئوا عِدَّة ما حرَّم اللهُ فيُحِلّوا ما حرَّم الله . زُيِّن لهم سوءُ أعمالِهم ، والله لا يَهْدى القومَ الكافرين » (٦٦) .

وقد كان النساء فى الجاهلية يُحْرَمْن من الميراث ، فجاء الإسلام وجعل لهن فى الميراث نصيبا مفروضا ، مثلهم مثل الرجال سواء : « لِلرِّجالِ نصيبٌ مِمّا ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيبٌ مما ترك الوالدان والأقربون مما قَلَّ منه أو كَثُر ، نصيبا مفروضاً » (٦٧) ، ووزع الميراث على نحو لم تعرفه الجاهلية بل ولا الأديان السابقة . وكان الرجل فى الجاهلية إذا مات عن امرأة وله عصبة ألقى هذا ثوبه على المرأة قائلا : « أنا أحق بها » ، ثم إذا شاء تزوجها بصداقها الأول ، وإن شاء زوجها غيره . كذلك كان الواحد منهم يتزوج بامرأة أبيه ، فجاء الإسلام وحرم كل ذلك : « يا أيها الذين آمَنوا ، لا يَحِلُّ لكم أن تَرِثُوا النِّساء كَرْهاً » (٦٨)، « ولا تَنْكِحوا ما نَكَحَ آباؤكم من النساء إلا ما قد سَلَف . إنه كان فاحشةً

(٦٦) التوبة / ٣٧ .

(٦٧) النساء / ٧ .

(٦٨) النساء / ١٩ .

ومَقْتاً وساء سبيلاً » (٦٩) . كما حرم صُوَراً أخرى من الزواج غير القائم على التراضي من الطرفين مما لا تقبله النفوس الحرة الكريمة ، وهو ما فصّلته السنة المطهرة . كذلك وضع الإسلام حدا لوأد البنات وجعله من أفظع الشُّنَع : « وإذا الموؤودة سُئِلَت (أى يوم القيامة) : * بأىِّ ذَنبٍ قُتِلت ؟ » (٧٠) .

وقد كان القمار والخمر من مفاخر العرب ، وما أكثر القصائد التى يتمدّح فيها شعراؤهم بإراقة الأموال عليها ، فجاء الإسلام فحرمها بتاتا : « إنما الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رِجْسٌ من عَمَلِ الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تُفْلحون » (٧١) . وكانت الثروة هى أساس التفاضل بين الناس ، كما كان للعصبية الجنسية والقبلية سلطان قاهر ، فقضى الإسلام على هذه المفاهيم المتدنية : « وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تُقَرِّبكم عندنا زُلْفَى إلا من آمن وعمل صالحا ، فأولئك لهم جزاء الضِّعْف بما عملوا ، وهم فى الغرفات آمنون » (٧٢) ، « يا أيها الناسُ ، إنا خلقناكم من ذَكَرٍ وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لِتَعَارَفوا . إن أكْرَمَكم عند اللهِ أتقاكم . إن

---

(٦٩) النساء / ٢٢ .

(٧٠) التكوير / ٨ ـ ٩ .

(٧١) المائدة / ٩٠ .

(٧٢) سبأ / ٣٧ .

اللهَ عليم خبير » (٧٣) . كما كانت قبيلة القاتل تؤخذ بجريرته ، فهدم القرآن هذا وأقام مكانه مبدأ المسؤولية الفردية : « ولا تَزِرُ وازرة وِزْرَ أخرى » (٧٤) .

فإذا انتقلنا إلى عبادات أهل الكتاب فسنرى أن الإسلام قد أتى بما يخالفها ، فهو مثلا قد ألغى القرابين التى كانت تُقَدَّم لله .كما وضع حدا لوساطة الكاهن أو القسيس وأصبح المسلم مرتبطا ارتباطا مباشرا بربه ، سواء في عبادته أو فى التكفير عن سيئاته . ومن هنا فليس فى الإسلام شيء اسمه ذبيحة إثم مثلا أو ذبيحة سلامة أو ذبيحة خطيّة (٧٥) .كذلك فالنجاسات فى الإسلام قد تخلصت مما يصاحبها ويترتب عليها فى اليهودية من عبء باهظ يخنق الأنفاس . ولعل هذا المثال الواحد ، وهو من أخف التشريعات الخاصة بالنجاسة ، يعطيك لمحة عن مدى التضييق الذى فرضته اليهودية على أتباعها ورفع الإسلام السمح إِصْرَه عن المسلمين : « وإذا كانت امرأة يسيل دمها أياما كثيرة فى غير وقت طمثها أو إذا سال بعد طمثها (وهو ما يسمى فى الإسلام بـ «الاستحاضة ») فتكون كُلُّ أيام سيلان نجاستها كما فى أيام طَمْثها . إنها نجسة . كلّ فراش

---

(٧٣) الحجرات / ١٣ .

(٧٤) الإسراء / ١٥ . وانظر « النجم » / ٣٦ ـ ٤٠ .

(٧٥) اقرأ تفصيلات ذلك وغيره فى سفر « اللاويين » / ١ ـ ١٠ .

تضطجع عليه كل أيام سيلها يكون لها كفراش طَمْثها . وكل الأمتعة التى تجلس عليها تكون نجسة كنجاسة طمثها . وكل من مسّهن يكون نجسا فيغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجسا إلى المساء . وإذا طَهُرَتْ من سَيْلها تحسب لنفسها سبعة أيام ثم تطهر. وفى اليوم الثامن تأخذ لنفسها يمامتين أو فَرْخَيْ حمام وتأتى بهما إلى الكاهن إلى باب خيمة الاجتماع ، فيعمل الكاهنُ الواحد ذبيحة خطيّة والآخر مُحْرَقَة ، ويكفر عنها الكاهن أمام الرب من سيل نجاستها . فتعزلان بنى إسرائيل عن نجاستهم لئلا يموتوا فى نجاستهم وبتنجيسهم مسكنى الذى فى وسطهم »[٧٦] . ومن يرد أن يقرأ حكم النجاسات الأخرى فليقرأ الأصحاحات الثمانية من الحادى عشر إلى الثامن عشر من السفر ذاته . أما فى الإسلام فليس على المستحاضة إلا أن تسد نزيف الدم بقطعة قطن مثلا ، وكلما حان ميعاد صلاة توضأت من جديد . وكذلك يحلّ لزوجها أن يعاشرها . فأين هذه السماحة من ذلك الإعنات ؟[٧٧]

وفى القرآن إشارة سريعة إلى هذا العنت فى دعاء المؤمنين ربهم : «ربّنا ، ولا تَحْمِلْ علينا إصْراً كما حَمَلْتَه على الذين من قبلنا»[٧٨] . أما الصلاة والصيام والزكاة فإن طريقة أدائها وأحكامها

---

(٧٦) لاويين / ١٥ / ٢٥ ـ ٣١ .

(٧٧) انظر فى ذلك مثلا « فقه السنة » / ١ / ٨٦ ـ ٨٩ .

(٧٨) البقرة / ٢٨٦ .

مختلفة فى الإسلام عنها فى اليهودية . ثم إنه ليس فى اليهودية حجّ. وهذا كله ينطبق أيضا على النصرانية .

أما الأطعمة فلم يُحرَّم منها فى القرآن إلا « الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِلَّ لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنَّطيحة وما أكل السَّبُعُ إلا ما ذكَّيتم ، وما ذُبِح على النُّصُب » [٧٩]، مع السماح للمضطر أن يتناول من ذلك على قدر الضرورة لا يعدوها: « فمن اضطُرَّ فى مَخْمَصَةٍ غيرَ متجانِفٍ لإثم فإن الله عفور رحيم » [٨٠]. وقد كان سبحانه حرّم على اليهود « كلَّ ذى ظُفُرٍ، ومن البقر والغنم حرَّمْنا عليهم شحومَهُما إلا ما حملت ظهورُهما أو الحَوَايا أو ما اختلط بِعَظْمٍ » [٨١]، وذلك جزاء بغيهم وظلمهم : «ذلك جزيناهم ببغيهم » [٨٢]، « فَبِظُلْمٍ من الذين هادوا حرَّمْنا عليهم طيبات أُحِلَّتْ لهم، وبِصَدِّهم عَن سبيل الله كثيرا * وأخذهم الرِّبا وقد نُهُوا عنه ، وأكلهم أموال الناسِ بالباطل » [٨٣] ، فأزال الإسلام هذا كله . وهو ما يوضحه القرآن بقوله تعالى مخاطبا موسى عليه السلام :

---

(٧٩) المائدة / ٣ .

(٨٠) المائدة / ٣ .

(٨١) الأنعام / ١٤٦ .

(٨٢) الأنعام / ١٤٦ .

(٨٣) النساء / ١٦٠ .

« ورحمتي وَسِعَت كُلَّ شيء ، فسأكتبها للذين يتّقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتّبعون الرسول النبيَّ الأُمّيَّ الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويُحِلُّ لهم الطيبات ويُحَرِّمُ عليهم الخبائث، ويَضَعُ عنهم إِصْرَهم والأغلالَ التى كانت عليهم » (٨٤). وقد اعترض اليهود على الإسلام لإباحته هذه الأطعمة وادّعَوْا أنها محرمة فى شريعة إبراهيم ، الذى ينتسب إليه المسلمون أيضا ، فرد القرآن عليهم قائلا: « كلُّ الطعام كان حِلاً لبنى إسرائيل إلا ما حرّم إسرائيلُ على نفسه من قَبْلِ أن تُنَزَّلَ التوارةُ . قل : فأْتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين * فمن افترى على الله الكَذِبَ من بَعْدِ ذلك فأولئك هم الظالمون * قل : صَدَقَ الله ، فاتّبِعوا مِلّةَ إبراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين » (٨٥) .

وكان العرب فى الجاهلية يتقارضون بالربا ، بل كان الدائن ، إذا حلّ الأجل ولم يستطع المدين أن يسدّد دينه برِبَاه ، يمدّ له فى الأجل ويزيد في الربا ، فنزل القرآن ليضع خاتمة لهذا كله مهددا أشد التهديد من لا يرعوى عن ذلك : « يا أيها الذين آمنوا ، اتّقُوا اللهَ وذَرُوا ما بَقى من الربا إن كنتم مؤمنين * فإنْ لم تفعلوا فأْذَنوا

(٨٤) الأعراف / ١٥٦ ـ ١٥٧ .

(٨٥) آل عمران / ٩٣ ـ ٩٥ .

بحرب (أى استعدوا لحرب) من الله ورسوله . وإن تُبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تَظْلمون ولا تُظْلَمون * وإن كان ذُو عُسْرَة فَنَظِرَةٌ إلى ميْسَرة ، وأنْ تَصَدَّقوا خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون »(٨٦) . فانظر كيف انتقل الإسلام إلى الجانب المقابل وجعل ترك الدين لا الربا وحده هو خير الخطتين . وفى موضع آخر من القرآن يقول رب العزة جل شأنه : « يا أيها الذين آمنوا ، لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفةً ، واتقوا الله لعلكم تُفْلحون * واتقوا النارَ التى أُعدَّت للكافرين »(٨٧) .

ومن النقاط التى يخالف فيها الإسلام اليهودية مسألة الربا . صحيح أن اليهودية تحرم الربا هى أيضا ، بيد أن هذا التحريم لا يمتد ليشمل إقراض الأجنبى بالربا ، بل يقتصر على تقارض اليهود فيما بينهم ، مما يعكس نزعة التعصب الجنسى المقيت لديهم ، هذا التعصب الذى وجدناه يتبدى فى اعتقادهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأن النار لن تَمَسَّهم ، مهما اجترحوا من جرائم (وحياتهم كلها جرائم وسفالات) ، إلا أياماً معدودات ، كأن الله سبحانه وتعالى يهودى مثلهم ، لعنهم الله أنى يؤفكون ! أما الإسلام فنزعته إنسانية، ولذلك فإن باب الخلاص فيه ، كما سبق أن أوضحنا ، مفتوح على مصراعيه لكل من آمن بالله ورسله وكتبه

---

(٨٦) البقرة / ٢٧٨ ـ ٢٨٠ .

(٨٧) آل عمران / ١٣٠ ـ ١٣١ .

وملائكته واليوم الآخر وعمل صالحا ، بغض النظر عن جنسيته وعن دينه السابق . ومن هنا فقد حرم القرآن الربا مطلقاً ، سواء كان المقترض مسلما أو كافرا . يقول العهد القديم : « لا تقرض أخاك بربا ، ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شيء مما يقرض بربا . للأجنبى تقرض بربا ، لكن لأخيك لا تقرض بربا » (٨٨) ، ويقول القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا ، اتقوا الله وذروا ما بَقِىَ من الرِّبا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأْذَنوا بِحَرْبٍ من اللّهِ ورسولِه . وإن تُبتم فلكم رؤوس أموالكم . لا تَظْلِمون ولا تُظْلَمون » (٨٩) ، هكذا بلا تمييز بين مسلم وغيره . ومما يرتبط بهذه النقطة ما أشار إليه القرآن العزيز فى الآية التالية : « ومنْ أهْلِ الكتابِ من إنْ تأْمَنْهُ بقنطارٍ يُؤَدِّه إليك ، ومنهم من إنْ تأْمنه بدينارٍ لا يُؤَدِّه إليك إلا ما دُمْتَ عليه قائما . ذلك بأنهم قالوا : ليس علينا فى الأُمِّيِّين سبيلٌ . ويقولون على الله الكَذِبَ وهم يعلمون » (٩٠) .

هذا ، وكان اليهود فى المدينة يزعمون للمسلمين أن الرجل إذا جامع زوجته (الجماع الطبيعى) من الخلف جاء الولد أحول ، فذكر المسلمون ذلك لسيدنا رسول الله عليه أزكى الصلوات وأفضل

---

(٨٨) تثنية / ٢٣ / ١٩ ـ ٢٠ .

(٨٩) البقرة / ٢٧٨ ـ ٢٧٩ .

(٩٠) آل عمران / ٧٥ .

التسليمات ، فنزل قوله تعالى ينقض هذا الهراء اليهودى : «نساؤكم حرثٌ لكم ، فأتوا حرثكم أنّى شئتم » (٩١) . أما النصارى فقد ابتدعوا الرهبنة ، التى اشتطوا فيها وهم يظنون أنهم يبتغون بها رضوان الله ، فجاء القرآن وعاب هذا عليهم : « ورهبانيةً ابتدعوها ، ما كتبناها عليهم ، إلا ابتغاءَ رضوان الله ، فما رَعَوْها حقَّ رعايتها » (٩٢) ، إذ إنها تدابر الغرائز الإنسانية وتحرّم بلا معنى مفهوم نعم الله التى تفضل بها على عباده .

ومن هذه الأمثلة التى اقتصرنا فيها على القرآن الكريم ولم نتطرق إلى الأحاديث النبوية الشريفة ، وهى مجرد أمثلة لا تغطى كل أوجه الاختلاف بين الإسلام وبين اليهودية والنصرانية ، يتضح لكل ذى بصر أن للإسلام شخصيته المستقلة ، وهى شخصية سوية تتمشى مع العقل الإنسانى المحرَّر من أغلال الوثنيات والخرافات ، ومع الغرائز الإنسانية المعتدلة ، أى باختصار : مع الحياة الطيبة المشرقة . ومن هنا نفهم قوله تعالى : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مُصدِّقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه » (٩٣) . إنه يوافق التوراة والإنجيل فيما لم تَمَسّه يد التحريف من العقائد ، وفيما لا

(٩١) البقرة / ٢٢٣ .

(٩٢) الحديد / ٢٧ .

(٩٣) المائدة / ٤٩ .

يزال من التشريعات للبشرية صالحا . أما إذا كان ثمة تحريف أو اقتضت ظروف الإنسانية تبديلا فى هذا التشريع أو ذاك فإن القرآن يصدع عندئذ بالحق المبين . ومن هنا كذلك تتضح سخافةُ بل سفاهة الاتهام الذى يحاول المستشرقون أن يشوهوا به وجه القرآن والإسلام ، والذى يقول إن الإسلام مسروق من اليهودية والنصرانية وتقاليد الجاهلية وعاداتها .

الثقة المطلقة والعلم المحيط

مما يلفت النظر فى القرآن الكريم تلك الثقة المطلقة التى يتحدث بها عن مستقبل الإسلام وما ينتظر أعداءه من هزائم نكراء برغم عُدَدهم وعديدهم وأموالهم وسخريتهم واستهزائهم . وقليلة هى السور (وبالذات المكية) التى لا تتوعد من يكذبون محمدا عليه الصلاة والسلام ويؤذونه بالقول والفعل وحبك المؤامرات . وهذا التوعد وتلك الثقة المطلقة يتخذان صورا مختلفة : فقد يقص القرآن قصص الأمم الخالية التى وقفت من رسلها وأنبيائها ما وقفه أعداء محمد منه ، وكيف كانت نهايتهم سوداء منكرة . وعادة ما تنتهى قصة كل نبى وأمته وما حل بها من عذاب إلهى مريع بطمأنة الرسول إلى أن عذابا مثل هذا العذاب ينتظر قومه ، وأنه آت لا محالة فلا داعى للاستعجال ، وأنه إذا كان الله يمهلهم فليس معنى ذلك أنه قد أهملهم . وهذه القصص من الكثرة فى القرآن بحيث لا أجد أى داع للاستشهاد بشىء منها . وقد وردت تلك القصص في بعض الأحيان موجزة (كما فى سورة « البروج » و « ق » و « الفرقان ») ، ووردت فى بعض الأحيان الأخرى مفصلة (مثلما هو الحال فى سورة « الأعراف » و « يونس » و« هود ») . بل إن بعض السور قد اقتصر على أخبار تلك الأمم مع رسلها أو كاد ، وبعضها الآخر قد سُمِّىَ باسم نبى من الأنبياء (مثل سورة « يونس » و « هود » و « إبراهيم ») . كما أن هناك سورة

سميت باسم « الأنبياء » ، هكذا بإطلاق . وبعض هذه القصص يتعلق بأمم لم يُرْسَل إليها رسول ولكنها كفرت بأنعم الله فأذاقها الله الفقر من بعد غِنًى ودمّر حضارتها تدميرا ، وذلك مثل الآيات التى تتحدث عن سبإٍ وجنتيهم اللتين بُدِّلَتا جنتين ذواتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وأَثْلٍ وشيء من سِدرٍ قليل ، وأسفارهم التى باعد الله بينها وجعلهم أحاديث ومزقهم كل مُمزّق[1]، وكذلك الآية التى ضرب الله فيها «مثلا قريةً كانت آمنة مطمئنة يأتيها رِزْقُها رَغَداً من كل مكان، فكفَرت بأَنْعُمِ الله ، فأذاقها اللهُ لِباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون» [2] . وقد يورد القرآن قصة فرد نال عقابه جزاء كفره وطغيانه ، كما فى قصة صاحب الجنة الذى اغتر بماله وثماره ولم يؤد حق الشكر لله تواضعًا واعترافًا بالنعمة فمحق الله جنته[3]، وكقصة قارون ، الذى خسف الله به وبداره الأرض وجعله عبرة لمن كانوا يحسدونه على ما كان فيه من نعيم [4].

إن القرآن يؤكد فى مواضع مختلفة أن الله سبحانه ناصر رسله فى الدنيا والآخرة : « إنّا لَنَنْصُر رُسُلَنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويومَ يقومُ الأشهاد» [5]، «ولقد سبقت كَلِمَتُنا لِعِبادنا المُرْسَلِين *

(١) سبأ / ١٥ .

(٢) النحل / ١١٢ .

(٣) الكهف / ٣٢ ـ ٤٤ .

(٤) القصص / ٥٦ .

(٥) غافر / ٥١ .

إنهم لَهم المنصورون * وإن جُنْدَنا لَهم الغالبون » (٦). وهو فى موضع آخر يسوق ذلك المعنى ذاته ولكن على غير هذا النحو المباشر، فيقول عز من قائل : « ولَيَنْصُرَنَّ الله من ينْصره . إن اللّهَ لَقَوىٌ عزيز* الذين إنْ مكّنّاهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتَوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونَهَوْا عن المنكر . ولِلّه عاقبة الأمور » (٧). وما أكثر ما يتحدى القرآن الكفار بمثل هذه العبارة : « قل : يا قَوْم ، اعْمَلُوا على مكانتكم ، إنى عاملٌ . فسوف تعلمون * من يأتيه عذاب يُخْزِيه ويحلُّ عليه عذابٌ مُقيم » (٨)، وهى نفس العبارة التى تحدى بها بعض الرسل الماضين قومهم : فشعيب عليه السلام يقول لقومه بعد كل ما بذل من جهد لهدايتهم عبثا : «ياقوم ، اعْمَلُوا على مكانتكم ، إنى عامل . سوف تعلمون من يأتيه عذاب يُخزيه ومن هو كاذب» (٩). ومثل ذلك قوله تعالى لنبيه محمد عليه السلام: «قل: كلٌ متربصٌ ، فتربصوا ، فستعلمون مَنْ أصحابُ الصِّراطِ السَّوِىِّ ومن اهتدى » (١٠). وقريب منه قوله سبحانه : « وسيعلم الذين ظلموا أىَّ مُنْقَلَبٍ ينقلبون » (١١). وقد يجىء التهديد أصرح من

(٦) الصافات / ١٧١ ـ ١٧٣ .
(٧) الحج / ٤٠ ـ ٤١ .
(٨) الزمر / ٣٩ ـ ٤٠ .
(٩) هود / ٩٣ .
(١٠) طه / ١٢٤ .
(١١) الشعراء / ٢٢٧ .

هذا : «إنَّ ما تُوعدُون لآتٍ ، وما أنتم بمُعجِزين » (١٢). وما أكثر ما يؤكد القرآن أن هؤلاء المستهزئين سيحيق بهم ما كانوا به يستهزئون(١٣)، كما يلفت نظر النبى عليه الصلاة والسلام إلى أن هؤلاء الكفار إن كانوا الآن يتقلبون فى الثروة والقوة والنعيم فينبغى ألا يبالى بهم ، إذ سوف يأتى اليوم الذى يفقدون فيه كل هذا البريق وتدور عليهم دائرة بغيهم وسوْئهم : « فلا يَغْرُرْكَ تقلُّبهم في البلاد » (١٤)، « لا يَغُرَّنَّك تقلُّبُ الذين كفروا فى البلاد * متاعٌ قليلٌ ثم مأواهم جهنَّم ، وبئس المِهاد » (١٥). وكان الكفار كلما استعجلوا ما يُتَوَعَّدون به من عقاب أكد لهم القرآن أن العذاب آتٍ فلا يستعجلوه : « أتى أَمْرُ الله فلا تستعجلوه » (١٦)، وأن الأمر أمر إمهال لا إهمال : « وكَأَيِّنْ من قرية أمليْتُ لها وهى ظالمة ، ثم أخذتُها وإليَّ المصير »(١٧). وفى مواضع أخرى ينذرهم بأن العقاب قادم فى الطريق: « اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلةٍ معرضون * ما يأتيهم من ذِكْرٍ منْ ربهم مُحْدَثٍ إلا استمعوه وهم يلعبون * لاهيةً قلوبهم »(١٨)، وأن النُّذُر تتوالى: «هذا نذيرٌ من النُّذُر الأولى *

---

(١٢) الأنعام / ١٣٤ .

(١٣) انظر مثلا « الأنعام » / ١٠ ، والأنبياء / ٤١ .

(١٤) غافر / ٤ .

(١٥) آل عمران / ١٩٦ ـ ١٩٧ .

(١٦) النحل / ١ .

(١٧) الحج / ٤٨ .

(١٨) الأنبياء / ١ ـ ٣ .

أزفت الآزفة . ليس لها من دون الله كاشفة» (١٩)، وأن العذاب يقترب رويدا رويدا : « ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعةٌ أو تَحُلُّ قريبا من دارهم حتى يأتِيَ وَعْدُ الله » (٢٠). وقد يسوق هذا المعنى ملفوفا ، كما فى هذه الصورة التى يلفت الله فيها الأبصار إلى ظاهرة انقشاع الظلام شيئا فشيئا وفراره أمام ضوء الشمس الساطع : «أَلَمْ تَرَ إلى ربِّك كيف مَدَّ الظِّلَّ ، ولو شاء لجعله ساكنا ؟ ثم جعلنا الشَّمسَ عليه دليلا * ثم قبضناه إلينا قبضًا يسيرا »(٢١). وإذا ضاقت من الرسل والمؤمنين الصدور لتراخى الزمن بالكفار من غير عقوبة طمأنهم بأن النصر مهما يبطئ فهو آتٍ آت : «حتى إذا استيأس الرُّسُلُ وظنوا أنهم كُذِبوا جاءهم نَصْرُنا فَنُجِّيَ من نشاء . ولا يُرَدُّ بأسُنا عن القوم المجرمين»(٢٢)، « أم حَسِبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يأتكم مَثَلُ الذين خَلَوْا مِن قَبْلِكم ؟ مسَّتْهم البأساءُ والضراءُ وزُلْزِلوا حتى يقولَ الرسولُ والذين آمنوا معه : متى نَصْرُ الله؟ ألا إنَّ نَصْرَ الله قريب » (٢٣). وعندما قامت الحرب بين الإسلام وجيوش الكفر كان القرآن يصدع بمثل هذه الآيات :

---

(١٩) النجم / ٥٦ ـ ٥٨ .
(٢٠) الرعد / ٣١ .
(٢١) الفرقان / ٤٥ ـ ٤٦ .
(٢٢) يوسف / ١١٠ .
(٢٣) البقرة / ٢١٤ .

« إن الذين كفروا لن تُغْنِيَ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم من الله شيئا » (٢٤)، «سنُلْقِي في قلوب الذين كفروا الرُّعبَ »(٢٥). لقد كان الكافرون دائما يهددون رسلهم بأنهم سيخرجونهم من أرضهم، « فأوحى إليهم ربُّهم : لَنُهلِكَنَّ الظالمينَ * ولَنُسْكِنَنَّكُم الأرضَ مِنْ بَعْدِهم . ذلك لمن خاف مَقَامى وخاف وَعيدِ»(٢٦).

وهذه الثقة التى ينضح بها القرآن المجيد فى كل سورة تقريبا لم تكن مقصورة على مواجهته مع الوثنيين العرب ، بل واجه بها أيضا أهل الكتاب من يهود ونصارى . ولست أنوى أن أُفِيض فى هذا بل يكفى مثال واحد مع كلٍّ ، فقد تحدى القرآن بنى إسرائيل أنهم إذا كانوا يعتقدون حقا وصدقا أن الجنة لهم من دون الناس فَلْيتمنَّوُا الموت : « قل : إن كانت لكم الدّارُ الآخرةُ عند الله خالصةً من دون الناس فتمنَّوُا الموتَ إن كنتم صادقين * ولن يَتَمَنَّوْه أبدا بما قدَّمت أيديهم . والله عليم بالظالمين » (٢٧). ويقول البيضاوى فى تفسير هاتين الآيتين : « وعن النبى عليه الصلاة والسلام : لو تمنوا الموت لغصّ كل إنسان بريقه فمات مكانه ». فتأمل هذه الثقة

---

(٢٤) آل عمران / ١٠ .

(٢٥) آل عمران / ١٥١ .

(٢٦) إبراهيم / ١٣ ـ ١٤ .

(٢٧) البقرة / ٩٤ ـ ٩٥ .

المطلقة تجد أنها لا يمكن أن تكون إلا من لدن العزيز القدير. والواقع أن القرآن لم يتحدّهم بهذا مرة واحدة بل أعاد التحدى كرة أخرى ليكمدهم إن كانت لديهم ذرة من إحساس بالكرامة : « قل : يا أيها الذين هادوا ، إن زعمتم أنكم أولياءُ لله من دون الناس فتمنّوا الموتَ إن كنتم صادقين * ولا يتمنّونه أبداً بما قدّمت أيديهم . والله عليمٌ بالظالمين » (٢٨). وهذه الثقة وهذا التحدى الذى أراد القرآن أن يضع به حدا لجدال أهل الكتاب السفيه الذى لا يؤدى إلى طائل تجدهما فى الآية التالية التى يدعو فيها الرسول نصارى نجران إلى المباهلة ، وذلك حين جاؤوه فحاجّوه فى عيسى عليه السلام فبين لهم القرآنُ بمنطق العقل الباتر أنه ليس إلا عبدا رسولا وأنه إذا كان قد وُلد من غير أب فقد خُلِقَ آدم بلا أب ولا أم ، فلم ينفع معهم منطق الفطرة السليمة والعقل الواضح النزيه فقال القرآن مخاطبا الرسول : « فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلْم فقل : تعالَوْا ندْعُ أبناءَنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفُسَنا وأنفسَكم ثم نبْتهِلْ فنجعلْ لعنة الله على الكاذبين* إن هذا لهو القَصَصُ الحقُّ . وما من إله إلا الله ، وإن الله لَهُوَ العزيزُ الحكيم * فإن تولّوْا فإن الله عليم بالمفسدين » (٢٩). والذى حدث هو أنهم لما دُعُوا إلى المباهلة

---

(٢٨) الجمعة / ٦ ـ ٧ .

(٢٩) آل عمران / ٦١ ـ ٦٣ .

قالوا: دَعْنا حتى ننظر . فلما تخالَوْا (أى خلا بعضهم إلى بعض) قالوا للعاقب (وكان ذا رأيهم) : ما ترى ؟ فقال : والله ، لقد عرفتم نبوته ، ولقد جاءكم بالفصل فى أمر صاحبكم . والله ما بَاهَلَ قومٌ نبيا إلا هلكوا . فإن أبيتم إلا إلْفَ دينكم فوادِعوا الرجل (أى سالموه) وانصرفوا . فأتوا رسول الله ﷺ وقد غدا محتضنا الحسين وآخذا بيد الحسن ، وفاطمة تمشى خلفه ، وعلى رضى الله عنه خلفها ، وهو يقول : إذا أنا دعوت فأمِّنوا ، فقال أسقفّهم : يامعشر النصارى ، إنى لأرى وجوها لو سألوا الله تعالى أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله ، فلا تباهلوا فتهلكوا . فأذْعَنوا لرسول الله ﷺ وبذلوا له الجزية : ألفى حلةٍ حمراء وثلاثين درعا من حديد . فقال عليه الصلاة والسلام : والذى نفسى بيده ، لو تباهلوا لَمُسِخوا قِرَدَةً وخنازير، ولاضطرم عليهم الوادى ناراً ، ولاستأصل الله نَجران وأهله حتى الطير على الشجر (٣٠) . فتأمل هذه الثقةَ المطلقة من جانب محمد وأهل بيته حتى الأطفال منهم ، وهذا الجبنَ والهلع الذى يدل على كذب إيمان النصارى وفساد عقيدتهم وأنهم إنما يستمسكون بها تقليدا للآباء من غير فهم ولا اقتناع أو خوفًا على المصالح والرئاسات والسمعة الشخصية . فهل يحق أن يقال بعد هذا كله إن محمدا قد سرق أو حتى تشبّع ، من غير أن يحسّ ، أفكارَ أهل الكتاب وعقائدهم ؟ ويتصل بهذه الثقة التى لا تتزعزع ولا تتلجلج

---

(٣٠) البيضاوى فى تفسير الآيات السابقة .

تحدى القرآن للكفار الذين ادعوا أن محمدا قد افتراه أن يأتوا بمثله: « فَلْيَأتوا بحَديثٍ مِثْلِه إن كانوا صادقين » (٣١) ، ثم خفف عنهم فطالبهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، ولْيستعينوا بكل من يعرفون ، ولن يستطيعوا أبدا ذلك : « أم يقولون : افتراه ؟ قل : فأتوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مثله مُفْتَرَيَاتٍ ، وادْعُوا مَنِ استطعتم من دُون اللّه إن كنتم صادقين * فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنّما أُنْزِلَ بِعِلْم الله وألاّ إله إلا هو ، فهل أنتم مُسلمون ؟ »(٣٢)، ثم خفف عنهم مرة ثالثة فتحداهم أن يأتوا ولو بسورة مثله : « أم يقولون : افتراه ؟ قل : فأتوا بسورة مِثْلِه ، وادْعُوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » (٣٣) ، وأعاد التحدى مرة رابعة قاطعة : « وإن كنتم فى ريْبٍ مما نزلنا على عبْدِنا فأتوا بِسورة من مِثْلِه ، وادعوا شُهداءكم من دُونِ اللهِ إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التى وَقودها الناسُ والحجارة أُعدّت للكافرين » (٣٤). وهو يفتتح كثيرا من سوره بحرف أو حرفين أو أكثر من حروف الهجاء ، ثم يعقّب بأن آياته قد رُكّبت من هذه الحروف التى هى ملك أيديهم يستطيعون أن يتصرفوا فيها على النحو الذى يحبون ، وهو تحدٍّ

---

(٣١) الطور / ٣٣ .
(٣٢) هود / ١٣ ـ ١٤ .
(٣٣) يونس / ٣٨ .
(٣٤) البقرة / ٢٣ ـ ٢٤ .

ملفوف بأنهم سيعجزون عن الإتيان بمثله . فمن أين لمحمد هذه الثقة الراسخة الصلبة إلا أن يكون مصدرها هو الله ، الذى بيده ملكوت كل شيء والقاهر فوق عباده ؟

ولست أريد أن أخوض أكثر من ذلك فى هذا الموضوع ، بل كل ما أحب أن أقوله هو أن الكفار ، بعد كل هذه التقريعات الموجعة ، لم يستطيعوا أن يأتوا ولو بآية واحدة من مثل آيات القرآن . وهذه حقيقة تاريخية لا تُمَارَى . وكيفما نظر الباحث إلى هذه المسألة فهو مُنْتَهٍ إلى أن هذا التحدى لا يمكن أن يصدر عن بشر مهما تكن ثقته بنفسه : فمن جهةٍ نجد أن القرآن قد أكّد مرارا أنهم لن يقدروا على الإتيان بمثله ، وهو ما حدث . فهذه ثقة تتمثل فى التنبؤ القاطع بالغيب . ومن جهة أخرى فإن عجز الكفار فى حد ذاته هو دليل على أن هذا القرآن ، من حيث المبدأ ، تنقطع من دونه الرقاب والأنفاس ولا يبلغ قمتَه الشمّاء بَشَر . فالمحصلة النهائية إذن هو أن هذا التحدى لم يَقُمْ له أحد ، وأن الثقة التى وراء هذا التحدى ليست ثقة ادعاها الغضب الأهوج أو افتعلها التهويش الكاذب ، بل هى ثقةُ مَنْ بيده الأمر والنهى ومن يقول للشيء : « كن » فيكون .

وتأخذنا الإشارة إلى التنبؤ بالغيب فى الفقرة السابقة إلى الحديث عن النبوءات التى وردت فى القرآن وصاحبت نزول الوحى

من بدايته إلى نهايته تقريبا . ففى أول الدعوة عندما اشتد أذى أبى لهب عم الرسول له ﷺ نزلت سورة « المَسَد » ، التى يتوعد الله سبحانه وتعالى فيها هذا العم بأنه « سَيَصْلَى نارًا ذاتَ لَهَبٍ »(٣٥). ومعنى ذلك أن مصيره سيكون إلى الجحيم ، وهو ما لن يحدث إلا إذا بَقِىَ على كفره حتى مماته ، وقد كان .

وفى سورة « القمر » ، وهى من سور العهد المكى المبكرة ، نقرأ قوله تعالى : « سَيُهزَمُ الجَمْعُ ويُولُّون الدُّبُرَ »(٣٦). وفى رواية عن عمر أنه لما نزلت هذه الآية عُمِّىَ معناها عليه إلى أن سمع الرسولَ عليه السلام يوم بدر يرددها فانكشف له معناها . وهذا هو نص كلام البيضاوى عند تفسير هذه الآية : « وقد وقع (أى هذا الأمر) يوم بدر ، وهو من دلائل النبوة . وعن عمر رضى الله عنه أنه لما نزلت قال : لم أعلم ما هو . فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يلبس الدرع ويقول : « سيُهزَمُ الجَمْعُ » فعلمته » .

وفى موضع آخر من القرآن نجد هذه الآية الموجزة الحاسمة : « إنا كَفَيْنَاكَ المُسْتَهزِئين » (٣٧) ، التى يقول البيضاوى فى سبب نزولها: «قيل : كانوا خمسة من أشراف قريش : الوليد بن المغيرة

(٣٥) المسد / ٣ .
(٣٦) القمر / ٤٥ .
(٣٧) الحجر / ٩٥ .

والعاص بن وائل وعدى بن قيس والأسود بن عبد يغوث والأسود بن عبد المطلب يبالغون فى إيذاء النبى ﷺ والاستهزاء به ، فقال جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ : « أُمِرْتُ أن أكْفِيكَهُم » . فأومأ إلى ساق الوليد فمرّ بنبَال فتعلق بثوبه سهم ، فلم ينعطف تعظُّمًا لأخذه، فأصاب عرقا فى عقبه فقطعه فمات . وأومأ إلى أخمص العاص فدخلت فيه شوكة فانتفخت رجله حتى صارت كالرحى ومات . وأشار إلى أنف عدى بن قيس فامتخط قيحا فمات ، وإلى الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد فى أصل شجرة فجعل ينطح برأسه الشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات ، وإلى عينى الأسود بن عبد المطلب فعمى . وسواء صحت هذه الرواية أو لم تصح فلا نزاع فى أن هؤلاء المستهزئين لم يستطيعوا أن ينالوا من حياة الرسول ولا دعوته منالا ، أى أن وعد الله لرسوله قد تحقق .

وفى سبب نزول الآيات الكريمة التالية : « ألم * غُلِبَت الرومُ* فى أدْنَى الأرض ، وهم من بعد غَلَبِهم سيَغْلِبُونْ * فى بضْعِ سنين. لله الأمر من قَبْلُ ومن بعْدُ . ويومئذٍ يفرحُ المؤمنون * بنصر الله . ينصرُ من يشاء ، وهو العزيز الرحيم * وعْدَ الله ، لا يُخْلِفُ الله وَعْدَه، ولكنّ أكْثَرَ الناس لا يعلمون » (٣٨) يقول البيضاوى : « رُوِى أن فارس غَزَوْا الروم فوافَوْهم بأذرعات وبصرى ، وقيل : بالجزيرة ،

(٣٨) الروم / ١ ــ ٦ .

وهى أدنى أرض الروم من الفرس ، فغلبوا عليهم . وبلغ الخبر مكة ففرح المشركون وشمتوا بالمسلمين وقالوا : أنتم والنصارى أهل كتاب، ونحن وفارس أُمّيّون . وقد ظهر إخواننا على إخوانكم ، ولنَظْهَرَنَّ عليكم ، فنزلت . فقال لهم أبو بكر : لا يُقِرَّنَّ الله أعينكم، فوالله لتَظْهَرَنَّ الروم على فارس بعد بضع سنين . فقال أُبَىّ بن خلف: كذبْتَ ! اجعل بيننا وبينك أجلا أُناحِبُك (أراهنك) عليه. فناحبه على عشر قلائص من كل واحد منهما ، وجعلا الأجل ثلاث سنين. فأخبر أبو بكر ، رضى الله عنه ، رسول الله ﷺ فقال : البِضْع ما بين الثلاث إلى التسع ، فزايده فى الخطر (الرهان) ومادّه فى الأجل . فجعلاه مائة قَلُوص إلى تسع سنين . ومات أُبَىّ من جرح رسول الله ﷺ بعد قفوله من أحد ، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية ، فأخذ أبو بكر الخطر من ورثة أُبَىّ وجاء به إلى رسول الله ﷺ ، فقال : تَصَدَّقْ به ». والآية من دلائل النبوة لأنها إخبار بالغيب . والعجيب أن يأتى المستشرق سافارى فيعلق ، فى ترجمته للقرآن ، على هذه الآية بقوله : « إن المسلمين بعد أن تحققت هذه النبوءة قد اتخذوها حجة قاطعة على نبوة محمد . ولكن من السهل إدراك تهافت مثل هذه الحجج القائمة على نبوءة غامضة كهذه بمقدور أى إنسان يعرف حالة الإمبراطورية الرومانية وإمبراطورية

الفرس أن يتنبأها بدقة » (٣٩). والحق أن الأمر ليس بهذه السهولة التي يزعمها هذا المكابر ، وإلا فهل كان الرسول يعرف من حالة الإمبراطوريتين أكثر مما كان يعرفه أبيّ بن خلف وأبو سفيان وغيرهما من دهاة قريش المضرَّسين الذين كانوا يجوبون الشام والعراق واليمن بتجارتهم ، وكان بعضهم يقابل الحكام والولاة هناك كما رأينا في حوار أبي سفيان وهرقل في بلاط العاهل البيزنطي ؟ فلماذا إذن عرف الرسول ذلك ولم يعرفه قومه ، الذين تحدَّوْا أبا بكر على مائة قُلُوص تكذيبا منهم بنبوءة القرآن بانتصار الروم على الفرس في بضع سنين فكسبها أبو بكر منهم ؟ إن من السهل مثلا أن يحس الإنسان المجرب إحساسا عاما أن ثمة حربا قادمة بين دولتين متعاديتين ، أما أن يتنبأ بوقوعها في مدى لا يتجاوز تسع سنوات ، ويتنبأ كذلك بانتصار الجانب الذى انهزم من فوره ، وتقع الأمور بالضبط كما قال فيكسب الرهان ممن تَحَدَّوْه ، فهذا أمر خارق ، وبخاصة إذا علمنا أن هذه النبوءة لو لم تتحقق لكان لها على مستقبل الإسلام أوخم العواقب . إن أجهزة المخابرات العصرية بعقولها البشرية المتخصصة وعقولها الإلكترونية المعقدة تخطئ كثيرا في مثل هذه الأمور . ولنا نحن المسلمين في حرب رمضان المجيدة وتوقيتها ونتائجها عبرة ، إذ فشلت المخابرات الإسرائيلية المسنودة من

---

(39) Savari, le Coran, p. 365, n. 2 .

مخابرات الغرب كله أن تتنبأ بوقوع المعركة ونتيجتها [٤٠]. على أن هنـاك قراءة أخرى (بغض النظر عن صحتها) للفعلين « غلبت » و« سيغلبون » فى الآيات السابقة ، ورواية مختلفة عن سبب نزولها ، إذ تُقْـرأ هذه الآيات على النحـو التـالى: « غَلَبَت الروم فى أدنى الأرض، وهم من بعد غَلَبِهم سيُغْلَبون » ، ومعناها « أن الروم غَلَبوا على ريف الشام ، والمسلمون سيغلبونهم . وفى السنة التاسعة من نزوله (أى نزول الوحى بهذه الآيات) غزاهم المسلمون وفتحوا بعض بلادهم . وعلى هذا تكون إضافة « الغَلَب » (أى الهزيمة) إلى فاعله » [٤١] .

فهذه أمثلة من النبوءات القرآنية فى العهد المكى . أما فى المدينة فقد رأينا القرآن يطمئن النبى عليه الصلاة والسلام بعبارة موجزة حاسمة كالتى طمأنه بها أنه سيكنيه المستهزئين ، لكن الأمر فى هذه المرة كان متعلقا باليهود والنصارى : « فسَيَكْفيكَهُمُ اللهُ » [٤٢] ، وقد كان .

وهناك قوله تعالى مخاطبا رسوله الكريم : « والله يَعْصِمك من

---

(٤٠) انظر كتابنا « المستشرقون والقرآن » ، الذى نقلنا عنه هذا الرد مع بعض التصرف والإضافة / ٣٠ ـ ٣١ .
(٤١) انظر البيضاوى فى تفسير هذه الآيات .
(٤٢) البقرة / ١٣٧ .

الناس » . « وعن أنس رضى الله عنه : كان رسول الله ﷺ يُحْرَس ، حتى نزلت فأخرج رأسه من قبة أَدَم فقال : انصرفوا أيها الناس ، فقد عصمنى الله من الناس » (٤٣) ، وعاش النبى بعد ذلك أعواما لم يكفّ أعداؤه أثناءها عن محاربته والتآمر عليه بكل سبيل ، ومع ذلك لم ينالوا منه منالا . بل إن بعضهم همّ فعلا بقتله عليه السلام ولم يكن أحد يحرسه ، وكان فى يد عدوه السيف بينما هو عليه السلام أعزل . ولم يستطع الرجل أن يقتله بل انتهى الأمر فى دقائق بإسلامه. ومثل ذلك قصة اليهودية التى وضعت له عليه السلام السمّ فى لحم شاة قدمته إليه هو وأصحابه ، فقتل السم واحدا من الصحابة ، ونجا رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وفى سورة « الفتح » إشارة إلى رؤيا رآها النبى عليه السلام عشية غزوة الحديبية ، وفيها يدخل هو وأصحابه مكة وقد حلق بعضهم رأسه وقصّر بعض آخر شعره ، فقصها النبى على أصحابه ففرحوا . لكنهم لما تم صلح الحديبية ، الذى عادوا بمقتضاه أدراجهم ، فلم يدخلوا مكة على أن يدخلوها عامهم المقبل حزنوا وقال بعضهم : والله ما حلقنا ولا قصّرنا ولا رأينا البيت . فنزلت الآية التالية : « لقد صَدَقَ اللهُ رسولَه الرُّؤيا بالحقّ : لَتَدْخُلُنّ المسجدَ الحرام إن شاء الله آمنين ، محلقين رؤوسكم ومُقَصِّرين لا تخافون ،

(٤٣) انظر البيضاوى فى سبب نزول هذه الآية .

فَعَلِم ما لم تَعْلَمُوا فجعـل من دون ذلك فتحـا قريبا (وهو فتح خيبر) »(٤٤). ولما سألوا النبي بعد قدومه المدينة : « ألم تقل يارسول الله إنك تدخل مكة آمنا ؟ » كان جوابه: « بلى . أَقُلْتُ لكم : مِنْ عامى هذا ؟ » . قالوا : « لا » . قال : «فهو كما قال لى جبريل عليه السلام » (٤٥). كـان ذلك فى ذى القـعـدة سنة ست من الهـجرة ، وفى نفس الوقت من السنة التى تليـهـا دخل المسلمـون ، كـمـا قـال الصـادق الأمين بناء على رؤياه ، مكة محلقين رؤوسـهـم ومقصرين لا يخافون ، وذلك بمقتضى صلح الحديبية نفسه (٤٦).

كـذلك وردت فى سـورة « الممتحنة » نبـوءة بأن الله سـوف يجـعـل مـودة بين المسلمين والمشـركين ، وذلك بعـد أن لجّت بين الفريقين العداوة والبغضاء وتقطعت الأواصر تماما ، وبخاصة بعد نزول قـوله تعالى: « لا تتّخِذوا عَدُوّى وعَدُوّكم أولياءَ تُلْقُون إليـهم بالمودة »(٤٧) . ونص النبوءة هو : « عسى الله أن يَجْعَل بينكم وبين الذين عاديتُم منهم مودّةً . والله قدير ، والله غفـور رحيم » (٤٨). وقد أنجز عز شأنه ما وعد فَفُتِحت مكة ودخل المشركون الإسلام

---

(٤٤) الفتح / ٢٧ .
(٤٥) انظر البيضاوى مثلا فى تفسير الآية السابقة ، وابن هشام / ٣ / ٢١٠ .
(٤٦) انظر ابن هشام / ٤ / ٣ .
(٤٧) الممتحنة / ١ .
(٤٨) الممتحنة / ٧ .

أفواجا ، وحلّت المودات محل العداوات (٤٩). كما تنبأ القرآن الكريم للمؤمنين بأنه سبحانه مستخلفهم ، أى ناصرهم ومُبَوِّئُهم مكانا قياديا على خريطة العالم الروحية والسياسية ، ووَعَدَهم بأنه ناصرٌ دينهم على الأديان كلها ، وهو ما تحقق بحذافيره فلم تمرّ إلا سنون قليلة على وفاة سيدنا رسول الله ﷺ حتى كانت الإمبراطورية الفارسية ذات المجد التليد والتاريخ العريق فى خبر كان ، وحتى امتُلخت الشام ومصر دُرّتا الإمبراطورية البيزنطية من أيدى البيزنطيين إلى الأبد بمشيئة الله . ثم لم تمرّ بضع عشرات أخرى من السنين حتى بلغ المسلمون الصين شرقا، وتوغلوا فى أوروبا من جهة الجنوب الغربى إلى أن وصلوا جنوب فرنسا وشكلوا رعبا قاتلا للأوربيين مئات من السنين . وبذلك صدق الله وعده : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لَيستخلفنّهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، ولَيمكِّنَنّ لهم دينَهم الذى ارتضى لهم، وليُبَدِّلَنّهم من بعد خوفهم أمنا : يعبدوننى لا يشركون بى شيئا » (٥٠) ، « هو الذى أرسل رسولَه بالهُدَى ودينِ الحق ليُظْهِرَه على الدِّينِ كلِّه ، ولو كَرِه المُشركون » (٥١) ، « هو الذى أرسل رسولَه بالهُدَى ودينِ الحق ليُظْهِره على الدِّين كله . وكفى بالله شهيدا » (٥٢) .

---

(٤٩) انظر ، فى تفسير هاتين الآيتين ، البيضاوى مثلا .

(٥٠) النور / ٥٥ .

(٥١) التوبة / ٣٣ .

(٥٢) الفتح / ٢٨ .

وقريب من النبوءات المنتشرة فى القرآن والتى لم أذكر هنا سوى بعضها ما ورد فيه أيضا من آيات تتعلق بمعارف علمية : تاريخية وجغرافية وأحيائية (بيولوچية) وطبية وتشريحية وكيميائية وطبيعية (فيزيائية) وفلكية كان مستحيلا على محمد ، لو لم يكن رسولا مؤيدا بالوحى الإلهى ، ومستحيلا كذلك على أى إنسان فى عصره فى شرق العالم وغربه وشماله وجنوبه بل وفيما بعد عصره بقرون طوال ، أن يحلم بَلْهَ أن يكون على علم بها . وأقل ما يمكن أن يقال بالنسبة إلى هذه الحقيقة هو ما خرج به الدكتور موريس بوكاى الطبيب الفرنسى المشهور من دراسة الكتب الدينية الثلاثة : التوراة والإنجيل والقرآن والمقابلة بينها وبين حقائق العلم الحديث ، إذ قال : « لقد قمت أولا بدراسة القرآن الكريم ، وذلك دون أى فكر مسبق وبموضوعية تامة ، باحثا عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث . وكنت أعرف قبل هذه الدراسة ، وعن طريق الترجمات ، أن القرآن يذكر أنواعًا كثيرة من الظاهرات الطبيعية ، ولكن معرفتى كانت وجيزة . وبفضل الدراسة الواعية للنص العربى استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوى على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم الحديث » (٥٣) . ليس هذا فحسب ، بل يمضى الطبيب الفرنسى

---

(٥٣) موريس بوكاى / القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ـ دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة / ١٣ .

قائلا : « وبنفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والأناجيل . أما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب إلى أبعد من الكتاب الأول ، أى سِفْر « التكوين » ، فقد وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخا فى عصرنا . وأما بالنسبة للأناجيل فما نكاد نفتح الصفحة الأولى منها حتى نجد أنفسنا دفعة واحدة فى مواجهة مشكلة خطيرة، ونعنى بها شجرة أنساب المسيح . وذلك أن نص إنجيل متّى يناقض بشكل جلىّ إنجيل لوقا ، وأن هذا الأخير يقدم لنا صراحة أمرا لا يتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بِقِدَم الإنسان على الأرض » (٥٤). أما النتيجة التى وصل إليها الدكتور بوكاى فهى هى الحكم الذى أصدره القرآن على هذه الكتب منذ أربعة عشر قرنا ، وذلك دون أن يكون لدى محمد عليه الصلاة والسلام لا الوقت ولا نصوص الكتابين الآخرين ولا المقدرة العلمية التى تمكنه من القيام بمثل ما قام به العالم الفرنسى من دراسة . استمع إلى ما يقوله الدكتور بوكاى : «إن وجود هذه الأمور المتناقضة وتلك التى لا يحتملها التصديق وتلك الأخرى التى لا تتفق والعلم لا يبدو لى أنها تستطيع أن تضعف الإيمان بالله ، ولا تقع المسؤولية فيها إلا على البشر . ولا يستطيع أحد أن يقول كيف كانت النصوص الأصلية ، وما نصيب الخيال

(٥٤) المرجع السابق / نفس الصفحة .

والهوى فى عملية تحريرها ، أو ما نصيب التحريف المقصود من قِبَل كتبة هذه النصوص ، أو ما نصيب التعديلات غير الواعية التى أُدْخِلَت على الكتب المقدسة » (٥٥) . ثم يعود الدكتور بوكاى إلى الحديث عن دراسته التطبيقية على القرآن الكريم فيقول: « أما الجزء الثالث (يقصد : من كتابه) فسيجد فيه القارئ أمثلة توضيحية لتطبيق العلم على دراسة أحد الكتب المقدسة ، وهو تطبيق لم يكن ليتوقعه الإنسان .كما سيجد القارئ فى ذلك بيانا لما قد جاء به العلم الحديث ، الذى هو فى متناول كل يد ، من أجل فهم أكمل لبعض الآيات القرآنية التى ظلت حتى الآن مستغلقة أو غير مفهومة. ولا عجب فى هذا إذا عرفنا أن الإسلام قد اعتبر دائما أن الدين والعلم توأمان متلازمان » (٥٦). وأنا ، إذ أستشهد بالدكتور بوكاى ،

---

(٥٥) نفس المرجع والصفحة .

(٥٦) المرجع السابق / ١٤ . وقد كانت هذه الدراسة سببا فى إسلام العالم الفرنسى ، كما كانت دراسة مشابهة لها سببا فى إعلان عالمين آخرين شهيرين من بريطانيا وكندا إسلامهما أثناء المؤتمر الأول للإعجاز الطبى فى القرآن منذ أيام (شهر سبتمبر ١٩٨٥) ، هذا المؤتمر الذى هاجمه بعض الأساتذة المصريين الذين يفخرون بأنهم تابعون مخلصون للفكر الغربى الحديث . وبهذه المناسبة أذكر أنى كنت أتناقش منذ نحو سنة مع زميل له نفس اتجاه هؤلاء المهاجمين ، وذكرت فيما ذكرت إسلام الأستاذ رجاء جارودى ، فما كان منه إلا أن عزا دخوله فى الإسلام إلى أنه يبحث عن دور يؤديه أو عن شىء يلفت إليه الأنظار (لا أدرى بالضبط عبارته ، ولكنها تدور حول هذا المعنى) ، وكأن جارودى ، الذى من المؤكد أن هذا الأستاذ كان يفخر بترديد آرائه وأفكاره قبل أن يعلن إسلامه ، كانت تنقصه الشهرة وهو الذى كان ملء السمع والبصر ، لا فى فرنسا =

لا أعنى أن أحداً لم يسبقه إلى مثل هذه الدراسة ، فالعلماء المسلمون يفعلون ذلك منذ عشرات السنين ، ولكنى قصدت أن أقول إن الدراسة العلمية للقرآن الكريم ، وهى جانب واحد فقط من الجوانب التى يمكن أن يُدْرَس منها هذا الكتاب الإلهى ، قد أدت بهذا العالم (وغيره كما ذكرت فى الهامش السابق) إلى الدخول فى دين الإسلام .

هذا ، ولست أنوى أن أناقش كل الآيات المتعلقة بالعلم فى القرآن المجيد ، فما أكثر الكتب التى قامت ، كما قلت آنفا ، بهذه المهمة ، وإن غالى بعضها فى الربط بين حقائق العلم الحديث ونظرياته وبين بعض الآيات ، التى يصعب على الدارس الموضوعى أن يرى فيها شيئا قاطعا أو على الأقل واضحا يربطها بالحقائق العلمية

= وطنه وحدها ، بل فى العالم أجمع . إنى ما زلت أتذكر دعوة « الأهرام » للأستاذ جارودى فى أعقاب الهزيمة الناصرية فى ١٩٦٧م ، والضجة التى أحدثها المثقفون ذوو الميول الغربية من أمثال صاحبنا حول الزائر الفرنسى ، ودعوة بعضهم أثناء إحدى محاضرات الأستاذ جارودى إلى عقد « زواج سعيد » بين الماركسية ، التى كان هذا الأستاذ المحاضر أحد كهنتها الكبار فى ذلك الوقت ، وبين الإسلام . إن هذا الموقف الذى اتخذه صاحبنا من الأستاذ جارودى بعد إعلانه إسلامه ليذكرنى بموقف يهود المدينة من عبد الله بن سلام ، وكان أحد أحبارهم الكبار المحترمين ، فقد أثنوا عليه خير الثناء عندما سألهم الرسول عليه السلام عنه بإيعاز منه ، فلما ظهر لهم ابن سلام ، وكان مختفيا فى أثناء ذلك ، ونطق أمامهم بالشهادتين انقلبوا عليه يسبونه سبا موجعاً . وغنىٌّ عن القول أنى لا أزكّى على الله أحدا ، ولكنى فقط أردت استخلاص العبرة .

الثابتة ، ودَعْكَ ممن يرَوْن في بعض الآيات أشياء لا وجود لها وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وإنما سأكتفى بمجرد ذكر عدد من الآيات التى بهذا الشكل ، وسأقف عند بعضها متأنيا بعض الشيء .

اقرأ مثلا هذه الآيات الكريمة ، وراجع بنفسك تفسيرها في ضوء حقائق العلم الحديث : « ويسألونك عن المَحيضِ . قل : هو أذًى، فاعْتَزِلوا النِّساء فى المحيض، ولا تَقْرَبُوهُنَّ حتى يَطْهُرنَ »(٥٧)، « وهو الذى يُرسِلُ الرِّياح بُشْرا بين يَدَىْ رحمته ، حتى إذا أقلَّت سَحابا ثقالاً سُقْناه لبلد ميِّت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كُلِّ الثمَرات »(٥٨) ، «وينزِّلُ من السماء مِنْ جِبال فيها من برَد » (٥٩)، « وإنَّ لكم فى الأنعام لَعِبرةً نُسْقيكم مما فى بطونه من بين فَرْثٍ ودمٍ لبنا خالصا سائغا للشاربين » (٦٠)، « ولقد خلقنا الإنسانَ من سُلالةٍ من طين * ثم جعلناه نطفةً فى قرار مكين * ثم خلقنا النطفة عَلَقَةً، فخلقنا العَلَقةَ مُضْغَةً . فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لَحْماً ، ثم أنشأناه خَلْقًا آخر . فتبارك اللهُ أحسنُ الخالقين » (٦١) ، « وجعلنا من الماءِ كلَّ شيء حَيٍّ » (٦٢)، « يخلُقُكُم فى بُطون

(٥٧) البقرة / ٢٢٢ .
(٥٨) الأعراف / ٥٧ .
(٥٩) النور / ٤٤ .
(٦٠) النحل / ٦٦ .
(٦١) المؤمنون / ١٣ ـ ١٤ .
(٦٢) الأنبياء / ٣٠ .

أمّهاتكم خلْقًا من بعد خلْق فى ظلمات ثلاث »(٦٣) ، « والشمس تجرى لمستقرٍّ لها . ذلك تقدير العزيز العليم * والقمرَ قدّرناه منازل حتى عاد كالعُرْجون القديم * لا الشمس ينبغى لها أن تُدْركَ القَمرَ ولا الليلُ سابقُ النهار . وكلٌّ فى فَلَكٍ يَسْبَحُون »(٦٤) ، « فلينظر الإنسان مِمَّ خُلِق * خُلِقَ من ماء دافق * يخرج من بين الصُّلْبِ والترائب »(٦٥) .

ولنعد مرة ثانية إلى الدكتور بوكاى ، الذى يقول : « ومن الثابت فعلا أنه فى فترة تنزيل القرآن ... كانت المعارف العلمية فى مرحلة ركود منذ عدة قرون ، كما أن عصر الحضارة الإسلامية النشط مع الازدهار العلمى الذى واكبها كان لاحقا لنهاية تنزيل القرآن . إن الجهل وحده بهذه المعطيات الدينية والدنيوية هو الذى يسمح بتقديم الاقتراح الغريب الذى سمعت بعضهم يصوغونه أحيانا والذى يقول إنه إذا كان القرآن فيه دعاوى ذات صفة علمية مثيرة للدهشة فسبب ذلك هو تقدم العلماء العرب على عصرهم ، وإن محمدا صلى الله عليه وسلم بالتالى قد استلهم دراساتهم . إن من يعرف ، ولو يسيرا ، تاريخ الإسلام يعرف أيضا أن عصر الازدهار

---

(٦٣) الزمر / ٦ .
(٦٤) يس / ٣٨ ـ ٤٠ .
(٦٥) الطارق / ٥ ـ ٧ .

الثقافى والعلمى فى العالم العربى فى القرون الوسطى لاحقٌ لمحمد ﷺ ، ولن يسمح لنفسه بإقامة مثل هذه الدعاوى الوهمية . فلا محل لأفكار من هذا النوع ، وخاصة أن معظم الأمور العلمية الموحى بها أو المصوغة بشكل بيِّن تماما فى القرآن لم تتلق التأييد إلا فى العصر الحديث . من هنا ندرك كيف أن مفسرى القرآن (بما فى ذلك مفسرو عصر الحضارة الإسلامية العظيم) قد أخطأوا حتما وطيلة قرون فى تفسير بعض الآيات التى لم يكن باستطاعتهم أن يفطنوا إلى معناها الدقيق » (٦٦).

وهنا نصل إلى الآيات التى ذكرت آنفا أننى أحب أن أستأنى عندها قليلا ، فقد وجدت فى التفاسير القديمة ما يؤكد هذا الذى يقوله الدكتور بوكاى : ففى تفسير قوله تعالى : « وأوحى ربك إلى النَّحْلِ أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشَّجَر ومما يَعْرِشون * ثم كُلِى من كُلِّ الثمرات ، فاسلُكى سُبُلَ ربِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ من بطونها شرابٌ مختلفٌ ألوانُه ، فيه شفاءٌ للناس » (٦٧) يقول الشريف الرضى: « والعسل عند المحققين من العلماء غير خارج من بطون النحل ، وإنما تنقله بأفواهها من مساقطه ومواقعه من أوراق الأشجار وأضغاث النبات ، لأنه يسقط كسقوط الندى فى أماكن مخصوصة وعلى

---

(٦٦) موريس بوكاى / ١٤٥ ـ ١٤٦ .
(٦٧) النحل / ٦٨ ـ ٦٩ .

أوصاف معلومة . والنحل تتبع تلك المساقط وتعهد تلك المواقع فتنقل العسل بأفواهها إلى كوراتها والمواضع المعدة لها ، فقال سبحانه : «يخرج من بطونها» . والمراد «من جهة بطونها» ، وجهة بطونها أفواهها . وهذا من غوامض هذا البيان وشرائف هذا الكلام» (٦٨).

فانظر كيف أن العلماء المحققين فى عصر الشريف الرضى (القرن الخامس الهجرى) يقررون أن العسل لا يخرج من بطون النحل ، ومن ثم عدّ هو قوله تعالى : « يخرج من بطونها شراب ... » مجازا من مجازات القرآن ، التى أدار عليها كتابه الذى اقتبسنا منه النص السابق. والصواب هو ما قاله القرآن من أن العسل يخرج فعلا من بطون النحل ، التى تجمع الرحيق ويتحول فى معدتها إلى عسل تقوم بإفرازه بعد ذلك (٦٩).

وفى خطإ مشابه يقع الإمام الباقلانى ، إذ يعُدّ قوله تعالى: «واللهُ خلق كلَّ دابةٍ من ماء» (٧٠) نوعا من التعميم فى التعبير، فقد ظن أن القرآن حينما قال إن كل الدواب مخلوقة من ماء لم يقصد أنها كلها كذلك بل بعضها فقط ، ولكنه عمم القول . فماذا

---

(٦٨) تلخيص البيان فى مجازات القرآن / ١٩٣ .

(٦٩) انظر مادة «عسل النحل» فى «الموسوعة الثقافية» . أما البيضاوى ، وهو متأخر عن الشريف الرضى بنحو ثلاثة قرون ، فإنه يأخذ بالتفسير الصحيح للعبارة ، لكنه يذكر أيضا الرأى الآخر من غير تعقيب .

(٧٠) النور / ٤٥ .

يقول علماء العصر الحديث ، الذين قتلوا هذه المسألة بحثا ؟ يقولون إن «الثابت بالتحديد أن أصل الحياة مائى ، وأن الماء هو العنصر الأول المكون لكل خلية حية ، فلا حياة ممكنة بلا ماء . وإذا ما نوقشت إمكانية الحياة على كوكب ما فإن أول سؤال يُطْرَح هو : أيحتوى هذا الكوكب على كمية كافية من الماء للحياة عليه؟ » (٧١). والطريف أن الباقلانى قد قال ذلك دفاعا عما ظنه الملحدون فى عصره مطعنا فى القرآن الكريم ، وهذا نص كلامه : « قوله عز وجل : « والله خلق كلَّ دابةٍ من ماء » . قال الملحدون : وفى هذه الآية إحالة من وجوه : أحدها أنه خلق كل دابة من ماء ، وليس الأمر كذلك ، لأن منها ما يُخْلَق من بيض وتراب ونطف ... والجواب أن قوله : « كلّ » لا يقتضى استغراق الجنس بل هو صالح للتعميم والتخصيص. ولو ثبت العموم لجاز تخصيصه ، إذ علمنا أن من الدواب ما لم يُخْلَق من ماء . على أن من الناس من يقول : أصل الأشياء كلها أربع : الماء والهواء والنار والأرض ، وكل دابة مركبة من بلّة ورطوبة » (٧٢). والآيتان السابقتان وتعليق الشريف الرضى والباقلانى عليهما لا تحتاج إلى تعقيب ، اللهم إلا القول بأن

---

(٧١) موريس بوكاى / ٢١٢ . وانظر كذلك تفسير هذه الآية فى « المنتخب فى تفسير القرآن الكريم » والتعليق العلمى فى أسفل الصفحة التى فيها هذا التفسير .

(٧٢) « نكت الانتصار لنقل القرآن » للباقلانى / ٢٠٢ .

هذين العالمين قد أتيا بعد سيدنا محمد عليه الصلاة والصلام بعدة قرون أحرز المسلمون أثناءها تقدما هائلا جدا بالقياس إلى معارف العرب والعالم كله فى عصر الرسول ، ومع ذلك فالقرآن على صواب ، وهذان العالمان اللذان يعكسان معارف عصريهما هما المخطئان .

ويمكن أن نُلحق بهاتين الآيتين قوله تعالى : « فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أن يَهْدِيَه يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسلام ، ومن يُرِدْ أن يُضِلَّه يجعَلْ صَدْرَه ضَيِّقا حَرَجًا كأنما يَصَّعَّدُ في السماء »(٧٣)، فقد فسر البيضاوى ، وهو مفسر متأخر نسبيا (إذ عاش فى القرن الثامن الهجرى) ، عبارة «كأنما يَصَّعَّد فى السماء » على النحو التالى : « شبَّهه (أى شبَّه الله من يريد أن يضله) مبالغة فى ضيق صدره بمن يزاول ما لا يقدر عليه ، فإن صعود السماء مَثَلٌ فيما يبعد عن الاستطاعة . ونبَّه به على أن الإيمان يمتنع منه كما يمتنع الصعود . وقيل معناه : كأنما يتصاعد إلى السماء نُبُوًّا عن الحق وتباعدا فى الهرب منه » . أمَّا تفسير الآية فى ضوء مكتشفات العلم التجريبى فهو أن الذى يضله الله يشعر بنفَس ضيق الصدر الذى يحسه الصاعد فى طبقات الجو العليا حيث الهواء مخلخل فلا تجد الرئتان كفايتهما من الهواء

(٧٣) الأنعام / ١٢٥ .

والأكسجين [٧٤]. وأنا ، وإن لم أكن متخصصا فى أى فرع من العلوم الطبيعية ، يصعب عليّ أن أوافق الدكتور موريس بوكاى ، الذى يؤكد أن هذه الآية تعبر عن فكرة عادية تماما والذى يخالف من يقولون إن فكرة ضيق التنفس كانت مجهولة عند العرب فى عصر الرسول عليه السلام ، لأن وجود مرتفعات عالية تربو على ٣٥٠٠ متر فى شبه الجزيرة العربية يجعل من غير المنطقى، فى رأيه، القول بجهل صعوبة التنفس الناشئة عن الارتفاع [٧٥]. وتنهض مخالفتى للدكتور بوكاى على أساس أن الآية تتحدث عن « التصعّد فى السماء » ، وهو ما لم يكن متاحا لأى إنسان فى عصر الرسول عليه السلام (بغض النظر عن حادث المعراج) ولا فيما بعده ببضعة عشر قرنا ، لا « التصعيد فى الجبال » كما يفيد كلامه . كذلك فإن الرسول عليه السلام ، كما نعرف من سيرته الشريفة ، لم يصعد غير جبلى حراء وثور : أولهما فى فترة التحنث السابقة على البعثة ، والثانى فى طريقه هو وأبى بكر إلى يثرب . ولم ترد فى السيرة أية إشارة ، ولو من بعيد ، إلى أى أثر لهذا الصعود على جهازه التنفسى عليه السلام . ولم يثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد زار صنعاء ، التى يشير إليها الدكتور بوكاى [٧٦]. بل إنى

---

(٧٤) انظر مثلا مالك بن نبى/٢٨٧ .

(٧٥) بوكاى / ٢٠٩ .

(٧٦) المرجع السابق / نفس الصفحة (بالهامش) .

أستبعد أن يكون سكان مثل هذه المدن العالية في ذلك العصر ، حتى لو كانوا أحسوا بشيء من هذا ، قد تنبهوا إلى السبب الحقيقي لذلك . وأحب أن أكرر القول ، كيلا ننسى ، إن القرآن يتحدث عن « التصعد فى السماء » لا « التصعيد فى الجبال » . ثم ها هى ذى كتب التفسير القديمة تقول إن المقصود هو أن الكافر الذى أغلق قلبه يستحيل عليه الإيمان كما يستحيل على أى بشر أن يصعد فى السماء ، وهو ما يدل دلالة قاطعة على أن فكرة ضيق التنفس المشار إليها كانت مجهولة لدى هؤلاء المفسرين الذين كانوا بلا شك يعيشون فى ظل حضارة متقدمة أعظم التقدم بالقياس إلى الحياة البدائية التى كان يحياها عرب الجاهلية وعصر المبعث .

وثمة آية أخرى أرانى ، رغم عدم تخصصى كما سلف القول فى أى من العلوم الطبيعية ، مضطرا إلى أن أخالف فى تفسيرها الدكتور بوكاى ، الذى يكرر كلام المفسرين القدامى بشأنها ، وهى قوله تعالى : « وهو الذى مَرَجَ البحرين : هذا عَذْبٌ فُراتٌ ، وهذا مِلْحٌ أُجاج ، وجعل بينهما برزخا وحِجْراً محجورا » (٧٧) . وهذا نص كلامه: « معروفةٌ تلك الظاهرة التى كثيرا ما تشاهَد عند عدم الاختلاط الفورى لمياه البحر المالحة بالمياه العذبة للأنهار الكبيرة . ويرى البعض أن القرآن يشير إليها لعلاقتها بمصب نهرى دجلة

---

(٧٧) الفرقان / ٥٣ .

والفرات ، اللذين يشكلان بالتقائهما بحرا ، إذا جاز القول ، طولُه أكثر من ١٥٠ كم ، هو شط العرب . وفى الخليج يُنتج تأثيرُ المد ظاهرةً طبيعية هى انحسار الماء العذب إلى داخل الأراضى ، وذلك يضمن ريًا طيبًا » (٧٨) . والحقيقة أن هذا التفسير غير مقنع : فمن الناحية اللغوية يصعب علىّ أن أوافق العالم الفرنسى ومفسرينا القدامى على أن أداة التعريف فى « البحرين » هنا للعهد ، الذى قيل على أساسه إن « البحرين » المذكورين هما دجلة والفرات . ذلك أن الآيات السابقة تتحدث عن الظل (الظلام) والرياح والماء والأنعام والأناسى ، وهى مفاهيم عامة لا تشير إلى ظلام بعينه ولا رياح بعينها ولا ماء معين ولا أنعام وأَناسِىّ مخصوصة ، فلم يقال إذن إن «البحرين» هنا هما بحران معينان (دجلة والفرات) ؟ إن السياق الذى وردت فيه هذه الكلمة هو سياق عام ، ومن ثم فإن بلاغة الكلام تقتضى أن يكون « البحران » أيضا هما «النهر والبحر» بإطلاق ، أى أن (أل) فيهما هى (أل) الجنس لا العهد . وفضلا عن ذلك فإن ماء النهر ، مهما توغل بقوة اندفاعه إلى مدى بعيد فى داخل البحر أو المحيط ، يختلط فى النهاية بمائهما ، ومن ثم فظاهر الأمر أن النهر يبغى فى البداية على البحر (عندما يشق ماءه الملح ويزيحه عن طريقه) ليعود البحر فيبغى فى النهاية عليه (عندما

---

(٧٨) بوكاى/ ٢٠٥ . وانظر ، فى تفسير هذه الآية ، البيضاوى والزمخشرى والنسفى والجلالين مثلا .

يختلط ماؤه العذب بماء البحر الملح الذى يُفقده خاصة العذوبة ويعطيه بدلا منها ملوحته) ، فأين البرزخ إذن والحجر المحجور ؟ أما « المنتخب فى تفسير القرآن الكريم » فإنه يقول فى هامش خصّصه للتعليق على هذه الآية إنها ربما « تشير إلى نعمة الله على عباده بعدم اختلاط الماء الملح المتسرب من البحار فى الصخور القريبة من الشاطئ بالماء العذب المتسرب إليها من البر اختلاطا تاما ، بل إنهما يلتقيان مجرد تلاق : يطفو العذب منهما فوق الملح كأن بينهما برزخا يمنع بَغْىَ أحدهما على الآخر وحِجْرًا محجورا ، أى حاجزا خفيا مستورا لا نراه ». لكن ثمة نقطة هامة يبدو لى أن كاتِبَىْ هذا التعليق ، على رغم جدته وطرافته (بالنسبة لى على الأقل) ، قد أغفلاها ، إذ إن الماء العذب والماء الملح اللذين يلتقيان فى الصخور على هذا النحو لا يمكن تسميتهما بحرين . ثم إذا كان الماءان فى هذه الظروف لا يلتقيان ، فإنهما في عُرْض البحر والمحيط يلتقيان ويتمازجان ويصبحان فى النهاية ماءً واحدا ، كما قلنا من قبل . يبدو لى ، والله أعلم ، أن البرزخ المذكور فى هذه الآية هو القوانين التى بمقتضاها بَقِىَ كلٌّ من الماء العذب والماء المِلْح كلَّ هذه الدهور المتطاولة التى لا يعلم مداها إلا الله ، وسيبقيان إلى أن يرث الله الأرض والسماوات ، كما هو لا يتغير . فالأنهار تصب فى البحار والمحيطات ، وكان المفروض ، لو أن الأمر انتهى عند هذا الحد، أن

يختلط الماءان اختلاطاً دائماً فلا ينفصلا بعد ذلك أبدا ويصبح كل الماء الموجود على سطح الأرض من ثم ماءً ملحا . بيد أن التقدير الإلهى قد شاء أن يقوم البَخْر بحمل الماء من البحار والمحيطات فتسوقه الرياح ليسقط على الجبال وينحدر إلى الأنهار ماءً عذبا كما كان ، وهكذا دواليك . وهكذا أيضا يبقى الماء العذب والماء الملح كما هما ، ويتعايش البحران دون أن يبغى أحدهما على الآخر ويقضى عليه . فهذا هو البرزخ ، وهذا هو الحجر المحجور فيما أفهم ، والله أعلم . كما يبدو لى أيضا أن هذه الآية ، إلى جانب امتنانها على العباد بهذه النعمة الإلهية ، تتضمن معنى مجازيا ، فإنى أظن أن المقصود بالماء العذب هنا « المؤمنون » وبالماء الملح « الكافرون » . والمعنى هو أن الإيمان والكفر سيبقيان إلى آخر الدهر لا يستطيع أحدهما أن يقضى على الآخر تماما . والذى دعانى إلى هذا التفسير هو ما فهمته من أولى الآيات التى تتحدث عن الظواهر الطبيعية فى السياق الذى وردت فيه آيتنا هذه ، وهى: « ألم ترَ إلى ربِّك كيف مدَّ الظِّلَّ ، ولو شاء لجعله ساكنا ؟ ثم جعلْنا الشمس عليه دليلا * ثم قبضناه إلينا قَبْضًا يسيرا » (٧٩). أما المعنى المجازى الذى لمحتُه فيها، بجانب معناها الظاهرى ، فهو أن الله يطمئن الرسول إلى أن كفر قومه (المرموز إليه بالظل ، أى الظلام) إن كان الآن ممدودا

---

(٧٩) الفرقان / ٤٥ ـ ٤٦ .

فإن الله قابضه رويدا رويدا ، ومبْزِغٌ شمس الإيمان عما قليل .
والذى أوحى إلىّ بهذا المعنى هو السياق الذى وردت فيه الآية هى وقوله تعالى : « وهو الذى مرج البحرين ... » ، فقد كان المولى سبحانه يتكلم عن الأمم السابقة التى كذّبت برسلها عنادا وطغيانا فأهلكها الله رغم عنفوان قوتها وانتشار سلطانها ، فبدت لى النقلة إلى الحديث عن بعض الظواهر الطبيعية غير مفهومة إلا فى ضوء هذا المعنى المجازى .

ونأتى الآن إلى آخر آية أحب أن أتريث عندها قليلا ، وهى قوله تعالى فى سورة « فاطر » : « وما يستوى البحران : هذا عذبٌ فراتٌ سائغٌ شرابُه ، وهذا مِلْحٌ أُجاج . ومن كلٍّ تأكلون لحمًا طريًّا ، وتستخرجون حِلية تلبسونها » (٨٠). لقد قرأت هذه الآية مرات لا تُحصَى ولكن لم ألتفت إلى ما تؤكده من أن الحُلِىّ تُستَخْرَج من النهر والبحر كليهما ، إذ إن الذى كنت أعرفه حتى ذلك الوقت هو أن اللؤلؤ والمرجان (المذكورين فى آية مشابهة فى سورة « الرحمن ») لا يوجدان إلا فى البحار . وقفز السؤال إلى عقلى على الفور مفزعا : « أيمكن أن يكون القرآن قد أخطأ ؟ » . إن آية سورة « الرحمن » يمكن ألا تثير مشكلة ، فنصها هو : «مَرَجَ البحرين يلتقيان * بينهما برزخٌ لا يبغيان * فبأى آلاء ربكما

(٨٠) فاطر / ١٢ .

تكذبان ؟ * يَخْرُجُ منهما اللؤلؤ والمرجان » (٨١)، ومن الممكن القول بأن معناها هو أن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من مجموع البحرين لا من كل منهما ، كما تقول مثلا : « إن فى يدىَّ هاتين مائة جنيه » ، ويكون المبلغ كله في اليد الأولى بينما الأخرى خلو تمامًا من أى نقود ، ولا تكون قد عَدَوْتَ الحقيقة . أما آية سورة «فاطر» فإنها تقول بصريح العبارة : « ومن كلٍّ ... تستخرجون حِلْيَةً تَلْبَسُونها » . ولم يسعفنى ما عندى من تفاسير قديمة ، فأخذت أقلب نظرى فى أرفف مكتبتى وأنا حائر ضائق ، وإذا بى ألمح ترجمة عبد الله يوسف على للقرآن فأفتحها فأجد فيها شفاء نفسى ، إذ يذكر المترجم رحمه الله (فى تعليقه على هذه الآية فى الهامش) من الحلىِّ البحرى اللؤلؤَ والمرجانَ ومن الحلىِّ النهرى العقيقَ وبرادةَ الذهب وغيرهما . ثم رجعت بعد ذلك إلى دائرة المعارف البريطانية (مادة «Pearl») و «المنتخب في تفسير القرآن الكريم » فوجدت فى الأولى أن اللؤلؤ يوجد أيضا فى المياه العذبة (٨٢) ، أما الكتاب الأخير فكأنه يرد على حيرتى إذ يقول : « وقد يستبعد بعض الناس أن تكون المياه العذبة مصدرا للحُلىّ ، ولكن العلم والواقع أثبتا غير ذلك . أما اللؤلؤ فإنه ، كما يُسْتَخْرَج من أنواع معينة من البحر ،

(٨١) الرحمن / ١٩ ـ ٢٢ .

(٨٢) لاحظ أن «المرجان » هو اللؤلؤ الكبير كما يقول كثير من المفسرين ، أو اللؤلؤ الصغير كما يقول بعضهم .

يُسْتَخْرَج أيضا من أنواع معينة أخرى من الأنهار ، فتوجد اللآلئ فى المياه العذبة فى إنجلترا وأسكتلندا وويلز وتشيكوسلوفاكيا واليابان ... إلخ ، بالإضافة إلى مصايد اللؤلؤ البحرية المشهورة . ويدخل فى ذلك ما تحمله المياه العذبة من المعادن العالية الصلادة كالماس ، الذى يستخرج من رواسب الأنهار الجافة المعروفة باليرقة . ويوجد الياقوت كذلك فى الرواسب النهرية فى موجوك بالقرب من باندالاس فى بورما العليا . أما فى سيام وفى سيلان فيوجد الياقوت غالبا فى الرواسب النهرية . ومن الأحجار شبه الكريمة التى تستعمل فى الزينة حجر التوباز ، ويوجد فى الرواسب النهرية فى مواقع كثيرة ومنتشرة فى البرازيل وروسيا (الأورال وسيبريا) ، وهو فلورسيليكات الألمونيوم ، ويغلب أن يكون أصفر أو بنيًّا . والزيركون (Circon)حجر كريم جذاب تتقارب خواصه من خواص الماس ، ومعظم أنواعه الكريمة تستخرج من الرواسب النهرية » (٨٣). وحتى يقدّر القارئ رد فعلى الأول حق قدره أذكر له أن بعض المترجمين الأوروبيين أنفسهم فى العصر الحديث قد استبعدوا أن تكون الأنهار مصدراً من مصادر الحلىّ . وقد تجّلى هذا فى ترجمتهم لهذه الآية ، فمثلا نرى رودويل الإنجليزى يترجم الجزء الخاص بالحلى منها

---

(٨٣) « المنتخب فى تفسير القرآن الكريم » فى التعليق على الآية / ١٢ من سورة « فاطر » .

" yet from both ye eat fresh fish, and take forth : هكذا
" from both " فعبارة ، for you ornaments to wear "
تصاح لترجمة آية سورة « الرحمن » لا هذه الآية . كذلك ينقل
رودى باريت هذه العبارة إلى الألمانية على النحو الآتى : Aus "
.beiden eßt ihr frisches Fleisch " إلى هنا والترجمة صحيحة،
فهذه العبارة تقابل بالضبط قوله تعالى: «ومن كُلٍّ تأكلون لحمًا
طَرِيًا » وإن استخدم فى مقابل « طريا » كلمة "frisch" ، ومعناها
الدقيق « طازج » . لكن تنبه لترجمته للجزء الآتى الذى يقول فيه :
" und (aus dem Salzmeer) gewinnt ihr Schmuck ... um
ihn euch anzulegen" والذى ترجمته : «وتستخرجون (من
البحر الملح) حلية تلبسونها » . ويرى القارئ بوضوح كيف أن
المترجم قد أضاف من عنده بين قوسين عبارة «من البحر الملح :
aus dem Salzmeer » ، وهو ما يوحى باستبعاده أن تكون الأنهار
مصدرا من مصادر اللؤلؤ والعقيق وغيرهما من أنواع الحلى على ما
تقول الآية الكريمة . أما ترجمتا سيل وبالمر (الإنجليزيتان) وترجمتا
كازيمريسكى وماسون (الفرنسيتان) ، وكذلك ترجمتا ماكس هننج
ومولانا صدر الدين (الألمانيتان) على سبيل المثال فقد ترجمت كلها
النص القرآنى كما هو ، ولكنها لزمت الصمت فلم تعلق بشىء .

ويرى القارئ من هذه الآية كيف أن القرآن قبل أربعة عشر

قرنا قد أشار إلى حقيقة يستبعدها واحد مثلى يعيش فى القرن العشرين وآخرون مثل المستشرق الإنجليزى رودويل ونظيره الألمانى رودى پاريت ، فكيف عرفها محمد إذن وأداها بهذه البساطة لو كان هو مؤلف القرآن ، وبخاصة أن الأنهار التى ذُكِر أن اللؤلؤ وغيره من الأحجار الكريمة وشبه الكريمة تُسْتَخْرَج منها تقع فى بلاد سحيقة بالنسبة للجزيرة العربية ، بل إن بعضها كالبرازيل مثلا لم يُكْتَشَف إلا فى العصور الحديثة ؟ أخشى ما أخشاه ، إذا تنبه المستشرقون لأهمية هذه الآية ، أن يزعموا أن سيدنا رسول الله قد قام برحلات إلى هذه البلاد خفْيَةً فى الفترات التى كان يدّعى فيها لخديجة أنه ذاهب إلى غار حراء للتحنث . أمّا كيف كان ذلك فليست هذه مشكلتهم .

الروح الإلهى

هناك أمر يصعب جدا بل يستحيل على من يتهمون الرسول عليه السلام بأنه هو مؤلف القرآن أن يعللوه تعليلا يرضى عقل المتجرد الباحث عن الحقيقة ، ألا وهو الروح الإلهى الذى يسود القرآن من مبتدئه إلى منتهاه . افتح القرآن على أية صفحة واقرأ ، واسأل نفسك : « أهذا كلام بشر ؟ » . إن ما يكتبه البشر يخرج من تحت أيديهم حاملا الطابع البشرى : فتجد فيه أفراح البشر وأحزانهم ، ومسراتهم وآلامهم ، ورضاهم وضيقهم ، ونشاطهم ومللهم ، ومبالغاتهم وادعاءاتهم وأخطاءهم ، فهل ترى فى القرآن شيئا من ذلك ؟ [1] لقد وُلِد الرسول عليه السلام يتيم الأب ، ثم لحقت أمه بأبيه وهو فى عمر الزهرة الغضة ، وكلنا نعرف أحزان اليتيم مهما يحنّ عليه الآخرون ويحاولوا أن يعوضوه عن فقد الأب والأم . وهاكم القرآن ، وقد استغرق تنزيله ثلاثا وعشرين سنة ، فهل فيه ولو نبْسَة واحدة عن يتم صاحب الرسالة المتَّهَم من قِبَل أعدائه بأنه صاحب هذا القرآن أو عن المشاعر الذى يستتبعها اليتم فى نفوس من ابتُلُوا به من الصغار ؟ وزيادة على ذلك فقد مر علينا كيف أن الرسول قد استأذن ربه في زيارة قبر أمه فأذن له ، ثم سأله ثانية أن يستغفر لها فأبى، وعاد الرسول عليه السلام من جانب قبر أمه باكيا.

---

(١) انظر كتابنا « المستشرقون والقرآن » / ٢٥٤ .

وبعض الروايات ترجع سبب النزول فى قوله تعالى : « ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أُولِى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّن لهم أنهم أصحابُ الجحيم » (٢) إلى تلك الحادثة ، ومع هذا فليس فى الآية أى شيء عن مشاعر الرسول آنذاك .

وهناك رواية أخرى عن سبب نزول هذه الآية ، وهى وعد الرسول عليه السلام لعمه وهو فى غمرات الموت أن يستغفر له فلعل الله أن يسامحه فى عدم نطقه بالشهادتين لخوفه من أن تلحقه معرّة من قومه إذا أعلن إسلامه. ومهما يكن الأمر فإن الشاهد هنا هو الشاهد هناك : فهذا عمه الحبيب (وكان له نعم الظّهر الذى طالما ركن إليه فلقى عنده الحماية والرعاية ولم يُسْلِمه قط لأعدائه) يموت ، والرسول عليه السلام كله الأمل فى عفو الله عنه ، فهو الذى رباه وكفله واصطحبه فى رحلاته التجارية ، وكانت له معه ومع أولاده ذكريات جميلة . فماذا نجد فى القرآن ؟ لا شيء إلا نهى الرسول نهيا باتا عن أن يستغفر لأى قريب له مشرك ، ويدخل فى ذلك بطبيعة الحال أبو طالب . ترى لو أن الرسول هو صاحب القرآن فما الذى كان سيضيره لو أعلن على الملإ أجمعين قرآنا يذكر دخول أبى طالب الجنة بغير حساب ؟ لقد كانت السياسة توجب عليه أن يفعل ذلك ، على الأقل تشجيعا لآخرين قد يودون أن

---

(٢) التوبة / ١١٣ .

يقوموا منه مقام أبى طالب دون أن يؤمنوا. ولكن عواطف الرسول ﷺ شيء ، والقرآن شيء آخر .

وإذا افترضنا أنه عليه السلام لم ير ، لسبب غريب لا نفهمه ، أن يتحدث فى قرآنه عن أمه وعمه وعن مشاعره لفقدهما وهو فى أشد ما يكون حاجة إلى حنان الأولى وإلى حماية الثانى من بطش الأعداء الذين لم يكونوا لولاه ليرْعَوا فيه إلا ولا ذمة والذين رأيناهم بعد موت هذا العم يأتمرون به عليه السلام ليقتلوه ، فما السر فى أن القرآن لا يصور شيئا مما انتاب الرسول عليه الصلاة والسلام من أحزان ثقيلة لوفاة شريكة عمره وحبيبته التى كانت أول من آمن به إذ كفر الناس ، وواسته بمالها إذ حرمه الناس ، ورزقه الله منها الذرية؟ لقد سُمِّىَ العام الذى انتقلت فيه خديجة وأبو طالب إلى ربهما « عام الحزن » ، فدونك القرآن وقلّبه تقليبا فلن تجد إشارة ، مجرد إشارة ، من قريب أو من بعيد ، إلى « عام الحزن » هذا ، وكأن خديجة لم تَمُتْ، وكأن موتها لم يكن ركنا انهدم فى جدار مقاومة الكفر والطغيان . لقد ظل رسول الله عليه السلام يذكر خديجة بالخير بعد موتها حتى لقد كانت عائشةُ الصغيرة الجميلة بنتُ صديقه المقرّب تغار من ذكراها أشد الغيرة ، فأين انعكاس هذا الحب فى القرآن ، الذى اتُهِم بأنه هو مؤلفه ؟ لقد ذُكِرَت مريم عليها السلام فى أكثر من موضع ، وذُكِرَت امرأة فرعون ، تلك التى

لم يكن أحد من قومه يعرف عنها شيئا ، فلِمَ ألَّف قرآنا فيه ذكر هاتين السيدتين فى الوقت الذى لم يؤلف مثل ذلك فى خديجة لو كان هو صاحب القرآن ؟ بل لماذا لم يؤلف قرآنا فى عائشة أو صفية أو زينب أو حفصة ، كما ألف نبىّ هذه الأيام الكذاب فى نجوانا وحياً بارداً غثّا مثله يستحق عليه من وجهة نظر النقد الأدبى والذوق الفنى السليم ، قبل وجهة نظر الدين والصدق والخلق الكريم، أن يُصْفَعَ على وجهه وقفاه ؟ ألم يتُّهَم نبينا بأنه كان عبدا للجنس ونذائه ؟ أليس هؤلاء النساء ، فى نظر أعدائه ، هن اللاتى قد استولّينَ على حواسه وقلبه وعواطفه ؟ ترى لِمَ لَمْ يحاول أن يغازلهن أو يسترضيهن بقرآن يدغدغ غرورهن لو كان مثل عاشق « نجوانا » نبيا مزيفا كذابا ؟

ولم تكن أمه وعمه أبو طالب وزوجته الحبيبة خديجة رضى الله عنها هم كل من ماتوا ممن كان يحبهم أشد الحب فلم ينعكس موتهم فى القرآن ، الذى زعم الزاعمون أنه أتى به من عنده ونسبه إلى السماء ، فقد مات عمه وأخوه فى الرضاع حمزة أسد الله وأسد رسوله : مات ميتة مأساوية ظلت ذكراها حية فى فكر الرسول وقلبه تلذعه ، كما مرّ بنا فى قصة إسلام قاتل هذا العم والأخ الحبيب وَحْشِيٍّ الحبشى ، وجاءت ميتته رضى الله عنه مع هزيمة أُحُد القاسية ، التى زادها قساوةً أن المسلمين قد انتصروا فى بدايتها نصرا مؤزرا وكانت ستُحْسَم لصالحهم لولا عصيان الرماة لأوامر الرسول .

وبرغم ذلك كله لم يذرف القرآن ولا دمعةً واحدة على هذا البطل المغوار ، بل كل ما جاء عنه هو تلك الآيات فى آخر سورة « النحل » تأمر النبى بأنه إذا عاقب فلْيعاقب بمثل ما عوقب به ، وإن كان الصبر خيراً للصابرين . ذلك أنه عليه الصلاة والسلام ، حين مثلت هند ومعها نساء قريش بجثة الشهيد الكريم وشقت بطنه وأخرجت كبده ومضغتها وجدعت أنفه وأذنيه وجعلت منها عِقْدا وقُرْطا ، وجاء أبو سفيان فأخذ يضربه فى أسنانه (كرم الله مثواه فى دار الخلد) وهو يقول له متشفيا شامتا: « ذُقْ عُقَق » ، أقسم صلوات الله عليه في غمرة أحزانه المفرطة أن يمثّل بثلاثين (وفى رواية : « بسبعين ») واحداً منهم مثلما مثلوا بجثة عمه ، فنزلت الآيات التالية : « وإن عاقبْتم فعاقِبُوا بمثلِ ما عُوقِبْتم به ، ولَئِنْ صبرتم لَهُو خَيرٌ للصّابرين * واصْبِر ، وما صبْرُكَ إلا باللّه ، ولا تحزن عليـــهم ولا تَكُ فى ضَيْقٍ مما يَمْكُرون * إن الله مع الذين اتّقَوْا والذين هم مُحْسِنون » (٣) . كلا ، ليس هذا كلام البشر ولا هذه عواطف البشر ، بل هذا صوت الإله سبحانه يرد رسوله إلى خطة العدل والإنصاف ثم ينصحه بالصبر ، فهو خير من العقاب . والله لو أن محمدا هو مؤلف القرآن ما كان ليقول هذا الكلام أبدا حتى لو انخلعت النجوم والكواكب من مداراتها وانطبقت السماء على

---

(٣) النحل / ١٢٦ ـ ١٢٨ .

الأرض . ولا يمكن أبدا تفسير ذلك بأنه قد هدأت مشاعره فقال ما قال ، فقد رأينا ذكرى هذا الاستشهاد المأساوى تلذعه عليه السلام بعد مرور سنوات طوال ، حتى لقد طلب من قاتل عمه الذى أتاه مسلما طلبا لم يطلبه من أحد آخر غيره ، إذ قال له : « لاأرينّك . غيِّبْ عنى وجهك » . لقد نزلت آيات سورة « النحل » عليه ﷺ وسعير الغضب والأحزان يتلظى فى قلبه ودخانها يسوِّد الدنيا فى عينيه ، فما معنى الكلام إذن عن هدوء المشاعر إلا أن تكون قوة قاهرة هى التى أمرته بهذا فائتمر ، وصبّرته فصبر ، وأوحت إليه فأعلن ما أوحت به وأطاعه بلا أدنى تردد ؟

وما قيل فى عمه حمزة يقال فى ابن عمه جعفر بن أبى طالب الشهيد الطيار ، فقد مات ، رضى الله عنه ، وهو ينافح عن لواء المسلمين فى غزوة مؤتة حتى قُطِعَتْ ذراعاه ، ولم يرض أن يترك راية الإسلام تسقط على الأرض . ومع ذلك فلا ذكر لجعفر ولا حديث عن الحزن على جعفر ولا رثاء لأولاد جعفر (الذين تركهم وراءه زُغْبَ الحواصل) فى أية سورة من سور القرآن المائة والأربع عشرة . أفيقال بعد هذا كله إن القرآن هو كلام محمدٍ ادّعاه أو توهمه ؟

أكثر من هذا أنه قد مات له عليه السلام ثلاثة أولاد ذكور من خديجة (أو ولد واحد أو اثنان فقط فى روايات أخرى) ، ومع هذا

فليس فى القرآن من أوله إلى آخره أى انعكاس لما لا بد أنه ملأ قلبه من الأحزان الممضّة على هذه الزهور الرقيقة التى صوّحت فى بُكْرة النّدى مع أول أضواء النهار . ولولا قوله تعالى : « إن شانِئَكَ هو الأبْتَرُ » (٤) ردًا على سفاهة قومه الذين عيّروه بأنه أبتر ، أى لا يعيش له أولاد ذكور ، فلربما مرّ هذا الأمر علينا ونحن نقرأ سيرته عليه الصلاة والسلام من غير أن نلقى إليه بالا . فهذا كل ما هنالك . ثم لما هاجر عليه الصلاة والسلام ماتت له بالمدينة ابنتان ، هما رقية وأم كلثوم زوجتا الرجل الحيىّ الذى سُمِّىَ من أجلهما « ذا النورين » ، فلم تنزل آية بل ولا كلمة واحدة فيهما . بل إن بعض أحفاده قد ماتوا ، ونحن نعرف مدى ما كان يكنه من حب للأطفال ، فما بالك بأبناء بناته اللائى كُنّ وكان أبناؤهن موضع حبه وعطفه وحنانه ، فلم نسمع بآية نزلت فى شيء من ذلك ، وكأن هذا الموت قد أصاب بيت أناس لم يسمع بهم محمد ، أناس تفصله عنهم بحار وجبال وصحارى يَحَار فيها القَطَا .

على أن الذى لا ينقضى منه العجب هو سكوت القرآن تماماً عن فلذة كبده إبراهيم ، الذى رُزق به على يأس من خِلْفة الذكور وبعد أن سمع ما سمع من سفاهات السفهاء من قومه فى أوائل

---

(٤) الكوثر / ٣ .

الدعـوة حين عـيّروه بأنه « أبتـر » ، فكانت ولادة هذا الطفل فى أخريات حياة أبيه بمثابة نسمة الهـواء المعطّرة البلِيلة تهب فى الأصيل على المهجَّر الذى شَوَتْ ريحُ السَّموم وجهَه طوال النهـار . لقد روت لنا كتب السيرة والحديث كيف وقعت هذه المصيبة على الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام حتى إن اثنين من صحابته كانا يسندانه من تحت إبطيه من هولهـا ، ودموعـه تجـرى على خـديه الكريمتين . لكن انظر فى القرآن الكريم ، فلن تجد شيئا من ذلك حتى ولا كلمة تعاطف مع هذا الأب المفؤود ﷺ . إنه حقـا كـلام السماء ، وليس تسجيلا لأحزانه ولا مصائب بيته .

هذا عن الأحزان ، ولا شكّ أن حياة رسول الله لم تَخْلُ ، على المستوى الشخصى ، من مباهج ومسرات . وهذا القرآن ، فاقرأه آية آية فلن تعثر فيه من ذلك على شىء : فلا حديث مثلا عن زواجه بأية واحـدة من نسـائه ، ولا حـتى عن عـائشة أو حـفـصـة ابنتى أقـرب أصدقائه إليه ولو من باب المجاملة لأبويهما مقابل ما أسدياه للإسلام من خدمات جُلَّى لا تقدَّر بثمن ، على الأقل ليضمن استمرارهما فى تعضيده والتضحية من أجل الدين الذى أتى به .

أما على مستوى الأمة فقد انتصر المسلمون فى كثير من الغزوات ، وهُزِموا فى أحد ومات سبعون منهم حمزة أسد الله ،

وتكالبت عليهم العرب واليهـود كالكـلاب المسعورة فى معركـة « الخندق » ، وتَلَقَّوْا فى حُنَيْن فى أوائل الحـرب ضـربة كـادت أن تُودِى بهم لولا ستر الله وشجاعة الرسول وثباته فى موضعه هو ونفر من أصحابه ثبات الأبطال ، وعادوا من مؤتة بعد مصرع ثلاثة من أعظم قـوادهم وأصـدقـائهم شدّا على أعـداء الله والدين ومنهم ابن عـمـه جـعـفـر الطيـار ، عـدا الجنود الذين لم تحـصـر كـتب السنة أعدادهم. فـهل تجد فى القرآن آية واحدة يُسْتَشَفُّ منها الحزن على هؤلاء الشهداء الذين سقطوا صرعى فى سبيل الله والدين والوطن ؟ إن غزوات بدر وأُحُد والأحزاب وتبوك وغيرها مسجلة فى القـرآن ، ولكنك لا تجد أبدا لا خفّة الانتشاء البشرى بالنصر ولا لوعة الحزن الإنسانى للهزيمة ، بل تسمع دائما الصوت الإلهى موجِّها ومخاطبا ومبـصِّرا ومـشيـرا إلى الدروس والعبر التى يجب على المسلمين أن يخرجوا بها من هذا النصر أو تلك الهزيمة . اسمع مثلا ما جاء فى بدر : « ولَقَدْ نَصَرَكـم اللّه ببـدرٍ وأنتم أذلّة ، فـاتقـوا الله لعلكم تشكرون * إذ تقول للمؤمنين : ألن يكفيكم أن يُمِدَّكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة مُنْزَلين * بَلَى ، إن تصـبـروا وتتـقـوا ويأتوكـم من فَوْرهم هذا يُمْدِدْكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مُسوِّمين * وما جعله الله إلا بُشْرَى لكم ولِتَطمئن قلوبكم به . ومـا النصـرُ إلا من عند الله العزيز الحكيم * ليقطع طَرَفًا من الذين كـفـروا أو يَكْبِتَهم

فينقلبوا خائبين»(٥) . وقبل أن نمضى إلى ما جاء عن ذات الغزوة في سورة « الأنفال » أسألك : أتجد شيئا من أفراح النصر هنا ؟ إن الآيات ليس فيها إلا امتنان الله سبحانه على المسلمين بأنه نَصَرَهم وهم أذلة . أما ما جاء في سورة « الأنفال » فهاكَه : « وإذ يَعِدُكم اللهُ إحدى الطائفتين أنّها لكم وتَوَدُّون أن غيرَ ذَاتِ الشّوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يُحِقَّ الحق بكلماته ، ويَقْطَعَ دابر الكافرين * لِيُحِقّ الحقَّ ويُبْطِلَ الباطِلَ ولو كَرِهَ المجرمون * إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني مُمِدّكم بألفٍ من الملائكة مُردِفين * وما جعله الله إلا بُشْرَى ، ولِتَطْمَئنّ به قلوبكم . وما النّصرُ إلا من عند الله . إن الله عزيزٌ حكيم * إذ يُغَشّيكُم النُّعاسَ أَمَنَةً منه ويُنزّلُ عليكم من السماء ماءً لِيُطَهّركم به ، ويُذْهِبَ عنكم رِجز الشيطانِ ، ولِيَرْبِطَ على قلوبكم ، ويُثَبّتَ به الأقدام * إذ يُوحى ربُّك إلى الملائكة أني معكم فثبِّتوا الذين آمَنوا . سأُلْقى فى قلوب الذين كفروا الرُّعْبَ ، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كلّ بَنَان * ذلك بأنهم شاقُّوا اللهَ ورسولَه ، ومن يشاقِقِ اللّهَ ورسولَه فإن اللّهَ شديدُ العقاب * ذلكم فذُوقوه وأنّ للكافرين عذابَ النار * يا أيها الذين آمنوا ، إذا لَقِيتم الذين كفروا زَحْفًا فلاتولُّوهم الأدبار * ومن يُوَلّهِمْ يومئذ دُبُرَه إلا

(٥) آل عمران / ١٢٣ ـ ١٢٧ .

مُتَحَرِّفًا لقتالٍ أو متحيِّزًا إلى فِئةٍ فقد باء بِغضب من الله ومأواه جهنم ، وبئس المصير * فلَمْ تقتلوهم ولكن الله قتلهم . وما رَمَيْتَ إذ رميت ولكن الله رمى ، ولِيُبْلِيَ المؤمنين منه بَلاَءً حَسَنا . إن الله سميع عليم * ذلكم وأن الله موهِنُ كَيْدِ الكافرين * إن تستفتحوا فقد جاءكم الفَتْحُ ، وإن تنتهوا فهو خير لكم ، وإن تعودوا نَعُدْ . ولن تُغْنِيَ عنكم فِئتُكُمْ شيئا ولو كَثُرَتْ وأن الله مع المؤمنين » (٦) .

فهل تسمع فى هذه الآيات هدير الموسيقى العسكرية أو هتافات الجماهير أو غناء الفنانين بكل ما فى ذلك من مبالغات وغُلُوّ وتضخيم للنصر وتحقير من شأن العدو ، شأن ردود فعل البشر لمثل هذا الانتصار الساحق الذى لم يكن يتوقعه المسلمون ؟ كلا ، بل هو التوجيه الإلهى للمؤمنين حتى لا يزدهيهم النصر فيَفْتُروا : « فلَمْ تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رَمَيْتَ إذ رَمَيْتَ ولكن الله رمى » . أما الكفار فلهم آية واحدة تنبههم بمنتهى الهدوء إلى أن مؤامراتهم وكيدهم وأموالهم ضائعة عبثا ، وأن الخير لهم أن يدخلوا فى الدين ويكفوا عن العدوان . أفبعد هذا يقال إن القرآن اختراع محمدى ؟

فهذا عن أول وأعظم انتصار أحرزه المسلمون . وإليك الآن ما نزل من وحى تعقيبا على أقسى هزيمة لحقت بهم ، هزيمة أُحُد :

(٦) الأنفال / ٧ ـ ١٩ .

يقـول تعـالى : « ولا تَهِنوا ولا تَحْزَنوا وأنتـم الأعْلَوْنَ إن كنتـم مؤمنين * إن يَمْسَسْكُم قَرْحٌ فقد مسَّ القومَ قَرْحٌ مِثْله . وتلكَ الأيام نُداوِلها بين الناس ، ولِيَعْلَمَ الله الذين آمنوا ، ويتخذ منكم شُهداءَ . والله لا يحب الظالمين * وليُمَحِّصَ اللهُ الذين آمنوا ويَمْحَقَ الكافرين* أم حَسِبتم أن تدخلوا الجنَّةَ ولما يَعْلَمِ اللهُ الذين جاهدوا منكم ويَعلَمَ الصابرين ؟ * ولقد كنتم تَمَنَّوْن الموتَ من قَبْلِ أن تَلْقَوْهُ، فقد رأيتموه وأنتم تنظرون * وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خَلَت من قبله الرُّسُلُ . أفإن مات أو قُتِلَ انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن يَنْقَلِبْ على عَقِبيه فلن يَضُرَّ اللهَ شيئا . وسيَجْزِى اللهُ الشاكرين * وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجَّلا . ومن يُرِدْ ثوابَ الدنيا نُؤْته منها ، ومن يُرِدْ ثوابَ الآخرة نُؤْته منها ، وسنَجزِى الشاكرين * وكأيِّنْ من نَبِىٍّ قاتَلَ معه رِبِّيُّون كثيرٌ ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا . والله يحب الصابرين * وما كان قولَهم إلا أن قالوا : ربَّنا ، اغفر لنا ذنوبَنا وإسرافَنا فى أمرنا ، وثبِّتْ أقدامنا ، وانصرنا على القَوْمِ الكافرين * فآتاهم اللهُ ثوابَ الدنيا وحُسْنَ ثواب الآخرة . والله يُحبُّ المُحْسنين * ياأيها الذين آمنوا ، إن تُطيعوا الذين كفروا يردُّوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين * بل اللهُ مولاكم وهو خيرُ الناصرين * سنُلْقِى فى

قلوب الذين كفروا الرُّعْبَ بما أشركوا بالله مالم يُنزِّل به سُلطانا . ومأواهم النّار ، وبئس مثْوَى الظالمين! * ولقد صدَقكم اللهُ وَعْدَه إذ تَحُسّونهم بإذْنه حتى إذا فَشِلْتم وتنازعتم فى الأمر وعصَيتم من بَعد ما أراكم ما تُحِبُّون : منْكُمْ من يُريد الدُّنيا ومنكم من يُريد الآخرةَ ، ثم صرفكم عنهم لِيبْتَلِيَكم . ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين * إذ تُصْعِدون ولا تَلْوُون على أحَدٍ والرسول يدعوكم فى أُخراكم ، فأثابكم غمّا بِغَمٍّ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم . واللهُ خبيرٌ بما تعملون * ثم أنزل عليكم من بَعْد الغَمِّ أَمَنَةً نُعاسا يَغْشَى طائفةً منكم ، وطائفةٌ قد أهمّتْهم أنفسُهم يظنون بالله غَيْرَ الحق ظنَّ الجاهلية . يقولون : هل لنا من الأمْرِ من شَيْء ؟ قل : إن الأمرَ كلّه لله . يُخْفون فى أنفسهم ما لا يُبْدُون لك . يقولون : لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتِلْنا ها هنا . قل : لو كنتم فى بيوتكم لبَرَزَ الذين كُتِب عليهم القتلُ إلى مضاجعهم ، وليبتليَ الله ما فى صدوركم ، وليمحِّص ما فى قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور * إن الذين تولّوْا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلّهم الشيطان ببعض ما كسبوا . ولقد عفا الله عنهم ، إن الله غفور حليم * يا أيها الذين آمنوا ، لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غُزّى : لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتلوا ، لِيَجْعَلَ اللهُ ذلك حَسْرَةً فى قلوبهم . والله يحيى ويميت ، والله بما

تعملون بصير * ولَئِنْ قُتِلْتُم فى سبيل اللّه أو مُتُّم لَمَغْفِرَةٌ من الله ورحمةٌ خيرٌ مما يَجْمَعُون * ولئن مُتُّم أو قُتِلْتُمْ لإلى الله تُحْشَرون * فَبِما رَحمةٍ من الله لِنْتَ لهم ، ولو كُنْتَ فَظًا غليظ القلب لانفضّوا مِنْ حَوْلِك . فاعفُ عنهم ، واستغفرْ لهم ، وشاوِرهم فى الأمر . فإذا عزمت فتوكّل على اللهِ ، إن الله يُحبُّ المتوكلين * إن يَنْصركم اللهُ فلا غالب لكم، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركُم مِنْ بَعْده. وعلى الله فلْيتوكل المؤمنون » (٧). فهل تسمع شيئا من عويل النساء أو صراخ الأطفال أو أنين المجروحين أو شهقات المقتولين ؟ أم هل تسمع شجارا أو جدالا للتنصل من مسؤولية الهزيمة ؟ أم هل ترى الرؤوس المنكّسة والمسلمون عائدون آخر النهار بعد تلك الضربة التي لم يتلقّوْا مثلها قسوة وإيجاعاً ؟ أم هل تراك تسمع صيحاتهم وهم يتكأكأون حول الرسول يتلقّوْن بظهورهم عنه السهام حتى لا يناله أذى والقتال دائر كالرحى الطحون ؟ إنك لا تسمع إلا الصوت الإلهى المبارك يربّت على الأكتاف ويأسو الجراح ويعاتب فى هدوء وثقة. إنه الله ! ثم أصخ السمع إلى الآية قبل الأخيرة : لقد كان مِنْ رأى الرسول أن يبقى المسلمون فى المدينة ، حتى إذا دخلها الكفار عليهم جعلوها لهم مَقْتَلَة ، فأبى المسلمون إلا الخروج ،

(٧) آل عمران / ١٣٩ ـ ١٦٠ .

وكان ما كان من عصيان الرماة أوامره عليه السلام بالتزام مواقعهم وعدم مبارحتها مهما تكن النتيجة وما ترتب على ذلك من هزيمة أليمة. إن القرآن بعد ذلك كله يقول للرسول : « فاعْفُ عنهم ، واستغفرْ لهم، وشاورْهم في الأمر » . ولو كان هذا القرآن من عند محمد لاهتبلها فرصةً وحمل فيها على من خالفوه حملة شعواء ، وقَلَبَها من شُوريّة إلى استبدادية . أمّا والقرآن من عند رب العالمين فإنه يأمره بمزيد من الشورى ، الشورى الحقيقية لا الشورى على طريقة زعماء الغوغاء الذين يقبضون على الشرفاء من المواطنين ويلقونهم في السجن أو يأمرون بدفنهم أحياء ثم لا يجدون حرجا من أن يظهروا أمام الجماهير وعلى وجوههم قناع الزيف والبهتان والخداع اللئيم صائحين : « مزيدا من الديمقراطية » ، وهم في الحقيقة إنما يَعْنُون « مزيدا من العَسْف والجهل والقتل وهتّك الأعراض » . ولكن أين الثريا من الثرى ؟ وأين رسول الله ﷺ من قاتلي الأحرار ومصاصي دماء الشعوب ومُذِليهم ؟ إن هؤلاء لتوحي إليهم شياطين البغي والتشبث بالسلطان ، أما رسول الله فتوحي إليه السماء وينزل عليه ملك كريم من لدن رب رحيم .

كذلك فعلى العكس من ضعف البشر وأفراحهم وأحزانهم نجد آيات القرآن تعكس أقباسا من الروح الإلهي . وسوف أتوقف هنا قليلا أمام عدد من الآيات التي يستطيع بسهولة أي إنسان مخلص ،

مسلما كان أو غير مسلم ، أن يشعر بما فيها من الجلال الإلهى .

إليك مثلا هذه الآيات التى تستنكر انحراف النصارى عن عقيدة التوحيد إلى التثليث الذى يجعلون فيه من المسيح إلها أو ابنا للإله : « لن يَسْتَنْكِفَ المسيحُ أن يكونَ عبداً لله ولا الملائكةُ المقرَّبون. ومن يستنكفْ عن عِبادته ويَسْتَكْبِرْ فسيحشرهم إليه جميعا * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفِّيهم أجورهم ويزيدهم من فَضْله ، وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ، ولا يجدون لهم من دون الله وَلِيّا ولا نصيرا » (٨) ، وتأمل ما فيها من إيجاز حاسم وثقة مطلقة واطمئنان تام . ولم لا ؟ أليست أَزِمّة الأمور كلها والسموات والأرض جميعا فى قبضته سبحانه ؟ أوليس كل مخلوق عائدا إليه يوم القيامة فسائله سبحانه ومحاسبه ؟ فأين إذن سيذهب المسيح أو غير المسيح منه سبحانه ؟ وإذا كانت الإشارة إلى المسيح إشارة غير مباشرة فى هذا التهديد الذى يتوعد الله به كل مستنكف فإن آية سورة « المائدة » التالية أصرح : إذ فيها ذكر المسيح (وأمه أيضا) باسميهما، وأعنف: فإن الكلام هنا عن الإهلاك لا عن مجرد الاستدعاء والحشر ، وأشمل : لأن التهديد ليس مقصورا على المستنكفين والمستكبرين وحدهم بل يمتد إلى أهل الأرض كلهم : « لقد كَفَرَ الذين قالوا : إن اللهَ هو المسيحُ بْنُ مريمَ.

(٨) النساء / ١٧٢ ـ ١٧٣ .

قل : فمن يَمْلِكُ من الله شيئا إن أراد أن يُهْلِكَ المسيحَ بْنَ مريمَ وأمَّه ومن فى الأرض جميعاً ؟ ولله مُلْكُ السماوات والأرض وما بينهما . يخلق ما يشاء ، والله على كل شىء قدير » (٩) . أما فى الآيات التالية فنجد مواجهة بين الله سبحانه وعبده عيسى عليه السلام ونقرأ هذا الحوار : « وإذ قال الله : يا عيسى بن مريم ، أأنت قُلْتَ للناس : اتخذونى وأُمِّىَ إلهين مِنْ دُون الله ؟ قال : سبحانك ! ما يكون لى أن أقولَ ما ليس لى بحق . إن كنتُ قلتهُ فقد علمتَه . تعلم ما فى نفسى ولا أعلمُ ما فى نفسك . إنك أنت علاّمُ الغيوب * ما قلتُ لهم إلا ما أمرتنى به : أن اعبدوا الله ربى وربكم . وكنتُ عليهم شهيدا ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم . وأنت على كل شىء شهيد * إن تُعذِّبْهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم * قال الله : هذا يومُ ينفعُ الصادقين صدقُهم . لهم جنّاتٌ تجرى من تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبدا . رَضِىَ الله عنهم ورَضُوا عنه . ذلك هو الفوزُ العظيم » (١٠) . إن الله عز وجل هنا لا يفعل أكثر من إلقاء هذا السؤال : « أأنت

---

(٩) المائدة / ١٧ . على أن الآية الكريمة ، برغم ذلك ، تعلّق هذا كله على الإرادة الإلهية : « إن أراد أن يُهْلِك المسيح بن مريم ... » . كذلك فالتحدى أساساً موجه إلى كل العباد . ثم إن الله هنا لا يخاطب عباده مباشرة بل يطلب من رسوله أن يقول لهم ذلك : (قل : فمن يملك ... ؟) .

(١٠) المائدة / ١١٦ ـ ١٢٠ .

قلت للناس : اتّخذونى وأُمّىَ إلهين من دُون الله ؟ » ، وهو سؤال مباشر وجِدٌّ موجز . ولاحظ كيف أن عيسى هنا يُنَادَى باسمه منسوبا إلى أمه دون ألقاب . إنه الله ينادى عبده ! والآن حوِّلْ عينيك إلى إجابة المسيح عليه السلام وستجده يتنصل بكل ما فى وسعه من جهد من اتخاذ أمته له ولأمه شريكين لله ، فهو يبدأ بتنزيه الله : « سبحانك ! »، ويثنّى بأنه لا يمكن أن يكون قد ادّعى ما ليس من حقه ، ثم يثلّث بأنه لو كان ذلك قد حدث لكان سبحانه قد علمه . وهنا يقارن السيد المسيح عليه السلام بين ربه وبينه هو نفسه فى مسألة العلم ، فالله يعلم كل شىء مما يدور فى نفس عبده ، بينما العبد لا يعرف شيئا مما عند مولاه . وهذا ليس مجرد استطراد ، بل هو مقصود قصدا لبيان أن المسيح ، على عكس كل ما يزعمه له من يدّعون أنهم أتباعه ، ليس إلا عبداً محدود المعرفة محجوبا عن الغيب لا يعلم منه شيئا . ثم يعود عليه السلام إلى تأكيد أنه لم يقل لأمته إلا ما أرسله الله به وأمره بتبليغه لهم : « اعبدوا الله » . ولاحظ كيف يتْبِع المسيحُ لفظة الجلالة بقوله : « ربّى وربّكم » ، بادئا بإضافة كلمة « الرب » إلى نفسه قبل إضافتها إلى قومه ، للتشديد على أنه مجرد عبد لله ، شأنه شأن قومه والناس أجمعين . ويمضى عليه السلام فيقرر أنه قد أدى الرسالة وبلغ الأمانة ، ويتحمل مسؤوليته كاملة . أما بعد أن توفاه

الله إليه فقد انتهت مهمته وأصبح أمر قومه إلى الله ، فهو الذى يعرف ماذا أحدثوا من بعده ، وهو الذى بيده المثوبة والعقاب ، وهم على كل حال عبيد الله : إن عذّبهم فهو إلههم ولا معقّب لحكمه ، وإن غفر لهم فبفضل منه ورحمة . وهو فى الحالتين العزيز الحكيم ... إلى آخر الحوار . أفلا تحس بالجلال الإلهى فى السؤال الموجز الحاسم ، وكذلك فى جواب المسيح عليه السلام بما فيه من رجفة العبد الخائف أمام مولاه العزيز المتعال ؟

وعلى هذا النحو من القراءة والتذوق والتحليل أرجو أن تقرأ الآية التالية التى يخاطب فيها المولى سبحانه الظالمين من عباده يوم القيامة بعد أن أمهلهم طويلاً : « ولقد جئتمونا فُرَادَى كما خلقناكم أوّل مرّة ، وتركتم ما خوّلْناكم وراء ظُهُورِكم . وما نرى معكم شفعاءَكم الذين زَعَمْتُمْ أنهم فيكم شركاء . لقد تَقَطَّع بيْنَكم، وضلّ عنكم ما كنتم تَزْعُمُون » [(١١)] ، وكذلك هذه الآيات التى تسجل ما دار من حوار بين القاهر الجبار سبحانه وبين إبليس قوة الشر الرئيسية فى العالم : « ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم ، ثم قلنا للملائكة : اسجُدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليسَ لم يَكُنْ من الساجدين* قال : ما منَعَك ألا تَسْجُدَ إذ أمرْتُك ؟ قال : أنا خيرٌ

---

(١١) الأنعام / ٩٤ .

منه. خلقتَنى من نار ، وخلقتَه من طين * قال : فاهبط منها ، فما يكون لك أن تتكبَّرَ فيها ، فاخرجْ إنك من الصاغرين * قال : أَنْظِرنى إلى يوم يُبْعَثون * قال : إنك من المُنْظَرين * قال : فبما أغويتنى لأَقْعُدَنَّ لهم صراطَك المستقيم * ثم لآتِيَنَّهم من بيْنِ أيديهم ومن خلْفِهم وعن أيْمانهم وعن شمائلهم ، ولا تَجدُ أكثرهم شاكرين * قال : اخرج منها مَذْؤوما مدحورا . لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأنَّ جهنم منكم أجمعين » (١٢) ، أو الآيتين التاليتين : «ويُسَبِّح الرعدُ بحمده ، والملائكة من خِيفَته . ويرسل الصواعق فيُصيب بها من يشاء . وهم يجادلون فى الله ، وهو شديد المحَال * له دعوة الحق ، والذين يَدْعُون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كَفَّيه إلى الماء ليبلغَ فَاه ، وما هو ببالغِه . وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال* ولله يسجدُ من فى السماوات والأرض طَوْعاً وكَرْهاً وظلالُهم بالغُدُوِّ والآصال » (١٣) ، أو هذه الآيات التى تصف حال الظالمين وما يأخذهم من رعب يوم الدين : « ولا تَحْسَبَنَّ اللهَ غافلا عما يعملُ الظالمون . إنما يؤخّرهم ليوم تَشْخَصُ فيه الأبصارُ * مُهْطِعين مُقْنِعى رؤوسهم ، لا يرتدّ إليهم طَرْفُهم ، وأفئدتهم هواءٌ * وأَنْذر الناس يوم يأتيهم العذابُ فيقول الذين ظلموا : ربَّنا ، أخِّرْنا إلى

(١٢) الأعراف / ١١ ـ ١٨ .

(١٣) الرعد / ١٣ ـ ١٥ .

أجلٍ قريب نُجِبْ دَعْوَتَك وَنَتَّبع الرُسُل . أَوَلَمْ تكونوا أقسمتم مِنْ قَبْل ما لكم من زَوَال ؟ * وسكنتم فى مساكن الذين الذين ظلموا أنفسهم وتَبَيَّن لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال * وقد مكروا مَكْرهُم ، وعند الله مَكْرُهم ، وإن كان مكرهم لتزولَ مِنه الجبال * فلا تَحْسَبَنَّ الله مُخْلفَ وَعْده رُسُلَه . إن الله عزيز ذو انتقام * يوم تُبَدَّل الأرضُ غيرَ الأرض والسماواتُ ، وبَرَزُوا لله الواحد القهار * وترى المجرمين يومئذ مُقَرَّنين فى الأصفاد * سرابيلهُم من قَطِران ، وتَغْشى وجوهَهم النارُ* ليَجْزِىَ اللهُ كلَّ نفس ما كَسَبَتْ . إن الله سريع الحساب * هذا بلاغٌ للناس ولِيُنْذَروا به ولِيعلموا أنما هو إلهٌ واحد وليذّكر أُولو الألباب» (١٤) ، وكذلك الآيات التى تتحدث عن قدرة الله سبحانه على الانتقام المروع وشمول سلطانه عز وجلّ : « أفَأَمِنَ الذين مكروا السيئات أن يَخْسِفَ اللهُ بهم الأرضَ أو يأتِيَهُم العذابُ من حيْثُ لايشعرون * أو يأخذَهم فى تقلُّبهم فما هم بمُعْجزين * أو يأخذَهم على تَخَوُّفٍ ؟ فإن ربَّكم لرءوفٌ رحيم * أَوَلَمْ يَرَوْا إلى ما خلق اللّه من شىءٍ يَتَفَيَّأُ ظلالُه عن اليمين والشمائل سُجَّدا لله وهم داخرون ؟ * ولله يسجد ما فى السماوات وما فى الأرض من دابة والملائكةُ وهم لا يستكبرون * يخافون ربهم

---

(١٤) إبراهيم / ٤٢ ـ ٥٢ .

مِنْ فوقهم ويفعلون ما يُؤْمَرون » (١٥) ، أو هذه الآيات من سورة « طه » : « ... وقد آتيناك من لَدُنّا ذكرا * من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وِزْرا * خالدين فيه ، وساء لهم يوم القيامة حِمْلا ! * يوم يُنْفَخ في الصُّور ونحشر المجرمين يومئذ زُرْقا * يتخافتون بينهم : إنْ لَبِثْتُم إلا عَشْراً * نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة : إنْ لبثتم إلا يوما * ويسألونك عن الجبال ، فقل : ينسِفُها ربى نَسْفا * فَيَذَرُها قاعا صَفْصَفَا * لا ترى فيها عوَجًا ولا أَمْتا * يومئذ يتّبعون الداعىَ لا عِوَجَ له . وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا * يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا مَنْ أذِنَ له الرّحمنُ ورَضِىَ له قولا * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون به علما * وعَنَتِ الوجوه للحىِّ القيوم وقد خاب من حمل ظلما » (١٦)، أو الآيات التالية من سورة « غافر » : « الذين يحملون العرش ومَنْ حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به، ويستغفرون للذين آمنوا : ربنا وَسِعْتَ كلَّ شىء رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وَقِهِمْ عذاب الجحيم * ربنا وأَدْخِلْهم جناتِ عَدْنٍ التى وعدتهم ومن صلَح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم . إنك أنت العزيز الحكيم * وقِهِم السيئات . ومن تَقِ

---

(١٥) النحل / ٤٥ ـ ٥٠ .

(١٦) طه / ٩٩ ـ ١١١ .

السيئات يومئذ فقد رحمته ، وذلك هو الفوز العظيم * إن الذين كفروا يُنَادَوْن : لَمَقْتُ الله أكبر من مَقْتكم أنفُسكم إذ تُدْعَوْن إلى الإيمان فتكفرون * قالوا : ربنا ، أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ، فاعترفنا بذنوبنا ، فهل إلى خروج من سبيل؟ * ذلكم بأنه إذا دُعِيَ الله وحده كفرتم ، وإن يُشْرَكْ به تؤمنوا ، فالحكم لله العليّ الكبير * هو الذى يريكم آياته وينزّل لكم من السماء رزقا ، وما يتذكر إلا من يُنيب * فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون * رفيع الدرجات ذو العرش يُلْقِى الروحَ من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التّلاقِ * يَوْمَ هم بارزون ، لا يخفى على الله منهم شيء . لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار * اليومَ تُجْزَى كلُّ نفس بما كسبت . لا ظلم اليوم . إن الله سريع الحساب * وأَنْذِرْهم يوم الآزفة إذ القلوبُ لدى الحناجر كاظمين . ما للظالمين من حميمٍ ولا شفيعٍ يطاع * يعلم خائنةَ الأعين وما تخفى الصدور » [١٧] . ثم نختتم هذه الباقة بهذه الآيات التالية : « كلُّ مَنْ عليها فانٍ * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام * فبأىّ آلاء ربكما تكذّبان ؟ * يسأله من فى السماوات والأرض . كلّ يوم هو فى شأن * فبأى آلاء ربكما تكذبان؟ * سَنَفْرُغ لكم أيها الثّقَلان* فبأى آلاء ربكما

---

(١٧) غافر / ٧ ـ ١٩ .

تكذبان ؟ * يامعشر الجن والإنس ، إن استطعتم أن تنفُذوا من أقطار السماوات والأرض فانفُذوا . لا تنفُذون إلا بسلطان * فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ * يُرْسَل عليكما شُواظ من نارٍ ونُحَاسٌ فلا تنتصران » (١٨) . إن آيات القرآن تشع جلالا إلهيا ، ومن الصعب حقيقة بل من المستحيل أن أصدق أن محمدا قد افتراها من لَدُنْه ، فأين هو من هذا الجبروت الذى يعكس السلطان المطلق والقدرة اللانهائية والإرادة التى لا تَنِدُّ عن قبضتها شاردةٌ ولا واردة ؟ إن المسألة ليست كما يقول المستشرقون من أنه عليه السلام كان يوجه الكلام إلى نفسه ، مستخدما فعل الأمر « قُلْ » ليوهم الناس أن الله هو الذى يخاطبه ، بل هى مسألة هذا النَّفَس الإلهى ، فمن أين لمحمد به ؟

واسمع كيف يخاطب الله ذو الجبروت نبيه فى بعض المواضع من القرآن المجيد : « وإما ينْزَغَنّكَ من الشيطان نَزْغٌ فاستعِذ بالله . إنّه سَمِيعٌ عليم » (١٩) ، « وإما ينْزَغَنّكَ من الشيطان نَزْغٌ فاستعذْ بالله. إنه هو السميع العليم » (٢٠) ، «وقل : ربِّ ، أعوذ بك من هَمَزَات الشياطين * وأعوذُ بك ، ربِّ ، أن يَحْضُرون » (٢١) ، « فلا تكونَنَّ

(١٨) الرحمن / ٢٦ ـ ٣٥ .
(١٩) الأعراف / ٢٠٠ .
(٢٠) فصلت / ٣٦ .
(٢١) المؤمنون / ٩٧ ـ ٩٨ .

ظهيراً للكافرين » (٢٢) ، «يا أيها النبى ، اتق الله ولا تُطع الكافرين والمنافقين ، إن الله كان عليما حكيما » (٢٣) . واسمع كذلك كيف كان محمد يخاف معصية ربه خوفا شديدا ، وهو رسول الله الذى ينزل عليه الوحي من السماء والذى يبشر الناس وينذرهم : «قل: إنى أخاف إن عَصَيْتُ رَبى عذابَ يومٍ عظيم » (٢٤). ولذلك كان من دعائه لربه : « ربّ ، إما تُرِيَنّى ما يُوعَدُون * ربٌ ، فلا تجعلنى فى القوم الظالمين » (٢٥) . وحتى فى أخريات حياته ﷺ وبعد أن نجح فى الامتحان الإلهى نجاحا رائعاً فنزل قوله تعالى : «إنا فتحنا لك فتحا مبينا * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر »(٢٦) ظل عليه السلام يقوم الليل وينْصَبُ فى العبادة والتهجد والدعاء . ولما سألْته بعض زوجاته عن سر هذا التعب ما دام الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر كان جوابه : « أفلا أكون عبدا شكوراً ؟ » . ولو كان عليه السلام هو الذى اخترع هذه الآية فلماذا أجّلها إلى أخريات حياته؟ (٢٧) ولماذا استمر بعدها يقوم الليل

---

(٢٢) القصص / ٨٦ .

(٢٣) الأحزاب / ١ .

(٢٤) الأنعام / ١٥ ، والزمر / ١٣ .

(٢٥) المؤمنون / ٩٣ ـ ٩٤ .

(٢٦) الفتح / ١ ـ ٢ .

(٢٧) بعد صلح الحديبية .

ويتهجد فى العبادة والدعاء بدلا من أن يغط فى نوم هانئ لذيذ؟ ومع ذلك فإن الله سبحانه يأمره عليه السلام فى سورة لاحقة (هى سورة « النصر ») بالاستغفار .

وقد ظل هذا الصوت الإلهى مع الرسول عليه السلام لم يفارقه لحظة ، فكان كلما حزن بسبب عناد قومه [٢٨] وكفرهم وركوبهم رؤوسهم بالباطل وخوفه عليهم مما ينتظرهم من عقاب الدنيا وعذاب الآخرة ، وذلك لما طبع عليه ﷺ من حب للحق وغيرة عليه ورحمة للبشر ، كان هذا الصوت دائما فى أذنيه يخفف عنه أحزانه : « ولا يَحْزُنْكَ الذين يُسارعون فى الكفر ، إنهم لن يَضُرُّوا الله شيئا . يريدُ اللهُ ألاّ يَجْعَلَ لَهُم حظا فى الآخرة ، ولهم عذاب عظيم » [٢٩] ، « يا أيها الرسول ، لا يَحْزُنْكَ الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا : « آمنّا » بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، ومن الذين هادوا » [٣٠] ، « قد نعلم إنه لَيَحْزُنُكَ الذى يقولون . فإنهم لا يُكَذِّبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يَجْحَدون » [٣١] ، « ولا

---

(٢٨) المقصود بقومه هنا كل من دعاهم إلى الإسلام ، فيدخل فيهم اليهود والنصارى.

(٢٩) آل عمران / ١٧٦ .

(٣٠) المائدة / ٤١ .

(٣١) الأنعام / ٣٢ .

يَحْزُنْكَ قولُهم . إن العزة لله جميعا . هو السميع العليم »(٣٢) ، «ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون * فَسَبِّحْ بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » (٣٣)، «ومن كفر فلا يَحْزُنْكَ كُفره » (٣٤) ، وينصحه بالصبر : «اصبِرْ على ما يقولون» (٣٥) ، « واصبِرْ لحُكْم ربك ، فإنك بأعيننا » (٣٦) ، « فاصبر لحكم ربك ، ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم * لولا أن تَدَارَكَهُ نعمةٌ من ربه لَنُبِذ بالعَراء وهو مذموم » (٣٧) ، « فاصبر صبرا جميلا » (٣٨) ، « ولِربِّك فاصْبِرْ » (٣٩) ؛ « واصبِرْ لحُكْم ربك ، ولا تُطِعْ منهم آثما أو كفوراً » (٤٠) . وحينما يشتد به الضيق وتطبق الأحزان على صدره حتى لتكاد تخنقه أسفا على مصير قومه ينهاه الوحى عن ذلك :

---

(٣٢) يونس / ٦٥ .

(٣٣) الحِجر / ٦٧ ـ ٩٩ .

(٣٤) لقمان / ٢٣ .

(٣٥) ص / ١٧ .

(٣٦) الطور / ٤٨ .

(٣٧) القلم / ٤٨ ـ ٤٩ .

(٣٨) المعارج / ٥ .

(٣٩) المدثر / ٧ .

(٤٠) الإنسان / ٢٥ .

« فلعلك باخعٌ نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » (٤١) ، « لعلك باخعٌ نفسك ألا يكونوا مؤمنين » (٤٢). ذلك أن الله لم يُنزل عليه القرآن ليشقيه ، وإنما تذكرةً لمن يخشى : « طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى * إلا تذكرةً لمن يخشى »(٤٣). كذلك فليست مهمته أن يحمل الناس على الإيمان حملا ، إذ إن مسؤوليته تنتهي عند حدود الإبلاغ والتذكير : « وما جعلناك عليهم حفيظا ، وما أنت عليهم بوكيل »(٤٤) ، « وما أنت عليهم بجبّار » (٤٥) ، « لستَ عليهم بمسيطر » (٤٦) . ومن هنا نجده يقول لقومه : « وما أنا عليكم بحفيظ »(٤٧) .

وفي ضوء هذا يمكننا أن نفهم قوله تعالى : « وقال الذين كفروا: لولا نُزِّل عليه القرآنُ جملةً واحدة . كذلك لنثبِّتَ به فؤادك، ورتَّلناه ترتيلا » (٤٨) . وفي هذا الرد القرآني على اعتراض الكفار ما

---

(٤١) الكهف / ٦ .

(٤٢) الشعراء / ٣ .

(٤٣) طه / ١ ـ ٣ .

(٤٤) الأنعام / ١٠٧ .

(٤٥) ق / ٤٥ .

(٤٦) الغاشية / ٢٢ .

(٤٧) الأنعام / ١٠٤ .

(٤٨) الفرقان / ٣٢ .

يدل على أن قائل هذا الكلام لا يمكن أن يكون محمدا عليه السلام ، فالكاذبون المزيفون لا يمكن أبدا أن يعترفوا أمام خصومهم بحاجتهم إلى من يثبت لهم أفئدتهم ، لأن هذا ضعف ، وكل إنسان ، وبخاصة إذا كان مدّعيا ملفقا ، يحرص على أن يستر نقاط الضعف فى نفسه أشد الحرص ويبذل فى ذلك كل ما فى يديه . كذلك لو كان محمد هو مؤلف هذا القرآن وأحرجه قومه بهذا الاعتراض لكان رد فعله هو مراجعة نفسه والعكوف فى بيته أياما أو أسابيع يؤلف لهم كتابا كاملا ثم يخرج به عليهم قائلا : « هاكم ما طلبتموه . أما هذا الذى كان ينزل علىّ من القرآن منجّما قبلا فقد كان القطرات الأولى من الغيث التى تسبق الانهمار . فما رأيكم الآن ؟ » . وقد كان باستطاعته عليه السلام أن يأخذ حذره مبكرا فيضمّن قرآنه آيات تؤكد أنه مهما يفعل من شىء فهو مقبول عند الله ، لأن الله قد جعله فوق المساءلة والحساب وأعطاه الحرية المطلقة فى الفعل والترك حسبما يحلو له ، وبذلك يَضْمَن ألا يعترض عليه أحد بعد ذلك على أى فعل يأتيه أو يَدَعُه ، فإن بعض المستشرقين يزعمون أنه عليه السلام قد تعمّد أن يكون القرآن منجّما كى يستطيع الرد على مفاجآت الحوادث حسب رغبته وهواه وظروفه(٤٩).

---

(٤٩) انظر تعليقنا على ما قاله المستشرق الفرنسى سافارى فى هذه النقطة فى كتابنا « المستشرقون والقرآن » / ١١ .

ولم يقف تثبيت القرآن له ﷺ عند حد التخفيف من أحزانه ونُصْحه ألا يَدَع أسفه على قومه يقضى عليه ، بل كان الله سبحانه يحذره من أن ينتابه أى شك فيما ينزل عليه من وحى : « فلا تكوننّ من الممترين » (٥٠) ، « فإن كنتَ فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك . لقد جاءك الحق من ربك ، فلا تكوننّ من الممترين * ولا تكوننّ من الذين كذّبوا بآيات الله فتكونَ من الخاسرين » (٥١) ، « فلا تَكُ فى مِرْيَةٍ منه . إنه الحق من ربك ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » (٥٢) أو فى ضلال قومه من عَبَدَة الأصنام والأهواء : « فلا تَكُ فى مِرْيَةٍ مما يعبد هؤلاء . ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قَبْلُ » (٥٣) . كما كان سبحانه وتعالى يحذره من فِخاخهم وألاعيبهم التى يهدفون بها إلى أن يَحْرِفوه عن صراط الله العزيز الحميد : « وأنِ احْكُمْ بينهم بما أنزل الله ، ولا تتّبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك »(٥٤) ، « وإن تطع أكثر مَنْ فى الأرض يُضِلّوك عن سبيل الله » (٥٥) ، « وإن كادوا ليَفْتِنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترىَ

---

(٥٠) البقرة / ١٤٧ .

(٥١) يونس / ٩٤ ـ ٩٥ .

(٥٢) هود / ١٧ .

(٥٣) هود / ١٠٩ .

(٥٤) المائدة / ٤٩ .

(٥٥) الأنعام / ١١٦ .

علينا غيره . وإذن لاتّخذوك خليلاً » (٥٦) ، «ولا يصدُّنّك عن آيات الله بعد إذ أُنْزِلَتْ إليك » (٥٧) ، « ولا تَدْعُ مع الله إلها آخر » (٥٨) . تُرَى أيمكن أن يفكر محمد فى نهى نفسه عن الشك فيما ينزل عليه من وحى ؟ إن ذلك ، فضلا عن أنه يكشف ما كلُّ إنسانٍ حريصٌ على ستره ، وبخاصة إذا كان مدعيا كاذبا ، لا يمكن أن يخطر له على بال .

أم تراه عليه الصلاة والسلام (لو أنه ، حسب زعم الكافرين ، هو صاحب القرآن)كان يمكن أن يخاطب نفسه بهذه اللهجة الشديدة ؟ : « ليس لك من الأمر شيء ، أو يتوبَ عليهم أو يعذّبَهم، فإنهم ظالمون »(٥٩) ، « ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ، إن الله لايحب من كان خوّانًا أثيما » (٦٠) « فبِمَا رحمةٍ من الله لِنْتَ لهم . ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك » (٦١) ، « يا أيها الرسول ، بلّغْ ما أُنزِل إليك من ربك ،

---

(٥٦) الإسراء / ٧٣ .

(٥٧) القصص / ٨٧ .

(٥٨) القصص / ٨٨ .

(٥٩) آل عمران / ١٢٨ .

(٦٠) النساء / ٦١ .

(٦١) آل عمران / ١٥٩ .

وإن لم تفعل فما بلَّغْتَ رسالته »[٦٢]. « وإن كان كَبُرَ عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نَفَقًا فى الأرض أو سُلّمًا فى السماء فتأتيهم بآية . ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ، فلا تكوننَّ من الجاهلين » [٦٣] ، « ولاتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيِّ يريدون وجهه . ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء ، فتطردَهم فتكونَ من الظالمين » [٦٤] ، « ولولا أن ثبَّتناك لقد كدْتَ تَرْكَنُ إليهم شيئا قليلا * إذن لأذقناك ضِعْفَ الحياة وضِعْفَ الممات ، ثم لا تجد لك علينا نصيرا »[٦٥] ، « ولَئِنْ شئنا لنذهبنَّ بالذى أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا » [٦٦]، « وتخشى الناس ، والله أحق أن تخشاه » [٦٧]، « ولو تَقَوَّل علينا بَعْضَ الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقَطَعْنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين » [٦٨] .

أم تراه كان يتحدث فى قرآنه عن أخطائه ليرددها الآلاف فى عصره وملايين الملايين على مدى العصور بدلا من سترها (هذا إن

(٦٢) المائدة / ٦٢ .

(٦٣) الأنعام / ٣٥ .

(٦٤) الأنعام / ٥٢ . وثمة آية مشابهة فى سورة « الكهف » هى الآية / ٢٨ .

(٦٥) الإسراء / ٧٥ .

(٦٦) الإسراء / ٨٦ .

(٦٧) الأحزاب / ٣٧ .

(٦٨) الحاقة / ٤٤ ـ ٤٧ .

عدّها هو نفسه أخطاء أصلا) ؟ : « ما كان لنبيٍّ أن يكون له أسْرَى حتى يُثْخِن في الأرض . تريدون عَرَض الدنيا ، والله يريد الآخرة . والله عزيز حكيم * لولا كتاب من الله سَبَقَ لمسّكم فيما أخذتم عذاب عظيم »(٦٩) ، « عبَس وتولّى * أن جاءه الأعمى * وما يُدْريك لعله يزّكّى * أو يَذّكّر فتنفعَه الذكرى * أما من استغنى * فأنت له تَصَدّى * وما عليك ألا يزّكّى * وأما من جاءك يسعى * وهو يخشى * فأنت عنه تَلَهّى * كلا ، إنها تذكرة * فمن شاء ذكره * في صحف مكرّمة * مرفوعة مطهّرة * بأيدى سَفَرة * كرام بَرَرَة »(٧٠) . ومنذ أن نزلت هذه الآيات والرسولُ حريصٌ على أن يقرّب إليه ابن أم مكتوم (الذى يدور حوله هذا الوحى) ، بل لقد خلّفَه على المدينة مراراً حين كان يخرج مع المسلمين للغزو .

كذلك لو كان عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام مؤلفَ القرآن فلِمَ يكشفُ عواطفه على هذا النحو فى الآية التالية : « لا يحلُّ لك النّساءُ مِنْ بَعْدُ ولا أن تَبَدّل بهن من أزواجٍ ولو أعْجَبَكَ حُسْنُهنّ »(٧١) ؟ لماذا « لو أعجبك حسنهن » هذه ؟ إن إصدار التشريع السابق (ويصعب على أن أعتقد أن محمدا هو مَصْدَرُه) لم

(٦٩) الأنفال / ٦٧ ـ ٦٨ .

(٧٠) عبَس / ١ ـ ١٦ .

(٧١) الأحزاب / ٥٢ .

يكن ليتطلب إشارة إلى إعجاب الرسول عليه السلام بحسن من يراهنّ من النساء . كذلك لو صح الافتراض المستحيل بأنه هو مؤلف القرآن فلِمَ يجعل أمور بيته الخاصة وسيرة زوجاته مضغة فى أفواه الكافة هكذا ؟: « يا أيها النبى ، قل لأزواجك : إن كنتنّ تُرِدْنَ الحياة الدنيا وزينتها فتعالَيْنَ أمتِّعْكُنَّ وأسرِّحْكنّ سَراحا جميلا * وإن كنتنّ تُرِدْنَ الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعدّ للمحسنات منكن أجرا عظيما * يا نساء النبى ، من يأتِ منكنّ بفاحشة مبيّنة يضاعَفْ لها العذابُ ضعفين ، وكان ذلك على الله يسيرا » (٧٢) ، « يا أيها النبى ، لِمَ تحرّم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك ؟ والله غفور رحيم * قد فرض الله لكم تَحِلّةَ أيمانكم . والله مولاكم، وهو العليم الحكيم * وإذ أسرّ النبى إلى بعض أزواجه حديثا ، فلما نبّأتْ به وأظهره الله عليه عرّف بعضه وأعرض عن بعض . فلما نبأها به قالت : من أنبأك هذا؟ قال : نبأنى العليم الخبير * إن تتوبا إلى الله فقد صَغَتْ قلوبكما ، وإن تَظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين . والملائكة بعد ذلك ظهير * عسى ربه ، إن طلقكن ، أن يُبْدِله أزواجا خيرا منكن : مسلماتٍ مؤمنات قانتات تائباتٍ عابدات سائحات ثيباتٍ وأبكارا » (٧٣). إن التفسير الواضح والمستقيم لكل هذا هو أنه قرآن

---

(٧٢) الأحزاب / ٢٨ ـ ٣٠ .

(٧٣) التحريم / ١ ـ ٥ .

كريم من لدن عزيز حكيم .

ولا أحب أن تفوتنى الإشارة إلى أن القرآن ، برغم حملته على بنى إسرائيل لكفرهم وصلابة رقابهم وقساوة قلوبهم وتحريفهم الكلم عن مواضعه وكتابتهم بأيديهم ما يقولون إنه من عند الله وقولهم على مريم بهتانا عظيما وزعمهم أنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم ، يعترف لهم بأن الله قد فضّلهم يوما على العالمين وآتاهم أنبياء وجعلهم ملوكا . وقد كان باستطاعة سيدنا رسول الله ، لو أنه مؤلف القرآن ورأى منهم الكفر به واللَّدَد فى خصومته والسخرية منه ومن دينه وأتباعه والتآمر على قتله وتأليب الكفار ضده والغدر بالدولة التى كانوا يستظلون بحمايتها ، أن ينكر هذا التفضيل. لكنه ، وهو الرسول المأمور من ربه ، لم يفكر فى تغيير هذه الحقيقة الإلهية أدنى تغيير . صحيح أن القرآن قد حمل عليهم كما سلف القول ، لكنه قد فعل ذلك لانحرافهم عن الصراط المستقيم ، إذ إن فضل الله ليس ضربة لازب ، وإنما هو يدور مع الإيمان وفعل الخيرات ، لا تشذ أمّة عن ذلك . وها هو ذا القرآن ، حين يقول للمسلمين أنفسهم : « كنتم خير أمة أُخْرِجت للناس » ، ينصّ على شروط هذه الخيرية فيقول : « تأمرون بالمعروف وتنهوْن عن المنكر ، وتؤمنون بالله » (٧٤) . وفى موضع آخر نراه يحذرهم من

(٧٤) آل عمران / ١١٠ .

ذات المصير الذى آل إليه أهل الكتاب : « ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقَسَتْ قلوبهم ؟ وكثير منهم فاسقون » (٧٥) ، مما يتبين معه أن القربى من الله ليست حكرا على أمة دون أمة ، بل إن فضل الله بابه مفتوح لمن يستحقه ، فإذا تولّى تَوَلّى عنه الله وحرمه من فضله ونعمته .

كذلك لو أن محمدا هو الذى اخترع القرآن لما أشار من قريب أو من بعيد إلى معجزات السابقين من إخوانه الأنبياء أبـدا ولأَصَرّ على أن ما ورد فيها من روايات مكتوبة أو متناقَلَة شفاها إنما هو أساطير الأولين ، سواء فى ذلك معجزات أنبياء بنى إسرائيل أو أنبياء العرب . ولقد كان من المستحيل على أى إنسان أن يثبت العكس كما قلت فى موضع سابق من هذا الكتاب . أما اعترافه بهذه المعجزات فى الوقت الذى كان يقول فيه لكل من يطلب منه معجزة تبرهن على صدقه ورسالته : « سبحان ربى ! هل كنت إلا بشرا رسولا ؟ » (٧٦) فذلك مما لا يفعله بشر .

ومثل ذلك حرص القرآن على أن ينفى عنه عليه السلام

---

(٧٥) الحديد / ١٦ .

(٧٦) الإسراء / ٩٥ .

معرفته بوقت قيام الساعة : « إليه (أى إلى الله) يُرَدّ عِلْم الساعة » (٧٧) ، «يسألونك عن الساعة : أيّانَ مُرْساها * فيمَ أنت مِنْ ذِكْراها ؟ * إلى ربك منتهاها * إنما أنت منذرُ من يخشاها » (٧٨). ولو أنه هو صاحب القرآن لضرب لهم موعدا بعيدا بعد مماته ، كأن يقول لهم إنها ستقع بعد ألف سنة مثلا . بل إن متنبئة الهنود مثلا فى زماننا ليحددون موعدا لها بعد أسابيع فيخرج المغفلون من ديارهم بعيدا عن العمران وينامون فى الخلاء ، ثم تأتى الساعة الموعودة ولا ساعة ولا يحزنون .

---

(٧٧) فُصِّلَتْ / ٤٧ .

(٧٨) النازعات / ٤٢ ـ ٤٥ .

المصادر والمراجع

أولا : باللغة العربية

* القرآن الكريم وعدد من كتب التفاسير المختلفة .

* الكتاب المقدس .

المعاجم والموسوعات :

* الأعلام / الزركلى / دار العلم للملايين / بيروت ط ٦ / ١٩٨٤ .

* قاموس علم الاجتماع / د . محمد عاطف غيث / الهيئة المصرية العامة للكتاب / ١٩٧٩ .

* معجم العلوم الاجتماعية / تصدير ومراجعة د . إبراهيم مدكور / الهيئة المصرية العامة للكتاب / ١٩٧٥ .

* الموسوعة الثقافية / دار الشعب .

الكتب الأخرى (مرتبة حسب أسماء مؤلفيها) :

* د . إبراهيم عوض / المستشرقون والقرآن / دار الحقوق .

* آرثر جفرى / مقدمتان فى علوم القرآن (انظر « ابن عطية ») .

* ابن حزم / الفِصَل فى الملل والأهواء والنحل / مكتبة السلام العالمية / القاهرة .

* ابن عطية / مقدمتان فى علوم القرآن (مقدمة كتاب « المبانى » ومقدمة ابن عطية)/ نشر آرثر جفرى ، وتصحيح عبد الله إسماعيل الصاوى / مكتبة الخانجى / القاهرة / ١٩٧٢ .

* ابن هشام / السيرة النبوية / تقديم وتعليق طه عبد الرءوف سعد / مكتبة الكليات الأزهرية / القاهرة .

* البخارى / صحيح البخارى بحاشية السندى / دار إحياء الكتب العربية .

* بلاشير / القرآن / ترجمة رضا سعادة / دار الكتاب اللبنانى / بيروت / ١٩٧٤ .

* توماس كارلايل / الأبطال / ترجمة محمد السباعى / كتاب الهلال (العددان ٣٢٦ ، ٣٢٧) / فبراير ومارس ١٩٧٨.

* السيوطى / الإتقان فى علوم القرآن / ط ٤ / مصطفى البابى الحلبى/ القاهرة / ١٩٧٩ .

* السيوطى / تنوير الحوالك على شرح موطإ مالك / دار إحياء الكتب العربية / القاهرة .

* سيجموند فرويد / الموجز فى التحليل النفسى / ترجمة سامى محمود على وعبد السلام القفاش / ط ٢ / دار المعارف / القاهرة / ١٩٧٠ .

* سيد سابق / فقه السنة / دار الكتاب العربى / بيروت/ ١٩٧١.

* الشهرستانى / الملل والنحل / تحقيق محمد سيد كيلانى / مصطفى البابى الحلبى / القاهرة / ١٩٧٦ .

* الشوكانى / نيل الأوطار / دار التراث / القاهرة .

* العقاد / مطلع النور / كتاب الهلال (العدد ٥٠)/ مايو ١٩٥٥.

* الإمام مالك / الموطأ (انظر « السيوطى ») .

* مالك بن نبى / الظاهرة القرآنية / ترجمة عبد الصبور شاهين / مكتبة دار العروبة / القاهرة / ١٩٥٨ .

* د. محمد حسين هيكل / ط ٣ / حياة محمد / دار القلم / القاهرة .

* د. محمد عبد الله دراز / النبأ العظيم / مطبعة السعادة / القاهرة / ١٩٦٠ .

* محمود الشرقاوى / القرآن المجيد / دار الشعب / القاهرة / ١٩٧١.

* الإمام مسلم / صحيح مسلم / دار إحياء الكتب العربية/ القاهرة.

* موريس بوكاى / القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم (مترجم عن الفرنسية) / دار المعارف / القاهرة / ١٩٨٢ .

* الإمام النووى / رياض الصالحين / مراجعة وتعليق محمد الأنور البلتاجى / دار التراث العربى / القاهرة / ١٩٨٠ .

ثانيا : باللغات الأوروبية

المعاجم والموسوعات :

* Chamber's Biographical Dictionary, 1911.

* A Critical Dictionary of Psychoanalysis, charles Rycroft, Penguin Books, 1973.

* Dictionnaire de Biographie, d' Histoire, de Geographie, des Antiquites & des Institutions, Librairie Ch. Delagrave, Paris,1883.

* Dictionary of Islam, T. P. Hughes, Oniental Books, New Delhi, 1976.

* A Dictionary of Psychology, James Drever, Penguin Books, 1977.

* A Dictionary of Philosophy, edited by Antony Flew, Pan Books, 1979.

* Enyclopaedia Britannica, 14th edition.

* The new Bible Dictionery, edited by J. D. Douglas, Inter-Varsity Press, London, 1972.

* New Medical Dictionary , Baker & Margerison, Associoted Newspapers Ltd .

* Philosophical Dictionary , Voltaire, translated and edited by Theodore Besterman , Penguin Books, 1971.

الكتب الأخرى (مرتبة حسب أسماء مؤلفيها):

أ ـ بالإنجليزية :

* عبد الله يوسف على/ ترجمة معانى القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية / نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية / الرياض .

* Ali, Moulana Cheragh, A Critical Exposition of the Popular Jihad, Calcutta, Thacker, Spink & Co., 1885 .

*Appleton, . E. R., An Outline of Religion for Children, Hodder & Stoughton, London.

* Bouquet, A. C., Comparative Religion , Pelican Books, 1958 .

* Gibb, Mohammedanism, Oxford University Press, 1949 .

* Gore, Charles (editor), A New Commentary on Holy Scripture, Society for Promoting Christian Knowledge , London, 1929 .

* Guillaume, Alfed, Islam, Pelican Books, 1964.

* Irving, W., Mahomet and His Successors, edited by Pochmann & Feltscog, The University of Wisconsin Press, Madison, Milwaukee, London , 1970.

* Kellett, E. E., A Short History of Religion , Gollancz, London , 1933 .

* Margoliouth, D. S., Mohammedanism, Williams & Norgate, London , 1921 .

* Menzis, Allan, History of Religion, John Murry, London , 1911 .

* Mirza Abul fazl, Life of Mohammed, Asian Publication Services, New Delhi , 1980 .

* Rodinson, Maxime, Mohammed , translated from French by Anne Carter, Penguin Books, 1977 .

* Rodwell, The Koran, Dent, London , 1909 .

* Wells , H. G., Experiment in Autobiography, Gollancz, London, 1934 .

* Wells, H. G., The Outline of History, Cassell , London, New York ..., 1920 .

ب ـ بالفرنسية

*Blachère, R., Le Coran, Librairie Orientale et Américaine,Paris, 1957 .

*Blachère, Histoire de la Littérature Arabe, Librairie d' Amérique et d' Orient, Paris, 1964 .

* Fahmi, Mansour, La Condition de la Femme dans la Tradition et l' Evolution de l' Islamisme, Librairie Félix Alcan, Paris, 1913 .

* Gheorghiu, Virgil , La Vie de Mahomet, traduit du Romain par Livia Lamoure, Plon , 1970 .

* Hubby, Joseph , Christus : Manuel d' Histoire des Religions , Beauchenese et ses Fils, Paris , 1946.

* Kasimirski, Le Coran , Garnier - Flammarion , Paris, 1970 .

* Ledit, Charles - J., Mahomet , Israël et le Christ , La Colombe, 1956 .

* Masson , Le Coran , Gallimard, Paris, 1980 .

جـ - بالألمانية :

* Henning , Max, Der Koran, Reclam, Stuttgart, 1981.

* Maulana Sadr-ud-din , Der Koran, Die Moschee, die Muslimische Mission, Berlin , 1964 .

* Paret, Rudi, Der Koran , W., Kohlhammer, Stuttgart, Berlin, Koln, Mainz , 1983 .

الفهرست

رقم الإيداع ٣٤٨٨ / ٩٧

الترقيم الدولى
٩٧٧/٥٧٨٩/٤٢/٧



دار الفردوس للطباعة

ت: ٢٩٧٩٥٣٥

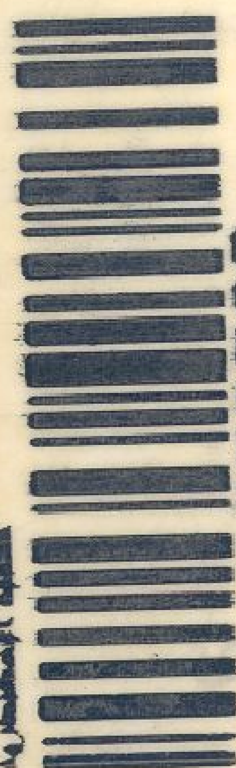


د. إبراهيم عـوض

* ليسـانس آداب جامعة القاهرة ١٩٧٠ م
* دكتـوراره من جامعة أوكسفورد ١٩٨٢ م
* له عدد من المؤلفات النقدية والإسلامية

منـهـا :

- المتنبى - دراسة جديدة لحياتـه وشخصيته
- لغـة المتـنـبى - دراسـة تحـلـيـلـيـة
- المتنبى بإزاء القرن الإسماعيلى فى تاريخ الإسلام (مـترجم عن الفـرنسـيـة)
- المسـتـشـرقـون و القـرآن
- ماذا بعد إعلان سلمان رشدى توبته ؟ دراسة فنية وموضوعية للآيات الشيطانية
- الترجمة من الإنجليزيـة - منهـج جديد
- عنتـرة بـن شـداد - قضايا إنسانية وفنية
- النـابغـة الجعـدى وشـعـره
- مـن ذخـائـر المكتبـة العـربيـة
- السجع فـى القـرآن (مترجم عن الإنجليزية)
- جمـال الدين الأفغـانى - مـراسلات ووثائق لم تنشر من قبل (مـترجم عن الفـرنسـيـة)
- فصـول مـن النقـد القصصى
- سـورة طـه - دراسـة لغوية أسلوبية مقارنة
- أصـول الشـعـر العربى (مترجم عن الإنجليزية)
- افـتـراءات الكاتبـة البنجلاديشـيـة تسليمـة نسـرين على الإسلام والمسلمين
  دراسـة نقـديـة لروايـة « العـار »
- مصـدر القـرآن - دراسـة لشبهـات المستشـرقين والمبشـرين حـول الوحى المحمدى



مكتبة زهراء الشرق

١١٦ شارع محمد فريد ـ القاهرة